وزارة الثقافة
المركز الوطني للاتصال الثقافي



محمد ابن الخوجة

المؤرخ والرحالة

تقديم وتحقيق
علي العريبي



سلسلة « ذاكرة وإبداع »



محمد ابن الخوجة : المؤرخ والرحالة

تقديم وتحقيق : علي العريبي
تاريخ النشر : 2011
الناشر : وزار الثقافة، المركز الوطني للاتصال الثقافي
مكان النشر : تونس
اللغة : العربية
الوصف المادي للوثيقة : 280 ص. ؛ 21 سم.
ردمك 978-9973-910-42-7
السلسلة : ذاكرة وإبداع، عدد 39
الموضوع : محمد ابن الخوجة أعمال وتراجم
تصنيف ديوي العشري : 920
المفاتيح : أعمال وتراجم، الرحلات، محمد ابن الخوجة، مؤرخ، رسائل، الفكر التونسي المعاصر، أعلام تونسيون، التراث الثقافي والحضاري التونسي، الحداثة، النهضة الفكرية والأدبية في تونس، الحركة الإصلاحية، تاريخ تونس، المكتبة الوطنية، الخلدونية الرقمية، الانسانيات الرقمية.



وزارة الثقافة
المركز الوطني للاتصال الثقافي

سلسلة « ذاكرة وإبداع » [39]

محمد ابن الخوجة

المؤرخ والرحالة

تقديم وتحقيق
علي العريبي

المركز الوطني للاتصال الثقافي
تونس 2011

« وزارة الثقافة »

المركز الوطني للاتّصال الثقافي

سلسلة «ذاكرة وإبداع»

إدارة السيدة نور الهدى الصّدفي

الإشراف : أ. عبد الوهاب الدّخلي

الكتاب عدد 39

محمد ابن الخوجة

المؤرخ والرّحالة

تقديم وتحقيق

علي العريبي

الطبعة الأولى : 1000 نسخة

تونس، نوفمبر 2011

الانجاز الطباعي : مطبعة أوربيس - تونس

الهاتف : 229 280 71 - الفاكس : 231 280 71

ر.د.م.ك : 978-9973-910-42-7

الإخراج الفني والمتابعة : فتحي اللّواتي

الإهداء

إلى والدي الذي رحل منذ عشرين عاما ولم يرحل

« وزارة الثقافة »

المركز الوطني للاتصال الثقافي

سلسلة «ذاكرة وإبداع»

إدارة السيدة نور الهدى الصدفي

الإشراف : [illegible]

[illegible]

الطبعة الأولى : 1000 نسخة

تونس، نوفمبر 2011

الإنجاز الطباعي : مطبعة أوربيس - تونس

الهاتف : 229 280 71 - الفاكس : 231 280 71

ر.د.م.ك : 978-9973-910-42-7

الإخراج الفني والمطبعي : [illegible]

كلمة أولى

لئن لم يهتم محمد ابن الخوجة بتاريخ تونس منذ أن عرف لهذا البلد تاريخ، كما فعل البشير صفر وحسن حسني عبد الوهاب، فإن الرجل درس موضوعات وأبحاثا حضارية، وعرّف بشخصيات تونسية، ومواقع أثرية اندثر الكثير منها.

ويبدو أنه اختار منذ البداية هذه المواضيع المفردة، ومن يقارن بين الفصول التي كتبها في المجلة الزيتونية ومجلة شمس الإسلام، وبين المقالات التي كتبها في جريدة الحاضرة لا يرى كبير فرق بين ما كتبه في عهدي الشباب والشيخوخة.

وقد تسنى التعريف بكاتبين من فرسان التحرير الصحفي في جريدة الحاضرة، وهما علي بوشوشة والبشير صفر، وبقي ثالثهم في حاجة إلى التعريف، والاطلاع على مدى مساهمته مع رفيقيه في المشروع الثقافي والحضاري الذي اشتركوا في إرسائه وانجازه، خلال ربع قرن على انتصاب الحماية على تونس.

وقد حاولت في هذا العمل أن أبرز مشاركته في الدفاع عن الثقافة الوطنية التي عمل الاستعمار الفرنسي على إطفاء جذوتها، وطمس معالمها، ولم يفلح في ذلك، بفضل جهود النخبة المثقفة التي كان ابن الخوجة من أبرز عناصرها.

وتمثّل دفاعه عنها في إحياء التراث الثقافي والحضاري، وهو الحصن المنيع الذي لم تستطع الثقافة الغازية اقتحامه،

ولا النيل منه، وكان جماعة الحاضرة، ومنهم ابن الخوجة، يرفضون رفضا قاطعا أن تمس هوية تونس العربية الاسلامية من بعيد أو من قريب، ولعل وطنيتهم الصادقة تمثلت في هذا الجانب، وكان الكثير منهم يعتقد أن الاحتلال زائل لا محالة، وكان شعارهم جميعا «كل آت قريب» وكانوا يرغبون من الاحتلال نشر التمدن والحضارة بالبلاد التونسية، ونشر التعليم والعمل على اخراج البلاد من التخلف، حتى تلتحق بركب الأمم المتقدمة، وهذا هو سر مداراتهم له، ولعلهم وابن الخوجة منهم، كانوا يرددون : وَدَارِهِمْ ما دمت تحت حكمهم، حتى ينقشع الظلام، وتزول الغمّة.

ويبدو أن دور ابن الخوجة في التوجه إلى تاريخ تونس، واختيار عينات من هذا التاريخ، ودراستها بمنهجية علمية أمر لا يمكن أن ينكره أحد، وليس لذي لبّ أن يستهين به.

ولا شك أنه يستحق أن يصدر عنه كتاب في سلسلة (ذاكرة وإبداع) التي تصدرها وزارة الثقافة، بإشراف الأستاذ عبد الوهاب الدخلي، كما صدر عن رفيقيه صفر وبوشوشة من قبل، ولوزارة الثقافة كل التقدير والتنويه على جهودها في التعريف بهؤلاء الأعلام الذين خدموا تونس الحضارة والتاريخ بصدق وأمانة، ثم رحلوا... رحمهم الله.

علي العريبي

محمد ابن الخوجة الرحالة والمؤرخ

محمد (بفتح الميم) ابن الخوجة من أصل تركي، جاء جده الأول [1] إلى تونس في النصف الثاني من القرن السادس عشر، وكان قبل مجيئه إلى تونس يشغل خطة قاضي الجيش، ولما استهوته الإقامة بتونس طلب البقاء بها للاضطلاع بنفس الخطة، فلبت الدولة العثمانية رغبته، وأنجب أبناء، ومن قاضي الجيش هذا تكونت الأسرة الخوجية التي عرفت بولائها للدولة الحسينية، فقد شغل الكثير من أعضاء هذه الأسرة مناصب دينية وإدارية هامة،فكان منهم القضاة والمفاتي ومدرّسو جامع الزيتونة، وشيوخ الإسلام، ونذكر من بينهم شيخ الإسلام محمد ابن الخوجة، جد المترجم له المؤرخ محمد ابن الخوجة.

مسيـــرة حياتـــه :

ولد محمد ابن الخوجة بن محمد البشير ابن الخوجة بحي حوانيت عاشور بتونس سنة 1869 حسب الوثائق الرسمية [2]

---

(1) انظر حديثه عن جده الأول، معالم التوحيد ص113 وراجع : الصادق الزمرلي: أعلام تونسيون، تعريب وتقديم حمادي الساحلي دار الغرب الإسلامي ط 1 بيروت 1986 ص 225

(2) ملف محمد ابن الخوجة سلسلة(أ) كارتون26 ملف(1) بالأرشيف الوطني التونسي، بالإضافة إلى المراجع التالية التي كتبت في حياته:

Lambert(Paul) : Dictionnaire p 52 53

Arrouas: Livre d'or p 27

Alexis Paro Le Petit Matin , 26 Aout 1930

تعلم بجامع الزيتونة، فالمدرسة الصادقية، ثم بمعهد ترشيح المعلمين (المعهد العلوي) [1]

ولم يلبث أن دخل الوظيف، وهو صغير السن (1886) فابتدأ حياته الإدارية مترجما بالكتابة العامة للحكومة، ثم بقسم الحسابات (1892) الذي يشرف عليه البشير صفر، ولما غادره هذا الأخير إلى إدارة الأوقاف (1900) أصبح محمد ابن الخوجة رئيس قسم الحسابات، مكان زميله صفر، مع إشرافه على إدارة المطبعة الرسمية [2] بعد وفاة حسن لازغلي الجزائري الأصل، وقد أصدر ابن الخوجة تقويما سنويا سماه الروزنامة التونسية، وسنعود إلى هذا التقويم

---

(1) نسبة إلى علي باي الذي تولى العرش الحسيني بين سنتي 1882 و1902 وقد أسس هذا المعهد لتخريج معلمين يقومون بتدريس اللغة الفرنسية في المدارس الفرنسية العربية التي كونها لويس ماشويل أول مدير لإدارة المعارف في عهد الحماية.

(2) جاء في الحاضرة:» محمد ابن الخوجة: رئيس قسم المحاسبة بالكتابة العامة بالدولة التونسية أصبح مديرا لإدارة المطبعة والرائد التونسي» ع612 بتاريخ 4 سبتمبر 1900

ونشير إلى أن من تولى من التونسيين رئاسة إدارة المطبعة الرسمية منذ تأسيسها سنة 1860حتى سنة 1917 هم:

الجنرال حسين (1860) رئيس المجلس البلدي

الشيخ محمد بيرم (1871) رئيس جمعية الأوقاف

أحمد الورتتاني (1875) رئيس جمعية الأوقاف

حسن لازغلي (1882)

محمد ابن الخوجة(1900 – 1917) رئيس قسم المحاسبة.

ثم تولاها بعد ذلك فرنسيون (انظر التقويم التونسي للشاذلي بن حسن 1343 / 1924)

فيما يأتي، وبقي في خطة رئيس قسم المحاسبات حتى سنة 1914 وابتداء من منتصف هذه السنة سمي رئيسا لقسم التشريفات بقصر الباي ومترجمه الرسمي، وذلك بأمر من المقيم العام السابع قبريال ألابوتيت (1907 ـ 1918) قصد تمتين الروابط بين قصر الباي والإقامة العامة، وبقي في هذا المنصب حتى سنة 1919.

وفي هذه الفترة أرسله الناصر باي (1906 ـ 1922) مبعوثا إلى يوسف سلطان المغرب لربط أواصر المودة بين الملكين، وتمتين الصلات بين القطرين، وقد استقبل في المغرب من قبل المثقفين بهذه البلاد استقبالا حسنا، وفي هذه السفرة التقى بزميله مدير التشريفات المغربية (عبد القادر بن غبريط) واتفقا على تأسيس جمعية أحباس الحرمين الشريفين التي أصبحت تشمل الأقطار الثلاثة (تونس والجزائر والمغرب) وبما أنه العضو المؤسس لهذه الجمعية فقد تكررت زياراته إلى القطرين المذكورين [1].

وكلّف أثناء عمله بمهمات سياسية، فقد سمي مندوبا للوفد التونسي الذي سافر للمشاركة في لجنة الإصلاحات التونسية التي عقدها (ادوارد هيريو) سنة 1926 كما كان عضوا في الوفد الرسمي الذي مثل الحكومة التونسية في حفلة افتتاح جامع باريس في نفس السنة [2].

وفي سنة 1920 دعي لتولي مهام خطة قائد (والي) بقابس

(1) انظر الفاضل ابن عاشور: تراجم الأعلام ص 304 – 307

(2) راجع الفاضل ابن عاشور: تراجم الأعلام ص304

فالكاف، ثم بنزرت التي بقي بها عشر سنوات، وأحيل على التقاعد سنة 1934 ولخدماته للدولة سمي مستشارا للحكومة التونسية، وهي ميزة لم يحظ بها غيره من أصدقائه الإداريين الذين تسنموا مناصب سامية في ذلك العهد، الأمر الذي دعا المرحوم محمد محفوظ إلى القول: «إنه كان محرزا على رضى الدولة الحامية، وهي لا تضعها إلا فيمن كان ضالعا معها، موافقا على سياستها مع الأهالي» [1] ولخدماته الادارية سمي أمير أمراء، وسار على « الطريقة الإفرنجية

---

(1) محمد محفوظ : تراجم المؤلفين التونسيين ط دار الغرب الإسلامي بيروت 1982 ج2 ص 260 والحق أن بعض المثقفين ،إن لم نقل كلهم،خدموا ركاب الحماية، وقسم منهم لم يكن يتصور أن الحماية ستزول في يوم من الأيام، ونذكر على سبيل المثال المؤرخ حسن حسني عبد الوهاب الذي كان والده عاملا (واليا) وتوفي سنة 1904 فقد حدثني الأستاذ محمد عوينة، فقال: « كنت قبيل الاستقلال عضوا في الشبيبة الدستورية، وأرادت الشعبة التي انتمي إليها إقامة حفلة – أو اجتماع – ولما كانت في حاجة إلى المال فكرت في التوجه إلى المواطنين للتبرع، وكان من نصيبي التوجه إلى حسن حسني عبد الوهاب وغيره، ولما قدمت إليه نفسي. وطلبت منه المساهمة، نهرني وأطردني شر طردة، وقال لي: يكذب عليكم من يقول لكم: إنه سيخرج فرنسا من تونس، وتكون تونس مستقلة في مستقبل الأيام، فانسحبت هاربا» ومن لم يدار سلطة الحماية هاجر الى المشرق مثل الخضر حسين، وصالح الشريف، واسماعيل الصفائحي، ولما أراد محمد السنوسي وجماعة من المثقفين معارضة سياسة الحماية في (النازلة التونسية) المعروفة نفي إلى الجنوب التونسي، وفصل البعض عن عمله، ولانت قناة الشيخ السنوسي، ورأى أن الأسلم له مجاراة هذه السلطة الغاشمة، وأن الوقت لم يحن بعد للمواجهة، ولا بد من مراعاة الظروف والملابسات للحكم على مواقف هؤلاء المثقفين وعلاقتهم بدولة الحماية.

في تسمية نفسه بعنوان رتبته العسكرية بمرادفها الفرنسي مضموما للقبه بدون اسم (الجنرال ابن الخوجة) وكتبها في أوراق زيارته واشتهر بها» [1] مما يدل على اعتزاز الرجل بهذه الألقاب والنياشين.

ومنذ توليه إدارة التشريفات انقطع عن التحرير والتأليف «ولكنه لم ينقطع عن المطالعة والمراجعة والتقييد، حتى كان اعتزاله حياة الوظيف العملي في 31 مارس 1934 فرجع إليه نشاطه العلمي، واتخذ من مكتبته [2] الأنيقة في منزله مصرفا لمعظم أوقاته بين المطالعة والتقييد في قالب المقالات والتأليف، فكان الكامل عندي هذا الطور من حياته بفضل ما أنتجت الأطوار الماضية من حياته كلها» [3] وفي هذه الفترة نشر دراسات هامة في تاريخ تونس الثقافي في المجلتين الزيتونية وشمس الإسلام، كما نشر كتابه الذي توج به حياته، وهو (معالم التوحيد في القديم وفي الجديد).

وقبيل وفاته (1942) نزع منه المنصف باي مهمة المستشارية، فحالما ارتقى الباي المذكور العرش الحسيني (19 جوان 1942) قرر إقصاء محمد ابن الخوجة من البلاط، وأثر فيه هذا الإقصاء تأثيرا شديدا «فلم يعمر بعدها إلا أشهرا

---

(1) محمد الفاضل ابن عاشور: تراجم الأعلام، ط الدار التونسية للنشر1970 ص 301.

(2) من يتأمل في فهرس مكتبته المودعة الآن بالمكتبة الوطنية يلاحظ أن جلها في التاريخ عامة، وتاريخ تونس بصفة خاصة، مما يدل على اهتمامه بهذا الفن.

(3) الفاضل ابن عاشور: تراجم الأعلام ص 315 – 316.

معدودة، فرض خلالها على نفسه عزلة تامة، وخالية من أي اعتراض لا طائل من ورائه» [1] ولا شك أن هذه العزلة تذكر خلالها شريط حياته، وسر بالكثير مما عمل على إنجازه صحبة رفقائه من مثقفي عصره، وخاصة في جريدتهم الحاضرة التي نشر فيها مقالاته (1889 - 1900) ورغم كثرة الوظائف التي تقلدها في آن واحد، وطول المدة التي قضاها في العمل الإداري، وهي أربعون سنة أو تزيد لم يترك لزوجته شيئا تعيش منه، كما جاء في ملفه المذكور أعلاه.

مشاركته في تأسيس (الحاضرة) والتحرير بها :

يعتبر محمد ابن الخوجة من مؤسسي جريدة الحاضرة، ومن أبرز محرريها، بعد علي بوشوشة والبشير صفر، وعلى صفحات هذه الجريدة الوطنية الأولى بدأ يظهر اهتمامه بالتاريخ التونسي، حتى أصبح من أشهر المؤرخين في عهد الحماية، بالإضافة إلى البشير صفر وحسن حسني عبد الوهاب [2] وقد قام كبقية الأعضاء المؤسسين لهذه الجريدة بدفع مبلغ من المال ذي بال في ذلك العهد [3]

أما مساهمته في التحرير بالجريدة فتتمثل في ضبط الحوادث المحلية في ركن الحاضرة القار واسمه

---

(1) الزمرلي: مرجع مذكور ص 235.

(2) راجع حمادي الساحلي: فصول في التاريخ والحضارة دار الغرب الإسلامي بيروت 1992 ص14 .

(3) انظر قائمة المؤسسين للحاضرة والتعريف بهم في بحثنا الحاضرة ص 72 وما بعدها، وسنشير إليه فيما يأتي اختصارا هكذا: الحاضرة.

(حوادث داخلية) وهو ركن أسبوعي يهتم بنشاط المقيم العام عند إشرافه على مجلس الوزراء أو عند تنقله في المملكة التونسية، وينقل هذا الركن خطبه وتصريحاته، ويهتم كذلك بنشاط علي باي (1882 - 1902) المتمثل في زيارة قبور بعض الأولياء الصالحين، إلا أن ابنه محمد الهادي باي (1902 - 1906) كان أكثر نشاطا من أبيه، فقد اهتمت الجريدة بزيارته لباريس، كما أن محمد الناصر باي (1906 - 1922) اهتمت بنشاطه بصورة مكثفة، وخاصة عند تنقله إلى فرنسا، واستماعه لمديح الشعراء.

كما اهتم هذا الركن بزيارة المسؤولين الفرنسيين (رئيس الجمهورية أو الوزراء ...) أما الوزير الأكبر فلا نشاط له يذكر إلا عند وفاته أو تنصيب خلف له، وقس على ذلك وزير القلم والاستشارة، وبالعكس من ذلك تتحدث الصحيفة عن نشاط الكاتب العام للحكومة (وزير الداخلية) برنارد روا عند تنقله في المملكة أو عند سفره إلى فرنسا في فصل الصيف، أو عند إشرافه على نشاط العمال والمراقبين.

ويهتم ركن (حوادث داخلية) بالعمال التونسيين (الولاة) وأغلبهم من أصدقاء محرري الحاضرة، ومن خريجي المدرسة الصادقية مثل يونس حجوج والشاذلي بن فرحات وغيرهما، كما تهتم بتنقلات الأعضاء المؤسسين للجريدة إلى أوروبا أو الشرق مثل البشير صفر، خليل بوحاجب وزوجته الأميرة نازلي فاضل.

وفي هذا الركن نشر محررو الجريدة ردودهم على الصحف الفرنسية والإيطالية واليهودية والمالطية.

ويبدو أن محرر هذا الركن، وخاصة ما يتعلق بشؤون السياسة الداخلية هو محمد ابن الخوجة.

وكان لابن الخوجة نصيب الأسد في تراجم المشاهير من التونسيين وغيرهم [1] وفي هذه الصحيفة نشر ابن الخوجة (سلوك الإبريز في مسالك باريز) وهي عبارة عن رحلة قام بها إلى باريس صحبة البعثة التونسية إلى معرض باريس سنة 1900، وسنعود إلى هذه الرحلة فيما يأتي.

كما شارك رفقاءه في الحاضرة في الردود على الصحف الأجنبية التي تنقص من شأن الأهلي، وتهزأ من عاداتهم وتقاليدهم، وترى أن تشبثهم بدينهم وعقيدتهم هما السبب في تأخرهم،وتعمل هذه الصحف على الحط من اللغة العربية، وتعتبرها فرعا من اللغة المالطية، لمجرد وجود كلمات عربية في هذه اللغة، كما فعلت جريدة لا تونيزي (La Tunisie) لزعيم المعمرين بتونس فيكتور دوكرنيار.

اهتم محمد ابن الخوجة بالرد على هذه الدعوى وأعلن منذ البداية أن اللغة المالطية باتفاق فرع محرف من اللغة العربية الفصحى، وشبه ذلك بتولد الفرنسية والمالطية عن اللاتينية، إلا أن المالطيين لا يعترفون بتأثير اللغة العربية في لغتهم عنادا وتكبرا، ويفتخر المالطي، وهو على باطل بلغته هذه التي هي خليط من الكلمات العربية والإيطالية،

---

(1) ترجم مثلا لمحمد عبده عند وفاته. الحاضرة ع 852 بتاريخ 25 جويلية 1905(انظر المختارات) راجع للمؤلف : تراجم الأعلام بجريدة الحاضرة، المج الصادقية ع 22، أفريل 2001 ص34 – 37.

وقد خبر أحمد فارس الشدياق أهل مالطة، وعرف لغتهم فقال يصفها:

تبّا لَهَا لُغَـــةٌ بِغَيْرِ قِرَاءَةٍ *** وكتَابَـةٍ عَيْـنٌ بِلاَ إنْسَـانِ

تَتَبَلْبَلُ الأَلْبَابُ فِي تَرْكِيبِهَا *** وَيَكِلُّ عَنْهَا كُلُّ حَدٍّ لِسَانِ

أَذْنَابُهَا وَرُؤُوسُهَـا عَرَبِيَّـةٌ *** فَسَدَتْ وَأَوْسَطُهَا مِنَ الطِّلْيَانِ

ويذكر ابن الخوجة نموذجا من الشعر المالطي :

المحبوب تا قلبي سـافـرْ *** ليلي ونهـــــاري نَبكيحْ

جَعَلْتِلُّو بدموعي البَحْـرَ *** وبالتنهيدات تا قلبي الريحْ

ويقارن ابن الخوجة بين هذين البيتين من الشعر المالطي وبين هذا البيت للسان الدين بن الخطيب :

والبحر قد خفَقَتْ عليكَ ضُلُوعُهُ

والرِّيحُ تَبْتَاعُ الزفيرَ وتُرسِلُ

والشبه الموجود بين اللغة العربية واللغة المالطية يذكّر ابن الخوجة بقول الشاعر :

ولا تفرَحْ لأَوَّلِ مَا تَرَاهُ *** فأَوَّلُ طَالعٍ فَجْرٌ كَذُوبُ [1]

وهذا الرد يوحي بأن الجالية المالطية كانت لها منزلتها وحظوتها لدى إدارة الحماية، ومن جهة أخرى فإن تونس الجريحة أصبحت مرمى لحثالة القوم وشذاذهم، فطمع فيها كل من هب ودب، وأشبع أهلها لكما ورفسا، وأصبحت لغتها

---

(1) انظر محمد ابن الخوجة : اللسان المالطي الحاضرة بتاريخ 9 سبتمبر 1889 وقد نشر هنا.

العربية الفصحى فرعا عن اللغة المالطية، أليس هذا من باب « رفسة الحمار للأسد العليل».

وردود ابن الخوجة على الصحف الفرنسية بشقّيها الرسمي والخاص بالمعمرين قليلة، إذا قورنت بما كتبه علي بوشوشة أو البشير صفر، فلا نجد إلا ردين أحدهما هذا المقال الذي كنا بصدده، والمقال الثاني عنوانه (إلى أين تؤول الحال) الذي شنثبته في المختارات، وسنعود إلى عناوين الفصول التي كتبها في جريدة الحاضرة عندما نتحدث عن آثاره.

والحاصل أن مشاركة ابن الخوجة في التحرير بهذه الجريدة تمثلت في كتابة باب الحوادث الداخلية: أي بالنشاط السياسي والاجتماعي والثقافي في المملكة التونسية في عهد الحاضرة، ويكاد يختص في جريدة (الحاضرة) بتحرير قسم تراجم الأعلام: إذ كان من عادة جريدة (الحاضرة)أن تترجم لكل الأعيان والمشاهير، في كل ميدان، بمناسبة وفاتهم، أو ترقيتهم في وظيف، أو تسميتهم في منصب جديد، وقد ترجمت (الحاضرة) لقرابة مائة علم، ويبدو أن نصيب ابن الخوجة من هذه التراجم كان هاما.

وشارك ابن الخوجة علي بوشوشة والبشير صفر في تحرير بعض الافتتاحيات، أو الأبحاث بإمضاء (م. خ.) وتتميز مساهمته في الكتابة بجريدة (الحاضرة) عامة بميله «إلى إحياء التاريخ التونسي، وتراجم المشاهير من التونسيين، بأيسر مناسبة» [1].

---

(1) الفاضل ابن عاشور: تراجم الأعلام ص 309

هذا بالنسبة لمشاركته في تأسيس الحاضرة والتحرير بها،وسنعود إلى النظر في مقالاته التاريخية فيما سيأتي، أما مساهمته في تأسيس بقية المشاريع التربوية والثقافية صحبة جماعة الحاضرة فيتمثل فيما يليّ:

مشاركته في بقية المشاريع :

أراد رناي ملي المقيم العام الخامس (1894 - 1900) أن يتقرب إلى النخبة المثقفة آنذاك، ويستميلهم إلى جانبه، حتى يظهر للعموم أنه يعامل الأهالي كما يعامل بقية الأقليات التي كانت متواجدة بتونس (فرنسيون، إيطاليون، مالطيون ويهود) ووجدت هذه النخبة من إدارة الحماية كل المساعدة والدعم، وخاصة تشجيعها لهم في إنشاء مؤسسات خيرية وجمعيات ثقافية.

واتفق المؤسسون بما فيهم المقيم العام على أن الهدف من تأسيس الخلدونية هو «إظهار الموافقة بين الشريعة الإسلامية والتمدن الحالي باستعمال ما لا ينافيها من الطرق الجديدة في التعليم (...) وأن تونس هي المكان الملائم لتطبيق التقارب الإسلامي الأوروبي، لأسباب حضارية وتاريخية» [1].

ولئن كان الهدف المعلن هو تمكين طلبة الزيتونة من تعلم العلوم الرياضية والجغرافيا والتاريخ، وبصفة عامة إكمال النقص الواضح في برامج الزيتونة، وتعليم العلوم النافعة باللغة العربية، فإن هدف المقيم العام هو جلب الزيتونيين،

---

(1) الحاضرة ع 433 بتاريخ 19 جانفي 1897

باعتبار أن حذق اللغة الفرنسية سيؤدي إلى الانبهار بالثقافة الفرنسية، والإعجاب بها، ولعل هذا الإعجاب بهذه الثقافة الوافدة سيؤدي بطلبة الجامع الأعظم إلى التذبذب بين الثقافة العربية والثقافة الفرنسية.

ولكنّ توجهَ التعليم في الخلدونية سار وجهة أخرى لم تكن إدارة الحماية وخاصة المعمرين يرغبون فيها، صحيح أنها تعمل على بث التعليم العصري في صفوف الزيتونيين، ولكنها كانت تعمل من جهة أخرى على بث الروح الوطنية في نفوس هؤلاء الطلبة، وتتضح هذه الناحية بصورة واضحة في دروس البشير صفر، وما بث في نفوس طلبته من إحساس وطني عن طريق محاضراته في التاريخ الإسلامي، وقد اعترف بهذا التأثير عبد الحميد بن باديس (1889 - 1940) عندما قال: «إن كراريس البشير صفر (يقصد مفتاح التاريخ المطبوع بتونس سنة 1928) الصغيرة الحجم الغزيرة العلم هي التي كان لها الفضل في اطلاعه على تاريخ أمته وقومه، والتي زرعت في صدره هذه الروح التي انتهت به اليوم لأن يكون جنديا من جنود الجزائر» [1]

أما زعيم المعمّرين دوكرنيار فقد تفطن إلى خطورة هذه الجمعية على الحضور الفرنسي بتونس عندما قال : «إذا ما قدر أن تندلع ثورة في البلاد التونسية فإن هيئة أركان ثوارها تكون قد تخرجت من الخلدونية» [2]

---

(1) المج الزيتونية المجلد الأول ص 262.

(2) شارل اندري جوليان : المعمرون الفرنسيون وحركة الشباب التونسي، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة الشركة التونسية للتوزيع (د –

هذه المؤسسة التربوية شاركتْ في تكوينها النخبة المثقفة من مدرّسيين وزيتونيين من أمثال سالم بوحاجب والبشير صفر ومحمد الأصرم ومحمد ابن الخوجة.

وكان ابن الخوجة من محرري القانون الداخلي لهذه الجمعية صحبة محمد القروي (1847 - 1941) وكان سكرتيرا بها من سنة1898 حتى سنة 1902 ومن أعضائها المنتخبين ابتداء من سنة 1898 [1] وبقي يعمل بها بجد ونشاط حتى خروج صديقه البشير صفر منها، بسبب نقلته عاملا في سوسة (1908) وعندها فارقها ابن الخوجة فراقا لا لقاء بعده، وكان يدرس بها مسك الدفاتر، ثم التاريخ لتلامذتها الأولين، كما يقول [2] وسنعود إلى نظرته إلى التاريخ فيما بعد.

وعندما تأسست المدرسة العليا للغة والآداب العربية (1911) دعي ابن الخوجة لتدريس التـاريخ والترجمة «حيث تخرج عليه كثير من نبغـاء رجـال الأدب

ت) ص 77. انظر لمزيد التوسع بحثنا الحاضرة ص243 – 262.

(1) لا نجد ابن الخوجة من الأعضاء المنتخبين في الجمعية الخلدونية بالنسبة للسنة الدراسية 1896 – 1897 وكان رئيس الخلدونية في هذا التاريخ محمد القروي، وأما الأعضاء الذين وقع انتخابهم فهم : البشير صفر وخليل بوحاجب ويونس حجوج وعلي بن أحمد ومحمدَ الأصرم والعزيز الحيوني والعربي بن عمر ومحمد رضوان وخيرالدين بن مصطفى ومحمد السلامي وأحمد الغطاس (الحاضرة ع 331 بتاريخ 5 جانفي 1897).

(2) محمد ابن الخوجة: انقراض طبقة من أهل العلم والفضل، المج الزيتونية مارس 1941 ص 18.

والإدارة، لم نزل (يقول الفاضل ابن عــاشور) نسمع منـهم الثناء على دروسه والإشادة بحسن أثره في تكوين ثقافتهم العربية»[1]

ومن المؤسسات التي شارك فيها بماله ونشاطه المدرسة الفلاحية بالأنصارين، وهي أول مدرسة فنية في تاريخ تونس الحديثة، وهدفها تخريج عملة مختصين في الفلاحة، عارفين بأساليب خدمة الأرض وفلحها، وعارفين أيضا بتدبير الماشية، والإلمام بأنواع التربة إلماما جيدا، بالإضافة إلى تدريبهم على صناعة الحديد والنجارة، حتى يتسنى لهم صنع عربات النقل وإصلاح آلات الفلاحة وفكها وتركيبها، ويتلقى تلامذة هذه المدرسة دروسا نظرية في قواعد الفلاحة وغراسة الكروم وزراعة المقاثي والخضر والعود الرقيق عن معلمين تخرجوا من مكتب الفلاحة بتونس، وكل المواد تدرس باللغة العربية إلى جانب تعليم التلامذة (أعمارهم بين 12 سنة و18) القراءة والكتابة واللغة الفرنسية والتاريخ والأخلاق، ومن يتأمل في برامج هذه المدرسة والمواد التي تدرس بها يلاحظ أنها جمعت بين الجانب النظري كما ذكرنا والجانب التطبيقي على أرض المزرعة التي بنيت المدرسة فوقها، إلى جانب تربية الحيوانات من أبقار وخيول وأغنام وغيرها.

وقد حزم الجماعة أمرهم فأخذوا يجمعون التبرعات[2]

---

(1) الفاضل ابن عاشور : تراجم الأعلام ص 315 وانظر كذلك الزّمرلي : أعلاه تونسيون ص 232.

(2) بدأ الجماعة بالتبرع بأنفسهم لهذه المدرسة وقد نشرت الجريدة

وينشرون أسماء المتبرّعين على صفحات الحاضرة شاكرين ومنوّهين [1] ولم يتخلف عن تأسيس بقية المشاريع التي دعا إليها صديقه الحميم البشير صفر [2] والمساهمة فيها مثل الجمعية الخيرية الإسلامية وجمعية قدماء الصادقية.

وشارك النخبة المثقفة في تمثيل تونس في مؤتمر شمال إفريقيا (1908) إلى جانب البشير صفر والصادق الزمرلي وغيرهما، وكان موضوع مداخلته (القضاء الشرعي في الإسلام ونظام التعليم بجامع الزيتونة) وكان متبوعا ببعض الملاحظات والاقتراحات «التي أثارت إعجاب المؤتمرين، بما اتسمت به من حصافة واعتدال وموضوعية،تلك السمات التي اتصفت بها دوما وأبدا جميع مساعي المؤلف» [3]

أسماء هؤلاء المتبرعين، وهم علي بوشوشة والبشير صفر ومحمد ابن الخوجة وغيرهم.

(1) انظر في خصوص هذه المدرسة الحاضرة ص264 – 270.

(2) يقول عن الجمعية الخلدونية (ويسميها معهد ابن خلدون)وعن البشير صفر:»وتم تأسيسه بمشاركة نخبة من المتوظفين، كنت ولا فخر في جملتهم، وأما نسبته لاسم ولي الدين ابن خلدون فإنها من مبتكرات صاحبنا البشير صفر الذي مات شبحه، ولم يمت ولن يموت اسمه»(انقراض طبقة من أهل العلم والفضل مرجع مذكور).

(3) الصادق الزمرلي،: أعلام تونسيون، مرجع مذكور ص 231.
وراجع في خصوص المشاركين في هذا المؤتمر من التونسيين:
Compte rendu des travaux du Congrès de l'Afrique du Nord.

الفهرس العلمي لمكتبتي جامع الزيتونة :

كان الكاتب العام للحكومة التونسية برنار روا (Bernard Roy) [1] يحسن العربية، ومولعا بالمباحث الأثرية

---

(1) برنار روا BERNARD Roy (1845 – 1919) كان قبل الحماية عامل بريد في مدينة الكاف، ولما دخلت العساكر الفرنسية إلى تونس من هذه الجهة سهل مأموريتها، وفي سنة 1884 أصبح مراقبا بالمدينة المذكورة، ثم قنصل فرنسا بها حتى سنة 1889، وبعدها سمي كاتبا عاما للحكومة (وزير الداخلية) حتى سنة 1910، وعندما انقسمت هذه الخطة إلى قسمين سمي كاتبا عاما للحكومة التونسية للعدل، وهي الوظيفة التي احتفظ بها حتى مماته، ترك آثارا في النقوش والسير العربية، انظر في خصوص حياته :

Arrouas (Albert) : Livre d'or, Figures d'hier et d' aujourd 'hui, Tunis 1932 p 161 -162.

وله كتاب قدمته الحاضرة(ع 608 بتاريخ 17 جويلية 1900) بعنوان (مجموع أسماء القبائل التونسية وتوزيعها على جهات المملكة) وجاء فيه: وقفنا على كتاب جليل تحت عنوان (مجموع أسماء القبائل التونسية وتوزيعها على جهات المملكة) تأليف جناب الهمام الفخم مسيو روا كاتب الحكومة التونسية العام، جاء مفيدا في بابه، سادا لثغر الحاجة التي طالما تاقت لسدها النفوس، من الوقوف على أصل العروش والقبائل المخيمة بجهات الإيالة التونسية، والاطلاع على منتجعاتها وحركاتها، وانقسامها إلى فرق ونجوع، والإحاطة بالأسماء الخاصة بها، والتي ربما كانت مشتركة مع غيرها من القبائل الضاربة بالأقطار المتاخمة للمملكة التونسية، بما يشعر بأصلها الجامع على عهد استيطانها لهذه الديار، وانقسامها انقساما دلت عليه حركة التقلبات في الأدوار، ثم على انتظام تلك الفرق والنجوع المتفرعة عن العروش والقبائل، وضم بعض هذه إلى بعضها ضما إداريا، جمع شتاتها، وأكسبها وحدة إدارية، انخرطت بسببها في سلك النظام الإداري، تحت نظام العمال ومراقبة المراقبين في أغلب الجهات التونسية، وللاحظة ضباط العساكر في الأوطان الشاسعة من الناحية القبلية، بحيث جاء كتابا جامعا، وصنيعا نافعا، للكشف عن خريطة المملكة وتقاويمها، وأوضاعها الجغرافية، خدم به جناب الكاتب العام البلاد خدمة تدل على توالي عنايته، ومزيد خبرته بأحوال الإيالة التونسية ودرايته، وهي خدمة جليلة، يقدرها العارفون حق قدرها، يشكره عليها كل محب في ترقي هذه المملكة في معارج العرفان، تخلد له

والتاريخية والنقوش اللاتينية، ووجد في ابن الخوجة «عضدا متينا لإنجاز مراحل مهمة من بحوثه وتنقيباته» [1]

وقد عنّ لروا أن يلم بالكتب التاريخية في مكتبتي الأحمدية والعبدلية بجامع الزيتونة، فدعا محمد ابن الخوجة (رئيس قسم المحاسبة) إلى مساعدته للقيام بفهرس علمي للمصنفات التاريخية، مع بيان تاريخ حيوات هؤلاء المؤرخين، وساعدهما في هذا العمل محمد الحشائشي (توفي 1912) المأمور العلمي بخزانة الجامع الأعظم [2] «ولكن هذا العمل الدقيق والمرهق الذي دام عدة سنوات، وأنجز بكفاءة نادرة، ومنهجية لا مأخذ عليها لم يصل أبدا إلى نهايته، نظرا لقلة الاعتمادات المالية المخصصة له (...) إلا أن ما تم إنجازه

في بطون تاريخ هذه الإيالة التونسية جميل الذكر على ممر الأزمان، وقد عرض في الجلسة التي عقدت في 22 جوان (1900) المنصرم على ديوان علماء الرسوم القديمة، والفنون الأدبية المستظرفة، فرآه تأليفا إداريا نافعا، للوقوف على الهيئة الوضعية، والوضع الجغرافي القديم الذي كانت عليه البلاد التونسية، فهو مرشد للوقوف على آثارها، معين على استجلاء أسرارها الأرضية، وأدرجت خلاصة هذا التقريظ بالصحيفة الرسمية، بما برهن على ما للتأليف المنوه عنه من المنفعة والأهمية في أنظار ديوان الفنون والآثار الأدبية بالديار الفرنسوية، ونحن ننتهز هذه الفرصة لأداء واجب الثناء لجناب كاتب الدولة العام، على ما ظهر منه من الأيادي البيضاء المتوالية في خدمة المصالح التونسية، ونرجو أن تجود قريحته الوقادة بجميل الآثار، ما يشخص فضله للأنظار، ويخلد له ذكرا جميلا بهذه الديار.ا.هـ

وهو عمل يساعده على إحكام سلطته على أهالي البلاد، ولا يستبعد أن يكون هذا العرض لكتاب (روا) من تحرير محمد ابن الخوجة، لأنه كان المشرف والمحرر لركن(حوادث داخلية) بجريدة الحاضرة

(1) الفاضل ابن عاشور: تراجم الأعلام ص 315

(2) راجع الحاضرة ع 593 بتاريخ 17 أفريل 1900

من ذلك العمل يدل على ما كان يتميز القائم به من سعة اطلاع وروح مثابرة» [1]

في معهـد قرطـاج :

أما نشاطه الثقافي الخاص به فهو انضمامه إلى معهد قرطاج بصفته عضوا مشاركا منذ تأسيسه [2] وقد قدم فيه بعض البحوث [3] وهذا المعهد أسس سنة 1893 من قبل بعض المثقفين والمستشرقين الفرنسيين لتدارس الوضع الثقافي والحضاري في تونس، والتعرف إلى تاريخ تونس وعادات شعبها وتقاليده ومعتقداته،وجغرافية تونس واقتصادها والصناعات الموجودة بها [4] وكان اسمه في البداية (الجمعية التونسية للآداب والفنون) وشعارها (عمل ووفاق : Travail et Concorde ثم أصبح اسمها سنة 1894 (معهد قرطاج) وهو صورة مصغرة للمجمع العلمي الفرنسي بباريس، وقد بلغ عدد أعضاء هذا المعهد سنة 1912 حوالي ثلاثمائة وخمسين عضوا، وكانت تلقى فيه ما يسمى بالمسامرات الأدبية والعلمية، ومن المحاضرات التي ألقيت

---

(1) الزمرلي : أعلام تونسيون ص228

(2) من الذين كانوا أعضاء بهذا المعهد من التونسيين نذكر خليل بوحاجب ومحمد الأصرم وعلي بوشوشة، وقد انسحب هذا الأخير منه عندما رأى بعض المستشرقين فيه يرمون اللغة العربية بالعجز، ودعوتهم خاصة إلى تدريس اللهجة العامية عوض العربية، وكتابة الحروف العربية بالحروف اللاتينية

(3) Albert Canal : La littérature et la presse Tunisienne de l' occupation jusqu' à 1900 la Renaissance du livre Paris 1923 p 347

(4) V. Lambert (P) :Choses et gens de Tunisie ,Tunis 1912 p237

فيها نذكر، (الأناشيد العربية وما عليه أشعار العرب من الرقة والانسجام) لشكري غانم أحد رؤساء أقسام الحكومة التونسية، ومحاضرة عن تاريخ تونس لأحد الفرنسيين ومن المحاضرات التي أثارت ضجة في الأوساط محاضرة نويل معلم أبناء الناصر باي، ثم استغنى عنه، فحمل حملة شعواء على اللغة العربية وحكم عليها بالموت، وقام المستعرب اليهودي إسحاق قطان، عضو معهد قرطاج لتفنيد مزاعم نويل، وتوصل في آخر الأمر إلى أن اللغة العربية تعتبر من اللغات الحية [1]

الروزنامة التونسية :

وتمثل نشاطه الأدبي المتميز في إصدار الروزنامة التونسية، لما تولى إدارة المطبعة الرسمية بالإضافة إلى عمله في قسم المحاسبات [2] وبقي بها حتى سنة 1917، وكان يصدر كل سنة تقويما سنويا أطلق عليه (الروزنامة التونسية) وهو سفر سنوي يحتوي على معلومات مهمة «بسط فيه النظم الدولية، والتعريف بالدواوين الحكومية وتاريخها ووظائفها، وأفرد أقساما أدبية وتاريخية ملأها فوائد ومعارف، واعتنى فيها بدراسة النواحي الدقيقة من

---

(1) انظر: قتل اللغة العربية قاتل الله قاتلها (الحاضرة ع 1019 بتاريخ 3مارس 1909) حيا الله اللغة العربية وناصريها (الحاضرة ع 1028 بتاريخ 8 جوان 1909) وفكر غريب هل يمكن كتب العربية بالأحرف اللاتينية(الحاضرة ع 1084 بتاريخ3 جانفي 1911)

(2) محمد ابن الخوجة رئيس قسم المحاسبة بالكتابة العامة بالدولة التونسية أصبح مديرا لإدارة المطبعة والرائد التونسي (الحاضرة ع 612 بتاريخ 4 سبتمبر 1900)

التاريخ التونسي» [1] تهم تطور البلاد التونسية من حيث عدد السكان والمشاريع التربوية والاقتصادية التي أقيمت في السنة المنقضية، بالإضافة إلى بحوث تاريخية ذات قيمة علمية من مثل تراجم الأعلام، وإحصاء للأقليات التي توافدت على تونس بعد الاحتلال، واتخذت تونس موطنا للاستقرار بها مثل اليهود، فقد تحدث عنهم في دراسة مطولة عن نشأتهم بتونس، وقد بدأ بالحديث عن وجودهم بتونس قبل الفتح الإسلامي إلى عصره، ثم قال: «اعلم أن لليهود اليوم بتونس نظامات وتراتيب أساسية من أهمها مجلس أحبارهم المعترف به رسميا من قبل الدولة التونسية، حتى أنها لتنقدهم الجرايات الواسعة للقيام بشؤون ذلك المجلس القاصر نظره على مسائل الأحوال الشخصية، كذلك لهم عدة جمعيات من أشهرها وأوسعها ثروة جمعية الاتحاد الإسرائيلي التي كان تأسيسها في حدود سنة 1280(1863) على عهد المرحوم محمد الصادق باي، وهو الذي رخص لهم وأعطاهم أرضا لبناء بيعة لهم داخل مدينة تونس، وهذا زيادة عما لهم من المستشفيات والصناديق الخيرية، وغير ذلك من النظامات الناطقة باستكمال هيأتهم الاجتماعية، وذلك فضلا عن تمتع الكثير منهم بالحماية الأجنبية التي استحصلوا عليها أيام كانت الحمايات تباع وتشترى ببعض قنصليات الدول في تونس، ومن أمعن النظر في أخلاق يهود تونس وعوائدهم وجدها نسخة من عوائد المسلمين شبرا بشبر، حتى أنك لتجد في أسمائهم ألقابا عربية بحتة

---

(1) الفاضل ابن عاشور: الحركة الأدبية ص 93

كابن عطار والدهان ...» [1]

وللروزنامة التونسية أبواب هي:

- القسم الفلكي
- القسم التاريخي
- القسم السياسي
- القسم الإداري
- القسم التجاري

ولنذكر على سبيل المثال الصحف الصادرة بتونس سنة 1901 وهو يذكر اسم الصحيفة واللسان المدرجة به، ومن هو مديرها ومنهجها:

- الرائد التونسي،عربي، وكيل المطبعة الرسمية، رسمي
- الجريدة الرسمية الفرنساوية، فرنسي، لكور كاربنتي، رسمي
- الحاضرة، عربي، علي بوشوشة، سياسي
- هافاس، فرنسي، لابي، سياسي
- الدبيش تونزيان، فرنسي، لوكوركاربنتي، سياسي
- لونيوني، طلياني، فابري، سياسي
- لاتونيزي فرانسايز، فرنسي/ دو كرنيار، سياسي
- لافونير توننيزيان، فرنسي، بلران/ سياسي
- لانديبندان فرنسي، فاندل، سياسي
- لابوتيت تونيزي، فرنسي، لاكروا، سياسي

(1) نشأة اليهود بتونس: الروزنامة التونسية 1331/1912 ص 21 – 35 والفقرة المذكورة ص 27 – 28

- لوبرومنور، فرنسي، كانداس، سياسي
- ليزافيش تونيزيان، فرنسي، باروش
- تونس كلوب، انجليزي، جمعية، سياسي
- لافنير دو بنزرت، فرنسي، جمعية، سياسي
- لافونير دو سوس، فرنسي، بتي، سياسي
- لاديباش صفاكسيان، ريفول، سياسي
- بولتان دولنستيتو دو كرتاج

(Bulletin de l'institut de Carthage) فرنسي، مشيخة قرطاج، علمي أدبي

- لوجورنال دوتريبونو، فرنسي، بورج، عدلي [1]

وفي الروزنامة التونسية إحصائية طريفة [2] تتعلق ببرنامج التعليم في جامع الزيتونة، وهي :

1) مدرسون (على المذهبين) = 97
2) متطوعون بالتدريس على المذهبين = 97
3) متفقدون ووكلاء للكتب ومعاونون = 9
4) تلاميذ = 980
5) كتب :

(1) الروزنامة التونسية 1901 ص 302 نلاحظ أنه لا توجد صحيفة عربية سوى (الحاضرة) التي استطاعت أن تدفع الضمان المالي الذي فرضه المقيم العام على الصحف، ولم يرفع هذا الضمان إلا في بداية سنة 1904 انظر الحاضرة ص 62

(2) الروزنامة التونسية 1910 ص74 – 75

أ) بالمكتبة الأحمدية = 6975

ب) بالمكتبة العبدلية = 4730

المجموع : 11705

العلوم المزاولة وإعداد الدروس :

- التفسير = 3

- الحديث = 9

- التوحيد = 32

- التجويد = 13

- أصول الفقه = 17

- الفقه الحنفي = 28

- الفقه المالكي =74

- الفرايض = 12

- النحو = 130

- الصرف = 10

- اللغة والأدب =3

- المعاني والبيان = 22

- السير والتاريخ = 1

- آداب البحث = 1

- رسم المصحف = 2

نلاحظ أن مادة النحو والفقه والبلاغة لها نصيب الأسد في برامج الزيتونة، في حين أن التفسير والتاريخ والأدب تكاد تكون غير موجودة بالمرة، فما دامت حصصها بهذه الكيفية فلا يرغب التلامذة في حضورها، ويتغيب عنها مدرسوها.

وإذا أردنا أن نعرف عدد التلامذة الذين يزاولون دراستهم بالمدارس الفرنسية في موفى سنة 1912 نجد الروزنامة تقدم لنا الإحصائيات التالية:

- تلامذة فرنسيون : ذكور 4496 إناث 4086
- = مسلمون : ذكور9477 إناث 1310
- = يهود : ذكور 4141 إناث 3764
- = طليانيون : ذكور 4045 إناث 3897
- = مالطيون : ذكور 976 إناث841
- = أجناس أخرى : ذكور 171 إناث 196

وأما عدد السكان في السنة المذكورة بالبلاد التونسية فقد كانوا كما يلي :

- عدد السكان المسلمين : 1730144
- اليهود : 50383
- الفرنسيون : 36044 (وكانوا سنة الاحتلال 1881 : 708)
- الإيطاليون : 88082 (وكانوا سنة الاحتلال : 11000)
- المالطيون : 11300 (وكانوا سنة الاحتلال : 7000)
- أجناس أخرى : 3050 (وكانوا سنة الاختلال : 2500) [1]

(1) الروزنامة التونسية 1913 ص 25 وما بعدها

وإذا قارنا نسبة المتعلمين من التونسيين بالنظر إلى عدد السكان بالنسب الخاصة بالأقليات المذكورة، رأينا البون الشاسع بين المتعلمين من الأهالي وبين غيرهم من الوافدين على تونس بعيد الاحتلال.

هذه الشواهد من الروزنامة التونسية تدل على مدى القيمة الوثائقية لهذا التقويم، وتدل على المجهود الذي كان يبذله ابن الخوجة في تحرير هذه الوثائق التي لم يسبق نشرها، فكانت فعلا مليئة «بالمعلومات والمذكرات التاريخية والأدبية، والخلاصات العلمية المتعلقة بأحدث الاختراعات والاكتشافات والنوادر الشيقة التي كان القراء يتلهفون عليها في تونس، وفي غيرها من الأقطار العربية»[1].

ويعود الفضل في التعريف بها في العالم الإسلامي إلى مجلة المنار الواسعة الانتشار في كامل الأقطار العربية، فقد كان صاحبها السيد محمد رشيد رضا يعرّف بها، وينشر أبوابها ليقبل القراء على مطالعتها، ونجده ينوه بالروزنامة الصادرة سنة 1324 /1906 ويعرض لأهم ما جاء فيها، يقول « الروزنامة التونسية لمؤلفها سيدي محمد ابن الخوجة من أفضل الكتّاب في تونس، وأوسعهم علما واطلاعا على الكتب العربية والإفرنجية» ثم تنتقد المنار ما جاء في القسم التاريخي «من كلام مسهب لأحد علماء جامع الزيتونة الأعلام في بيان اختلاق كان نشر في جريدة (اللواء) المصرية منسوبا إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ك) وهو كتاب عهد كتبه للأرمن بزعمهم، ولم أر

(1) الصادق الزمرلي: أعلام تونسيون ص 230

هذا العهد إلاّ في الروزنامة، ولم أسمع بذكره أيام نشرته جريدة اللواء» [1].

وكانت الحاضرة هي الأخرى تعرف قراءها بما جاء في للروزنامة التونسية من فوائد،وتنشر موادها، وتدعوهم إلى مطالعتها.

وقد نشر بالروزنامة نوادر وطرائف منها مثلا : قانون القرصنة في الزمن الماضي تحدث فيه عن « اللصوصية البحرية التي تعتبر من أعظم الأسباب التي قضت على أوروبا أن تبقى ملازمة جانب الهدنة والمسالمة تلقاء الأمم الاسلامية، لكنها أي أوروبا كانت تعمل دائما لإبادة القرصنة بالبحر الأبيض المتوسط تارة بالترغيب، وتارة بالترهيب،الى أن أعانها على محو سلطانها اختراع السفن البخارية، فأمست القرصنة أثرا بعد عين» ثم يقول: «ولقد وقفنا على كتاب قديم مخطوط باليد محرر باللغة التركية جاء فيه قانون القرصنة بمياه الجزائر، ولغرابته آثرنا نقل ترجمته الى العربية» [2]

ومن الفصول الهامة في الروزنامة التونسية (تاريخ نشأة اليهود بتونس) وقد أشرنا إليه أعلاه وقد تعرض لوجودهذه الطائفة بتونس قبل الفتح الاسلامي وبعده إلى العصر الحديث، يقول بداية : « اعلم أن وجود اليهود بافريقيا الشمالية كان متقدما على الفتح الاسلامي، لأن الرومان لما

---

(1) مج المنار جمادى الثانية1324/ 23 يوليو 1906 المجلد التاسع ج6 ص 473 وانظر أيضا المجلد الثامن الجزء التاسع، جمادى الأولى/ يوليو تموز1323 /1905 ص 344

(2) الروزنامة التونسية سنة 1331/1912 ص45

استعمروا قرطاجنة وجدوا طائفة من اليهود بهذه البلاد، نزحوا إليها فرارا من الاضطهاد الذي حملهم على مبارحة ديار الشام، وبلاد فلسطين، التي هي الارض الموعودة في شريعتهم، فلما كان الفتح الاسلامي لتونس، وتغلب العرب على البربر، ومن هؤلاء قبيلة زناته، التي يقول بعض المؤرخين بأن أصلها يهودي اعتنق كثير من بني اسرائيل الاسلام، وبقي الآخرون على حرية في المذهب والعقيدة، لأن شريعة الاسلام في العدل والتسامح ما عهدت، فكانوا يسكنون القيروان في زمن مؤسسها عقبة بن نافع، إلا أنهم لم تكن لهم يومئذ هيئة قومية، كما هم عليه اليوم في تونس» ويمضي في تتبع اليهود بالقطر التونسي، وما وجدوه من عناية لدى حكام هذه البلاد، وما تمتعوا به من حرية في ممارسة شعائرهم، من ذلك أن الصادق باي «أعطاهم أرضا لبناء بيعة لهم داخل مدينة تونس» وكان عدد اليهود عندما كتب ابن الخوجة هذا الفصل ثمانين الفا، منهم ما يقارب نصف ذلك العدد بحاضرة تونس، في حين يبلغ عدد المسلمين بالعاصمة سبعين ألف نسمة، وبصفة عامة فعددهم هو الخمس بالنسبة لسكان المملكة، يقول ابن الخوجة : « وفيما نعلم أنه لا يوجد ببلاد العالم مدينة، حيث اليهود أسعد حظا مما هم عليه بتونس، ناهيك أن حكومة البلاد جعلتهم في صعيد واحد مع جماعة المسلمين » [1]

وتسنى له في المطبعة الرسمية نشر الكثير من الكتب التاريخية التونسية نذكر منها (معالم الإيمان) للدباغ و(ذيل

(1) الروزنامة التونسية 1328 / 1910 ص 21 وما بعدها

بشائر أهل الإيمان) لحسين خوجة و(الحلل السندسية في الأخبار التونسية) للسراج وغيرها.

آثـاره ومؤلفاتــه :

رأينا أعلاه أنه بدأ التحرير في صحيفة الحاضرة، وهو في العشرين من عمره، وبقيت الكتابة والمطالعة والتقييد شغله الشاغل طيلة حياته، رغم كثرة أعماله الإدارية، ومساهمته في المشاريع التي قام بها أصحابه من جماعة الحاضرة وغيرهم، وظهر أول كتبه سنة 1897 وآخر ما صدر له من المؤلفات كان سنة 1939 (أي السنة التي ظهر فيها آخر كتبه، وهو تاريخ معالم التوحيد...)

أول ما نشر هو (تحفة الإنجاد في المقابلة بين التاريخين الهجري والميلاد) وكان ذلك سنة 1896 خلافا لما يذكره الفاضل ابن عاشور، ومن أخذ عنه، الذي يعتبر أن أول منشوراته هو محاورة (الشيخ عمر والحاج فتوح) حول آداب رمضان، فقد نوهت الحاضرة بتحفة الإنجاد قبل المحاورة بسنة [1].

والمقابلة بين التاريخين الهجري والميلادي لم يعمل بها في تونس إلا بعد انتصاب الحماية (1881) وكان العمل بالتاريخ الهجري هو السائد لدى المثقفين، ولما ظهرت الحاجة إلى التاريخ الميلادي رأى ابن الخوجة أن يضع هذا الكتاب المشار إليه.

والكتاب الثاني، هو المحاورة بين الشيخ عمر والحاج

(1) انظر جريدة الحاضرة ع 431 بتاريخ 5 جانفي 1897

فتوح وقد كتبت باللهجة العامية التونسية، وذلك لتقريب المعرفة، والتسهيل على القراء، ولنترك التقديم الذي نشره علي بوشوشة لهذا الكتاب، يقول : «كتب حضرة الناقد النحرير الفاضل صديقنا السيد محمد ابن الخوجة، العضو بالجمعية الخلدونية محاورة تحتوي على كراسين، مشحونة كلها بفوائد فقهية وتاريخية .وفكاهية، ما أجدر العامة بمعرفتها، تنازل فيها صاحبها طلبا لتعميم الفائدة، إلى درجة تحريرها باللسان الدارج، لتكون أسهل مناولة، وأكثر مطابقة لأخلاق العوام، ممن لا يحسنون فهم الكتب الفقهية، ولا المباحث الدينية المتعلقة بهذا الغرض، ولمقصد آخر مؤداه تدريب السواد الأعظم من التونسيين على تناول المطبوعات الحديثة بالطريقة الفكاهية الحالية، لمعرفة الآثار الصحيحة، والروايات اليقينية التي نؤمل اهتداء البعض من حماة الأقلام لتحريرها على نمط الرسالة المذكورة، فيخدمون بذلك الجنس التونسي أجلّ وأسمى خدمة وطنية، يخرجون بها العامة من ربقة سماع حديث خرافة، كقصة رأس الغول والعنترية والظاهرية، وما شاكل ذلك، ويحيدون بهم بأسلوب موافق لمشربهم إلى معرفة القصص الثابتة والروايات الأدبية العائدة بالتجمل بمكارم الأخلاق، إلى غير ذلك من الوسائل المهذبة للعقول المفتحة للأفكار، وفي الختام نقدم خالص الثناء لحضرة صاحب المحاورة المذكور الذي تفضل بتخصيص جزء من وقته النفيس لإفادة السواد الأعظم من السكان، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان» [1]

---

(1) آداب رمضان، الحاضرة ع 482 بتاريخ 18 جانفي 1898

ترك محمد ابن الخوجة الكثير من المقالات والمؤلفات بعضها مطبوع، والآخر مازال مخطوطا، فمن مؤلفاته المطبوعة المذكورة في آخر كتابه معالم التوحيد (ط تونس 1939) نجد :

- تحفة الإنجاد في المقابلة بين تاريخي الهجرة والميلاد
- مجموع فقهي في مسائل إنزال الأحباس
- سلوك الإبريز في مسالك باريز
- تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد

ومن كتبه باللغة الفرنسية المطبوعة :

- رسالة في المرأة المسلمة
- رسالة في الحج
- ومن أبحاثه بالفرنسية :

Cobbat Mamia ,in Revue Tunisienne 31, Janvier 1919

أما آثاره المخطوطة فهي :

- الفتاوى الشرعية في المستجدات والحوادث العصرية
- جيش الدخيل في اللسان التونسي الأصيل (في جزأين)
- رسالة في تاريخ مقبرة الزلاج
- كشف عن أحوال تونس في عصر الحماية [1]
- تكملة عقد الدر والمرجان في سلاطين آل عثمان وشرحها

---

(1) لعله ترجمة لكتاب رني ميي حول أحوال المملكة التونسية، وقد قدم ابن الخوجة تلخيصا له في افتتاحيتين طويلتين نشرتا بجريدة الحاضرة (ع410 بتاريخ11 أوت 1896 وع 411 بتاريخ 18 أوت 1896)

- العيون النرجسية في الأنظمة التونسية في جزأين
- تاريخ البايات والدايات في الدولتين المرادية والحسينية
- وفيات أعيان التونسيين في العصر الحسيني

ومن آثاره المخطوطة باللغة الفرنسية:

- الخلافة
- الألفاظ العربية الدخيلة في اللغة الفرنساوية
- رسالة في مقابلة السنين المسيحية بالسنين الهجرية لمدة ألف وأربعمائة عام
- رسالة في الشرع الإسلامي ألقاها في مؤتمر إفريقيا الشمالية بباريس

أما آثاره في فن الرحلة (وهي سبعة كتب) فسنذكرها في القسم المخصص لابن الخوجة الرحالة.

ونشير إلى أن بعض كتبه التي لم ينشرها كان قد لخّصها ونشرها، مثلا القضاء الشرعي نشره ملخصا في أربعة أعداد من المجلة الزيتونية، وكذلك تاريخ الحج وعمارة البيت الحرام، ووزراء تونس من قبل الحماية وبعدها.

والمتأمل في قائمة هذه الكتب المطبوع منها والمخطوط يرى اهتمام الرجل بتاريخ تونس وحضارتها أولا ثم ميله إلى الكتابة في موضوع الرحلات ثانيا، لأسباب سنراها عند الحديث عن هذا الجانب من آثاره.

ولئن جمعت مقالاته المنشورة بـ (المجلة الزيتونية) و(شمس الإسلام) كما أشرنا أعلاه، فإن مقالاته التي كتبها في

عهد الشباب بجريدة (الحاضرة) ما زالت مجهولة، ولم تلق العناية من قبل الباحثين، والحال أنها لا تقل أهمية من الناحية التاريخية عن الأبحاث التي كتبها بعد إحالته على التقاعد.

ونذكر فيما يلي عناوين الافتتاحيات التي نشرها بهذه الجريدة، وهي :

1) المعرض ع 41 بتاريخ 3 ماي 1889 [1]

2) الحوادث الجوية ع 131 بتاريخ 3 فيفري 1891

3) خزائن الكتب ع 217 بتاريخ 18 أكتوبر 1892

4) أخبار الجن ع226 بتاريخ 20 ديسمبر 1892

5) السواحون بالبقاع المقدسة ع 338 بتاريخ 5 مارس 1895

6) فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ع 342 بتاريخ 2 أفريل 1895

7) النصرانية والإسلام ع 343 بتاريخ9 أفريل 1895

8) كيال وبنزرت ع 353 بتاريخ 25 جوان 1895

9) نظرة في التاريخ ع355 بتاريخ 9 جويلية 1895

10)الحماية القنصلية ع 358 بتاريخ30 جويلية 1895

11) أحوال المغرب ع 360 بتاريخ 13 أوت 1895

12) المعاهدات التونسية ع 362 بتاريخ 27 أوت 1895

13) صناعة الشاشية ع 364 بتاريخ 17 سبتمبر 1895

13م) مراكش ع 365 بتاريخ24 سبتمبر1895

---

(1) ع : عدد

14) دخول فرنسا عنوة لعاصمة مدغشقر ع 368 بتاريخ 5 أكتوبر 1895

15) إلى أين تؤول الحال ع385 بتاريخ 11 فيفري 1896

16) التعريف بالحماية السياسية ع 387 بتاريخ 25 فيفري 1896

17) التقرب والتشيع للإسلام ع388 بتاريخ 3 مارس 1896

18) مقدمة الحرس ع 390 بتاريخ 24 مارس 1896

19) ذكرى لأولي الألباب ع 404 بتاريخ 30 جوان 1896

20) عيد 14 جويلية ع406 بتاريخ 14 جويلية 1896

21) كتاب جامع في أحوال تونس (1) ع 410 بتاريخ 11 أوت 1896

22) كتاب جامع في أحوال تونس (2) ع 411 بتاريخ 18 أوت 1896

23) حالة أوروبا الحربية ع 421 بتاريخ27 أكتوبر 1896

24) نهضة جديدة ع 446 بتاريخ 4 ماي 1897

25) وظيفة فرنسا بالشرق الأدنى ع 467 بتاريخ 5 أكتوبر 1897

26) رحلة محمد ابن الخوجة إلى باريس (1) ع 617 بتاريخ 9 أكتوبر 1900

27) رحلة محمد ابن الخوجة إلى باريس (2) ع 618 بتاريخ 16 أكتوبر 1900

28) رحلة محمد ابن الخوجة إلى باريس (3) ع 619 بتاريخ 23 أكتوبر 1900

29) رحلة محمد ابن الخوجة إلى باريس(4) ع 620 بتاريخ 30 أكتوبر 1900

30) رحلة محمد ابن الخوجة إلى باريس(5) ع621 بتاريخ 6 نوفمبر1900

ولم نجد له أثرا يذكر بهذه الجريدة بعد نشره لهذه الرحلة، فقد أصبحت أوقاته موزعة بين رئاسة قسم المحاسبة وإدارة المطبعة الرسمية.

هذا بالإضافة إلى مشاركته في تحرير المادة الإخبارية والسياسية لركن (حوادث داخلية) وتراجم الأعلام التي نذكر منها :

- محمد الأرناووط : ع85 بتاريخ 11 مارس 1890
- محمد السنوسي : ع 623 بتاريخ23 أكتوبر 1900
- الشيخ محمد عبده : ع 852 بتاريخ 25 جويلية 1905

وسنهتم بما نشره في صحيفة الحاضرة من مقالات ذات صبغة تاريخية، علمًا بأنّ هذه الافتتاحيات لم تنشر كما نُشرت الأبحاث والدراسات التي نشرها في المجلة الزيتونية وفي مجلة شمس الإسلام [1]

---

(1) جمع هذه المقالات حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحي ونشرت في (صفحات من تاريخ تونس) ط دار الغرب الإسلامي بيروت1986 وقد بلغ عددها (37) دراسة، وهي أبحاث يعتمد ابن

ابن الخوجة المؤرخ :

إن مقالاته الأولى بصحيفة الحاضرة، وهو في مرحلة الشباب، تنبئ عن توجه ابن الخوجة إلى التاريخ عامة، وإلى تاريخ تونس وحضارتها بالخصوص، ولا شك أن اهتمام والده بتاريخ تونس كان له أثره البعيد في نفسه، فقد اشتهر الوالد محمد البشير ابن الخوجة (توفي 1911) « بين كتاب عصره بما له من الضلاعة في التاريخ التونسي، والميل إلى البحث عن دقائق تاريخ الدولة الحسينية، والحرص على تقييد كل حادث هام يمر على مطالعته أو سماعه أو مشاهدته (...) مما يجعل لتقييداته وتحريراته التاريخية قيمة مفردة يكمل بها ما تركه الشيخان (محمد الباجي المسعودي وأحمد ابن أبي الضياف) قبله من الأثر العظيم في تسجيل التاريخ التونسي القريب» [1]

وهذه العائلات التي تقلد أصحابها مناصب دينية وسياسية إن في البلاط الحسيني أو لدى إدارة الحماية تمتلك وثائق تاريخية نادرة، ولها اطلاع جيد على مجريات السياسة، بحيث لا يغيب عنها ما يتخذ من قرارات في الخفاء، وعندما شب ابن الخوجة وجد والده الموظف السامي في الكتابة

الخوجة في تحريرها على المشاهدة والسماع بالإضافة إلى تقييدات ووثائق نادرة، نذكر منها على سبيل المثال:وثيقة تاريخية جليلة مارستان العزافين والمستشفى الصادقي، وعادة تقبيل اليد والنياشين التونسية، ودار الباي بتونس، وامتزاج دماء شتى من عناصر مختلفة في عروق الأمة التونسية... "

(1) الفاضل ابن عاشور: تراجم الأعلام ص 297

العامة والصديق الحميم لبرنارد روا ووجد وثائق أبيه حوله، فأخذ يغرف منها ما يهمّه، وكما يحلو له.

الدعوة إلى الاعتناء بتاريخ تونس :

يظهر اعتناؤه مبكرا بتاريخ تونس في مقال افتتاحي، ويسميه هو بالفصل، عنوانه (نظرة في التاريخ) وقد بدأه بقول نابليون بونابرت أمام أهرام مصر مخاطبا جيوشه، قائلا : « إن أربعة آلاف سنة من أعالي هاته الأهرام الشامخات تنظركم » [1] أي مشرئبة لمعرفة ما سيفعلون، وكانت غايته تشجيعهم على الانتصار على الجيش المصري الذي ينتسب إلى أمة ذات تاريخ وحضارة لا يستهان بهما.

ثم أوضح ابن الخوجة اعتناء الأجانب بتاريخ تونس، وإهمال هذا التاريخ في برامج جامع الزيتونة، وذلك بمناسبة صدور الجزء الثاني، من مجموعة المخاطبات الرسمية، بين ملوك تونس وملوك فرنسا [2].

وكان هذا الكتاب كما يقول ابن الخوجة : « جامعا لعيون الوقائع، وغرائب القصص، التي لا يتخللها ريب، بسبب أنها منقولة عن حجج وأوراق، لم تزل أعيانها محفوظة، منذ المئين الغابرين » وأبرز ما في هذا الكتاب في رأي

---

(1) محمد ابن الخوجة: نظرة في التاريخ الحاضرةع355 بتاريخ 9 جويلية 1895.

(2) يشير إلى كتاب :

Plantet (E) : correspodance des beys de Tunis et des consuls de France avec la cour 1577-1830,3 vols, Paris, Alcan, 1893-1899 .

ابن الخوجة « استمرار العلائق الحسنة من قديم، بين هاته المملكة، والدولة الفرنسية، فقد كانت رسل القطرين، غادية رائحة، طول السنة، بين تونس وفرنسا، خصوصا على عهد الأمير علي باشا، ممدوح حمودة بن عبد العزيز »[1].

وقد اطلع ابن الخوجة في كتاب فرنسي، لم يذكر عنوانه، على نص المعاهدة التي أمضيت في 5 ربيع الثاني سنة 669 للهجرة، بين فيليب بن الملك سان لويس، قتيل الوباء بقرطاج، وبين الملك محمد المستنصر الحفصي، وأشار مؤلف الكتاب إلى « أن النص العربي، الموقع عليه بخط الأمير الحفصي، لم يزل قائم الذات، موجود العين، فيا عجبا لاعتنائهم، ويا عجبا لإهمالنا ».

والحق أن التونسيين لم يهملوا علم التاريخ إلا في عصور الانحطاط والجمود، فقد كان التاريخ من جملة الفنون التي يتداولها الناس، يظهر ذلك في كثرة الكتب التي ألفت في هذا الفن، وقد أتى ابن الخوجة بمثال، يبرز مدى اهتمام التونسيين بعلم التاريخ، ومدى استيعابهم لوقائعه، والإطلاع على خفاياه « فقد جاء وفد من اليهود إلى علي خوجة باي قسنطينة، وبأيديهم رق عتيق، به خط، مضمونه: أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أوصى لهم بمزايا ومنح إلى غير ذلك، وفيه شهادة من عدة صحابة منهم أبو بكر وعمر وغيرهم، وكان من جملتهم كعب الأحبار، فعرض هذا الرق على الشيخ أحمد برناز (توفي 1138/ 1726) فقال: قبح الله الكاذبين، إن فيه شهادة كعب

---

(1) انظر فيما يأتي ص 80.

الأحبار، الذي لم يسلم إلا في أيام عمر، فكيف قبل النبي شهادة غير مسلم، هذا أمر مستحيل »[1].

وأتى ابن الخوجة بنماذج، من أقوال المؤرخين دون أن ينسبها إلى أصحابها، وكلها تشيد بفائدة علم التاريخ باعتباره يكسب الإنسان «حزما وعزما وموعظة وعلما، وهمة تذهب هما، وبيانا يزيل وهنا ووهما» وإزالة الوهن عن النفوس، والوهمّ عن العقول، يتمثل في اهتمام الإنسان بتاريخ بلاده، مسقط رأسه، ومنبت آبائه وأجداده، قبل أن يعرف أخبار غيره من الأقوام، فواجب المرء، كما يقول ابن الخوجة : «أن يعلم حال نفسه وعياله، قبل أن يشتغل بحال جاره » ووضح ابن الخوجة أنه أراد من هذه الافتتاحية «الحض على تعليم تاريخ هذه البلاد الذي كما يقول لم نر له من أثر بين الجمهور والأفراد، والإفصاح عما يختلج بفكرنا القاصر، في هذا الموضوع، نصرح بما في خلدنا، وهو أن فن التاريخ التونسي مفقود في الحال بالمرة، من جامع الزيتونة، ومن مدارسنا الأهلية» ولم يجد ابن الخوجة من عذر سوى إهمال البعض، وتقاعس الآخرين، وإلا فلا أحد يجهل أن التاريخ للإنسان كاللبن الذي تغذيه أمه به، مذ كان رضيعا: إذ بالتاريخ، كما يقول « يعلم الإنسان مجد جنسه، وشماخة أهله، فيزداد حبا في وطنه، من بين الأوطان».

ودعا ابن الخوجة في خاتمة مقاله إلى أن يلم التونسي، على الأقل، بالأدوار التاريخية التي عرفتها تونس منذ تأسيس قرطاج، مرورا بالفتح الإسلامي، ووصولا إلى عهد الدولة

---

(1) ابن الخوجة: نظرة في التاريخ الحاضرة بتاريخ 9 جويلية 1895

الحسينية، ولا يعقل في رأيه أن تؤلف كتبٌ عن تاريخ تونس باللغات الأوروبية، ويكتفي مدرسو الجامع الأعظم بتدريس كتب تاريخية قديمة، أصبحت ضربا من أساطير الأولين، واستثنى من هذه الكتب مقدمة ابن خلدون، ولكن المقدمة في رأيه تهتم « بفلسفة التاريخ، وليس بتاريخ الوقائع» ويعود فيؤكد على أن تاريخ تونس أولى بالمعرفة من التاريخ العام، لأن من يدرس التاريخ العام « كمن يرغب في استطلاع معرفة الغير، ويجهل حال نفسه وبيته».

وواضح أن هذا المقال يندرج ضمن خطة (الحاضرة) الرامية إلى غرس الروح الوطنية في النفوس وذلك « بإحياء النخوة والعزة في النفوس، حتى تنفض عنها غبار الكسل والخمول، فتقبل على العمل بجد ونشاط، وتسعى بلا كلل ولا ملل إلى تحرير الوطن من كابوس الاستعمار وعنجهيته» [1] كما أنه تعبير عن بزوغ الإحساس الوطني، الذي سيتنامى أمره، فيما بين الحربين، ومن هنا كان الاهتمام بتاريخ تونس عامة، ودراسة بعض الجوانب ذات الطابع التونسي، يظهر ذلك في الصفحات التاريخية، التي كتبها ابن الخوجة فيما بعد، والتي أخذت في البروز على صفحات (الحاضرة) التي كان يتناول فيها الوضع السياسي والاجتماعي بتونس، كمدخل لموضوعه الذي ينوي البحث فيه، ثم يربط هذه الأحداث السياسية أو الاجتماعية بتاريخ تونس وحضارتها، فتحويل دار مصطفى بن إسماعيل إلى مستشفى لليهود

---

(1) العريبي: مفهوم التاريخ لدى جماعة الحاضرة، المج الصادقية ع 8 جانفي 1998 ص 12

يذكره بأعمال هذا الوزير، الذي أدت تصرفاته، وسلوكه المشين إلى احتلال تونس، وخضوعها للأجنبي، وهنا يثير مع قراء (الحاضرة) تسلم ابن إسماعيل أمر البلاد التونسية « وهو لا يميز بين السقيم والصيب، ولا الخبيث من الطيب، فانحدر مع تيار الظلم والاعتساف، كمن يتخبطه الشيطان، في عصر شرب أهله خمرة الاستبداد، وأمسوا ثملا بها، حتى فاجأهم الظلام، فهلك الخاص والعام »[1]

ووقوع القوم فريسة للاستعمار سببه الظلم، ظلم الحاكم لرعيته، لأن الظلم، كما يقول ابن الخوجة مهما كان مصدره مدمر، والعدل، مهما كان مورده، معمر، وأن ما آل إليه أمر تونس، في أواخر القرن التاسع عشر من احتلال واختلال، سببه الظلم، وفقدان العدل « الذي هو ميزان الله في الأرض: إذ به تسير سفينة التوفيق في بحار الأمان، ويكتسب به الإنسان من مواهب التنوير المادي ملكة جديدة، ينفطر بها على فعل الخير (...) وفي حين كانت الممالك الأوروبية تتقدم كل يوم، في مضمار التمدن، كانت البلاد الإسلامية، ومن بينها تونس، في تأخر وتقهقر، بسبب تفريطها في العدل، ولم تتقدم أوروبا، وتترك البلاد الإسلامية خلفها بمراحل إلا بإسداء العدل، وإقامة النكير على الظلم وأهله (...) وما كفاهم ذلك، حتى نصبوا مجالس الشورى، للنظر في مصالح دنياهم، فكان لسان حالهم يقول للمسلمين: ها نحن قد اقتطفنا بكل رغبة ثمرة ما فرطتم أنتم فيه، وصرنا لا نعمل عملا إلا

(1) محمد ابن الخوجة: فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا، الحاضرة 342 بتاريخ 2 أفريل 1895.

بعد المشاورة، لنتخذ من المجد ركنا، ونتحكم فيكم بما نشاء، ونسود عليكم »

والإطلاع على تاريخ تونس القريب، وخاصة تاريخ خير الدين الوزير المصلح، ومصطفى بن إسماعيل الوزير المفسد، يكسب القاريء غيرة، وتعلقا بالعدل والإنصاف، ونبذ كل ما من شأنه أن يؤدي بالبلاد إلى الضعف والهوان، ولو اطلع المرء على سيرة الرجلين لوجد فرقا بين الرجلين، فخير الدين عماد الدولة، وذروة سنامها « أصلح وعمّر وأثمر» ومصطفى بن إسماعيل «أفسد وخرّب ودمّر» ووزير هذا شأنه «لا يلبث عاجلا أو آجلا أن تزلّ به القدم حيثما هو، فتهوي به الريح في مكان سحيق » والرجلان يشتركان في لقب الوزارة، ولكن بينهما بون شاسع، كالفرق بين الزنبور والبازي، فهما يشتركان في الطيران، ولكن شتان بينهما في ما يصيدانه، فخير الدين (البازي) يسعى إلى المنافع والمآثر الحميدة، وابن إسماعيل (الزنبور) يسعى إلى الرذائل والموبقات، ولكي تتضح المقارنة بينهما، يورد ابن الخوجة البيتين:

وَلِلزَّنْبُورِ وَالبَازِي جَمِيعًا *** لَدَى الطَّيرَانِ أَجْنِحَةٌ وَخَفْقُ
وَلَكِنْ بَيْنَ مَا يَصْطَادُ بَازٍ *** وَمَا يَصْطَادُهُ الزَّنْبُورُ فَرْقُ

ولاحظ ابن الخوجة أن التاريخ أفاد « أن لكل وزير من المآثر التي تبرزها الأيام، بما كان يغلب على طبع ذلك الوزير، في زمن تصرفه « وأتى بخمسة أدلة فيها « سر عجيب، على مطابقة أخلاق أولئك الوزراء، للحالة التي توجد الآن عليها بيوتهم (يقصد الوزراء) في التاريخ « وبما

أن ابن إسماعيل أمه يهودية « فكان في انقلاب بيته مستشفى إسرائيلي، تناسب كلي، واقتران أصلي » وخير الدين الذي عرف بالعدل والإنصاف « نرى داره بعد خروجها عن حوزته، أصبحت محكمة عدلية، لإنصاف المظلومين، وكبح جماح الظالمين » وتحولت بيت الجنرال حسين، إلى دار للحرب، لما عرف عن هذا الوزير من حب وغيرة على العساكر الإسلامية، ورغبته في انتصارها، في ميادين الوغى، وأصبحت دار الوزير مصطفى خزندار مكتبا دوليا ايطاليا، وانقلاب دار الوزير محمد خزندار مسكنا للسادة الأشراف، وقد كان هذا (الوزير النصوح) كما يقول عنه ابن الخوجة محبا لآل البيت، حتى أن ملحده كان بجوارهم، ونعم الجوار كما يقول.

وبقطع النظر عن التناسب الذي لاحظه مؤرخنا بين أعمال الوزراء الخمسة، وما آل إليه بيته بعده، فإن الرجل له حس تاريخي، ومعرفة بالمواقع والقصور، بحاضرة تونس، التي أصبحت تاريخية في عهده، وما زالت إلى اليوم، كما أن توجهه إلى تاريخ تونس بالذات، بدا واضحا في هذه الافتتاحية، ويظهر أكثر في بحثه (المعاهدات التونسية) فقد أتى فيه على «المعاهدات في الإسلام عموما، وفي تونس خصوصا » [1] وأسرع إلى ذكر أول معاهدة بين تونس وفرنسا، وهي التي وقعت بين المستنصر بالله الحفصي، وبين دولة فرنسا، وقد سبق الحديث عنها، أما هنا فيذكر الهدف

---

(1) محمد ابن الخوجة: المعاهدات التونسية الحاضرة ع 362 بتاريخ 27 أوت 1895

من عقدها وهو حماية النصارى «وتخويلهم حق التجارة ومباشرة شعائرهم» وبعد سقوط الجزائر «دخلت الحكومة التونسية في طور جديد، وصارت مجبولة بطبيعة الجوار، على الالتحام بأوروبا، فتساهل ملوكها في عقد معاهدات أوسع نطاقا من المتقدمة، وأعطت بها المنح المعقولة، وغير المعقولة، حتى أصبحت تجارتها الأهلية في حيز العدم » وبهذه المعاهدات التجارية « تمكنت ايطاليا وانقلترا والنمسا بالموارد الحياتية، التي كان يقتات منها الأهلي في هذه البلاد » وجاء عهد الأمان سنة 1276/ 1857م « بتقرير جميع الحقوق والمنح والامتيازات التي للأوروبيين بالمملكة التونسية، ومعلوم أن عهد الأمان أسس اقتداء بالتنظيمات الخيرية، التي كلل بها السلطان عبد المجيد جبين ممالكه الشرقية، ومن أجل ذلك تشبثت أوروبا بمالها من المنح والحقوق التاريخية، وأثقلت بطلباتها كاهل البلاد [1] فتنفست منها الصعداء إلى سنة 1298 وهي السنة التي أمضيت فيها معاهدة باردو (12 ماي 1881) ودخلت بمقتضاها المملكة التونسية تحت الحماية الفرنسوية» [2]

وهكذا اتخذ ابن الخوجة من محاولة إدارة الحماية نقض المعاهدة التجارية بين تونس وايطاليا، وقد مرّت على إبرامها ثلاثون سنة، ذريعة للحديث عن المعاهدات، التي وقعت في التاريخ، بين البلاد التونسية، وبعض البلدان الأوروبية، مما

---

(1) يشير إلى المعاهدات التجارية بين تونس، وكل من ايطاليا وانقلترا والنمسا

(2) محمد ابن الخوجة: المقال المذكور أعلاه

يدل على ميل الرجل إلى التاريخ، وخاصة منه تاريخ تونس، واهتمامه بالخصوص بالمواقع والأشخاص، والمواضيع التي لها علاقة بتاريخ تونس، مثل دار الباي بتونس، وقبة الأميرة مامية، والاميرآلاي محمد القروي، وكيف دخل الزي الأوروبي في العادات التونسية، وهو ما سيبرع فيه ابن الخوجة، ويوليه عنايته الفائقة قبل وفاته، على أنه تكون له إحساس بتاريخ تونس، والاهتمام به، منذ أيام الشباب، على صفحات جريدة (الحاضرة) « فكانت مشاركته في التحرير، أولا قاصرة على ضبط الحوادث المحلية، وما يرجع إلى الأخبار الدولية، مما يستمد فهمه وإفهامه من الوضعية التاريخية للبلاد، ويكسى صبغته التحريرية، من ممارسته النصوص الرسمية، وذوق المحافظة، على ما يؤلف فيها من التقاليد »[1]

وختم أبحاثه بكتابه القيم :

تاريخ معـالم التوحيـد :

وعنوانه الكامل (تاريخ معالم التوحيد في القديم وفي الجديد) ظهر في طبعته الأولى سنة 1358/ 1939 وقد ذكر في بدايته أن السبب الذي دعاه لوضع هذا الكتاب الذي لم يؤلف مثله في تونس، كما يقول، هو وقوفه «على كتاب باللسان الفرنساوي ظهر في هذه الأيام تضمن تاريخ نشأة الكنائس النصرانية بتونس ووافق نشره إقامة مهرجان فخم رتبه يهود العاصمة بمناسبة إحداث بيعة جديدة لهم

---

(1) الفاضل ابن عاشور: تراجم الأعلام ص 309

أسسوها بتونس، فقلت في نفسي لا جرم أني وأبناء جنسي من المقصرين نحو سلفنا الكريم، الذين شيدوا لنا معالم الدين، واستماتوا في سبيل التمسك بحبله المتين، بينما نحن في جمود وغفلة عن تمجيد ذكرهم، لإحياء ما تنوسي من أخبارهم، وفي جهالة بأحوال زمانهم، كادت أن تطمس مآثرهم، لما نسج من عناكب النسيان؛ على معالمها الحسان، وخشية أن يطوي مرور الأيام حديث تلك المآثر، بادرت إلى وضع هذا التأليف غيرة لهذه الحضرة أن تندرس منها الآثار، وحمية لمعالمها الإسلامية أن يكون لها من غمام التناسي استتار، وقد يسر الله جميع تالده والطريف على أسلوب محكم ظريف، تحت ظل عونه الوريف»

ورتبه على مقدمة وخمسة أبواب وخاتمة:

خصص المقدمة للتعريف بظهور جوامع الخطبة بتونس على العموم، وفي حكم تعدد الخطبة بالمصر الواحد، وفي ذكر عدد المساجد التي تقام بها الصلوات الخمس، دون الجمعة والعيدين.

وخصص الباب الأول لتاريخ نشأة جوامع الخطبة التي تقام بها الشعائر على قواعد المذهب المالكي، وآثر تقديم الجوامع المالكية على الجوامع الحنفية، لأن برأسها كعبة العلم جامع الزيتونة الذي هو أقدم بيوت العبادة بتونس (وعدد جوامع المذهب المالكي بتونس العاصمة في عصر المؤلف اثنا عشر مسجدا جامعا).

أما الباب الثاني فتحدث فيه عن جوامع الحنفية التي تقام بها خطبة الجمعة والعيدين، مع مقدمة وجيزة في بيان

ظهور هذا المذهب بإفريقية، وعدد هذه الجوامع بتونس سبعة مساجد.

وموضوع الباب الثالث في المساجد التي تقام بها الصلوات الخمس، دون خطبة الجمعة والعيدين، وعددها (164) مسجدا.

وموضوع الباب الرابع التعريف بالولاية على إمامة الصلوات.

وأتى في الباب الخامس على ذكر المدارس المخصصة لسكنى طلبة العلم في تونس، وبيان مواقعها ومن أسسها.

أما الخاتمة فكانت في تاريخ نشأة أختام الحديث بتونس، وبيان البقاع التي يروى فيها الجامع الصحيح للبخاري. والكتاب وثيقة هامة يؤرخ للمساجد والجوامع بتونس العاصمة، منذ انتشار الدين الإسلامي في إفريقية حتى عصر المؤلف، ويتحدث عن مؤسسيها، ونوع البناء، ثم من جددها ورممها، كما يحدد مواقعها، وهل هي مالكية أو حنفيه، ويتحدث عن المساجد التي وقع تعطيلها والأسباب التي أدت إلى هذا التعطيل، مع تحديد أمكنتها.

يملك الرجل وثائق نادرة عن تاريخ تونس السياسي والثقافي، وقد أشرنا سابقا إلى أن والده البشير ابن الخوجة ككل متعلمي العائلات التي تقلدت في تونس مناصب دينية وسياسية مولع بالتاريخ، فكان يقيد الأحداث السياسية وغيرها، ويعمل على جمع الوثائق الطريفة التي تهمّ تاريخ تونس بصفة عامة، فوجد ابنه هذه الوثائق، وكان ميالا إلى علم التاريخ منذ شبابه الباكر، فاستغلها في مقالاته وبحوثه التاريخية، مما جعل هذه الفصول الحضارية والتاريخية غنية بالمعلومات التي استقاها من تقييدات

أبيه ومن الكتب المطبوعة والمخطوطة التي وجدها في مكتبة العائلة ونماها هو فيما بعد، فجاءت أبحاثة طافحة بالوثائق النادرة التي لا نجدها عند غيره، وكان الرجل مولعا بتسجيل ما يسمع من أفواه عارفيه، ومن العلماء والمثقفين الذين كان على اتصال بهم، بالإضافة إلى من بيدهم السلطة، وهو قريب منهم، ويبرز هذا الولع بتسجيل ما يسمع وهو مصدر شفوي هام على مجلدات الحاضرة التي كانت على ملكه، فكثيرا ما نجده يسجل بالقلم الملابسات التي كتب فيها هذا المقال أو ذاك، وموقف الإدارة الاستعمارية منه، ومثال على ذلك أن السنوسي لما سمع بوفاة صديقه بيرم الخامس في حلوان مصر كتب تأبينا له في جريدة الحاضرة، فكتب محمد ابن الخوجة بلسان القلم يقول: « هذه الترجمة من قلم محمد السنوسي، وصدر بسببها لوم للجريدة من طرف مسيو رينو قنصل فرنسا بدعوى أن صاحب الترجمة من أكبر أعداء الهيئة الفرنسية بتونس» [1] وكثيرا ما ينسب المقالات المنشورة بصحيفة الحاضرة بدون إمضاء إلى أصحابها، وقد اعتبره المؤرخ والباحث حمادي الساحلي من المؤرخين البارزين في عصر الحماية، بعد البشير صفر وحسن حسني عبد الوهاب،وهو في رأيه يمتاز « بثقافته الواسعة، واعتنائه بالتاريخ التونسي، منذ شبابه الباكر(...) وازداد إنتاجه غزارة بعد إحالته على المعاش سنة 1934 فتفرغ للبحث والدراسة، وتحرير الفصول التاريخية، ونشرها في مختلف الصحف والمجلات التونسية، لا سيما المجلة الزيتونية،

---

(1) محمد السنوسي: الرياض الناضرة بمقالات الحاضرة تعليق وتقديم علي العريبي ط تونس 2001، ص 138.

وذلك لإحياء بعض الفترات من التاريخ التونسي، والتعريف بعدد من مشاهير التونسيين القدماء والمحدثين»[1].

تراجم الأعلام المشهورين :

إذا كان ابن الخوجة كما أشرنا يمتلك وثائق نادرة وطريفة تهم الوقائع التاريخية والمواقع الأثرية، فإن له أخبارا دقيقة تخص حياة الأعلام الذين ترجم لهم، مثل محمد السنوسي (توفي 1900) وسالم بوحاجب (توفي 1924) ومحمد القروي (توفي 1942) فقد كان الرجل على اتصال متين بأغلب الأعلام الذين عرّف بهم، ولهذا تراه يأتي على أخبار العلم كلها، فلا يترك كبيرة ولا صغيرة إلا ذكرها، فمن البيئة الأولى التي نشأ فيها: أي العائلة، يأخذك إلى الشيوخ الذين تخرج عليهم، ثم يسرد لك آثاره: من مؤلفات ورسائل وإجازات علمية، ولا ينسى أن يشير إلى مزاجه وطبعه، ثم يثني على أخلاقه، وعلوّ همته، فأخلاق محمد السنوسي، ولين أعراقه، وطلاقة محياه فحدث عنها ولا حرج، فقد كان السنوسي، كما يقول، ميالا إلى المسالمة، ولم تحفظ له زلة بين معارفه الكثيرين[2] والشيخ محمد عبده كان عظيم الهمة، كبير النفس، يغالب كرات الزمان بثبات عزّ عن النظير، ويستصغر الكبائر، ويستسهل المصاعب، ويستهين بكل شيء اعترضه في مسيره، وكان الشيخ محمد عبده، كما

---

(1) حمادي الساحلي: فصول في التاريخ والحضارة ط دار الغرب الإسلامي بيروت 1992 ص14

(2) محمد السنوسي: الرياض الناضرة بمقالات الحاضرة تحقيق وتقديم علي العريبي(سلسلة ذاكرة وإبداع) نشر وزارة الثقافة تونس 2001 ص163

يذكر عنه ابن الخوجة، محبا لخير الإسلام و**المسلمين، فقد كان أشفق أب لليتامى، وأحن أخ للبؤساء والمساكين، وكم من يد تمد له في ظلام الليل يواسيها بالمعونة والإحسان**[1].

وعندما يعرف بعلم عند وفاته يتحول التأبين إلى ضرب من الرثاء والتفجع على فقد هذا العلم أو ذاك، ويضفي على هذا التأبين غلالة من الكآبة والحزن والأسى، ولابن الخوجة قلم يطاوعه في وصف المواكب والمراسم الاحتفالية، فتراه ينقل لك مواكب الأمراء والبايات والرؤساء نقلا يغنيك عن حضور هذه المواكب -كما سنرى عند الحديث عن الرحلات الرسمية- واقرأ إن شئت وصفه لجنازة محمد عبده فسترى أنه نقل هذا الموكب نقلا دقيقا، رغم أنه لم يحضر جنازة محمد عبده.

ولا ينسى، كما جرت العادة في التأبين، أن يدعو للميت بوابل الرحمات، ويسكنه أعالي الجنات، وأن يرزق أهله الصبر والسلوان.

ابن الخوجة الرحالة :

أشرنا أعلاه إلى قيام ابن الخوجة برحلات إلى أوروبا وبلدان شمال إفريقيا، وقد قيد مشاهداته، وسجل ملاحظاته عن البلدان التي زارها،ويبلغ مجموع ما حبر في هذا الفن سبعة كتب، وهي :

1 ـ الرحلة المشيرية الصادقية للعاصمة الجزائرية
2 ـ الرحلة الحبيبية
3 ـ الرحلة المغربية في جزأين

(1) انظر المختارات

وهي رحلات مخطوطة، وأما الرحلات المنشورة فهي:

4 ـ سلوك الإبريز في مسالك باريز

5 ـ توادد الكرم وهي رحلة محمد الهادي باي لباريس سنة 1904

6 ـ الرحلة الفليارية (1911) نسبة إلى (Armand Fallières) رئيس جمهورية فرنسا (1900 - 1913)

7 ـ الرحلة الناصرية (1912)

ويمكن أن نقسم هذه الرحلات إلى نوعين :

رحلات رسمية يقوم فيها بعض البايات بالتنقل إلى الجزائر (الرحلة رقم 1) أوفرنسا (الرحلة رقم 2 و5 و6) أو زيارة بعض رؤساء الجمهورية الفرنسية (الرحلة رقم 7 بالإضافة إلى رحلة إميل لوبي المنشورة بالروزنامة) إلى المملكة التونسية باعتبارها دولة محتلة والسيادة فيها لفرنسا.

وفي هذه الرحلات يتحول ابن الخوجة إلى صحفي يعمل على وصف ما شاهده من المواكب والاحتفالات، في عبارة فخمة، وألفاظ جزلة « تضفي على المعاني البسيطة والحقائق الفارغة ستورا من التعبير الأدبي الجميل السائغ» [1] ويمكن القول أن أسلوب هذه الرحلات الذي أحكم فيه ابن الخوجة المزج بين ما هو حقائق تاريخية وبين تعظيم الباي أو رئيس الجمهورية هو « عبارة عن قوالب براقة، تستر ما لا يشرف ذكره من الحقائق المؤلمة، أو تعظم ما ليس عظيما بذاته من المعاني التافهة» [2] ويصدق هذا الوصف على الرحلات الرسمية، أعني

---

(1) الفاضل أبن عاشور: الحركة ص 93

(2) نفس المرجع والصفحة

الرحلة الفليارية والرحلة الناصرية والحبيبية وغيرها، ونذكر فيما يلي نموذجا من وصفه لرحلة محمد الهادي باي إلى فرنسا في جويلية سنة 1904.

لما وصل موكب محمد الهادي باي إلى تونس العاصمة عن طريق القطار، وسار نحو سراية المملكة وجد -يقول ابن الخوجة - « في استقبال مولانا العلي كافة الضباط والمأمورين والعمّال (الولاة) والموظفين من سائر الطبقات بملابس التشريفات الكبرى، فحظوا بلثم الراحة الكريمة، قياما بواجب الموادعة والطاعة والإخلاص لسيدنا الكريم، وفي تلك الأثناء أقبل على الحضرة العلية جناب معتمد السفارة العامة (المقيم العام)مصحوبا برجال حاشيته بلبوسهم الرسمية، وبعد أن قدم جناب المعتمد مراسم احترامه ووداده للحضرة العلية انتظم الموكب من السراية إلى مرسى تونس، فركب مولانا العلي عربة الأعياد الكبرى، وأجلس على يساره جناب المعتمد الفرنساوي، وركب أمراء البيت الملوكي، ورجال المعية، وبقية الذوات في عشرة من العربيات (؟)، وسار الموكب في أبهة بهجته وجلاله، مخترقا صفوف العساكر الفرنسوية والتونسية, وأفواج الخلائق، وقد غص بهم رحب الفضاء، مارا على بطحاء القصباء، فشارع باب المنارة، فشارع باب الجديد، فنهج الجزيرة، فنهج الصادقية، فبطحاء السفارة، فميدان البحيرة، فشارع البورت، وكانت هاته الشوارع قد أخذت منذ البارحة حظها من مظاهر الزينة الفائقة، ومجالي الاحتفال الشائقة، مزدانة بعدد لا يحصى من مجموعات الأعلام التونسية والفرنسوية، علاء لشأن هذا الحادث الميمون، وقياما بواجب الإكرام لأمير البلاد الذي أسبغ نعمه الضافية على العباد، كما أقيمت

سرادقات أنيقة، وزينة باهرة بأسكلة المرسى (لعله يقصد المدرج) الموصلة للباخرة الحربية، المعدة للركاب الملوكي، موشحة الجوانب بالأقمشة الرفيعة، مكللة الأطراف بالستور المزركشة، الموشاة بالطغراء الملكية، مفرشة بأبسط البسط والزرابي الشرقية، بما كان مجموعه آية في حسن التنسيق والترصيع»[1].

هذا الوصف يذكرنا بما كانت تنقله بعض الإذاعات العربية من وصف للمواكب والاحتفالات في بعض المناسبات، وإن كان هذا الوصف يصاحبه صوت الجماهير وتصفيقها استحسانا بما يشاهدون من أبهة وجلال.

ولئن كان المذيع يتكلم باللهجة العامية ممزوجة بتراكيب عربية فصيحة فإن ابن الخوجة يضفي على أسلوبه رونقا، وعلى لغته فصاحة هي في المحل الأرفع من البلاغة، فتقرأ جعجعة ولا ترى طحنا، فهو كما قال ابن عاشور يعظم «ما ليس عظيما بذاته من المعاني التافهة» أما القسم الثاني من رحلات ابن الخوجة، فهي الخاصة به، وهنا يقبل الرجل على تسجيل ما شاهد وما رأى وسمع، ونذكر كمثال على ذلك وصف رحلته إلى باريس «سلوك الإبريز في مسالك باريز» بما أن رحلته إلى المغرب لم نطلع عليها

سلــــوك الإبريز :

سافر الوفد التونسي إلى المعرض الدولي الذي أقيم

---

(1) الفاضل ابن عاشور: الحركة الأدبية والفكرية ص273 ص274 نقلا عن الووزنامة التونسية1322 / 1905.

بباريس (1900) وكان على رأسه محمد الهادي باي ولي العهد [1] ومن أعضاء هذا الوفد محمد ابن الخوجة.

ويبدو كما جاء في طالع هذه الرحلة، وهي عبارة عن خمس رسائل نشرتها الحاضرة تحت عنوان (رسالة موجهة لمدير الجريدة) أن علي بوشوشة طلب من ابن الخوجة أن يمد الجريدة بملاحظاته عن هذه الرحلة حتى يطلع القراء على ما وصلت إليه هذه البلاد من التقدم في ميداني الحضارة والعمران، ويتعرفوا إلى أسباب القوة والنفوذ التي أصبحت تتمتع بها هذه الدولة في العالم، حتى أضحت رايتها تخفق في كثير من الأقطار التي استولت عليها، إن في القارة الإفريقية أو الأسيوية، وليس للناس من وسيلة تطلعهم على العالم المحيط بهم سوى الصحيفة، أو المنشورات التي كتبها بعض الرحالة من المثقفين العرب الذين زاروا أوروبا،

(1) يتكون الوفد بالإضافة إلى محمد الهادي باي ومحمد ابن الخوجة من:
- ابن الهادي باي محمد الطاهر
- صهره رشيد حيدر
- كاتب سره مصطفى دنقزلي
- عامل أحواز الحاضرة
- محمد العصفوري رئيس المجلس البلدي بالحاضرة
- البشير صفر رئيس جمعية الأوقاف
- الطيب الجلولي عامل سوسة
- محمد الأصرم مدير الغابة، ورئيس الجمعية الخلدونية
- حمودة تاج رئيس قسم البحث بالإدارة العدلية.
- محمد الحشائشي متفقد خزائن الكتب العامة بجامع الزيتونة
- عبد الجليل الزاوش وأحمد الغطاس محاميان
- ومع هؤلاء بعض العمال والتلامذة والمعلمين، وكان عدد أفراد الوفد ثلاثة وثلاثين شخصا
- خليل بوحاجب رئيس قسم الإدارة العدلية

وقد ازدهر فن الرحلة في القرن التاسع عشر، فكان النافذة المضيئة التي يطل منها بعض المتعلمين العرب على التمدن والتقدم والرقي الذي بلغته أوروبا، ولا شك أنهم يقارنون بين ما عليه هذه البلدان من تقدم وما عليه البلدان العربية والإسلامية من تأخر.

يقول ابن الخوجة مخاطبا صديقه بوشوشة، مدير صحيفة الحاضرة: «قد تكرمتم بسؤالنا لأن نكتب لكم حديث ما شاهدناه من الأمور التي رأتها مجادتكم جديرة بإفادة قراء صحيفتكم، فأسرعنا بقبول طلبكم، واستعنا بالله على تحرير زبدة رحلتنا القريبة البداية، السريعة النهاية، وكان في الأول عزمنا تقديم العذر إليكم، إلا أن حسن ظنكم حملنا على المبادرة بمساعفتكم، إذ رأيتم عملنا سينتج إفادة لأبناء وطننا العزيز، وإن كان قراء جريدتكم يعلمون اليوم من الإفادات المتوالية التي هي صنيع صحيفتكم الكثير عن أحوال الديار الأوروباوية عموما،وأخبار البلاد الفرنسوية خصوصا» [1]

وتتكون الرحلة من خمس رسائل:

1) السفر من تونس لباريس

2) معالم باريس وحضارتها

---

(1) رسالة موجهة لمدير جريدة الحاضرة ع617 بتاريخ 9 أكتوبر 1900 وقد نشرت الرسائل الخمس في الجريدة المذكورة كالآتي:

أ) الحاضرة ع 617 بتاريخ 9 أكتوبر 1900

ب) الحاضرة 618 بتاريخ 16 أكتوبر "

ج) الحاضرة ع 619 بتاريخ 23 أكتوبر "

د) الحاضرة ع 620 بتاريخ 30 أكتوبر "

هـ) الحاضرة ع 621 بتاريخ 6 نوفمبر "

3) مرافق باريس وعوائد أهلها وأخلاقهم
4) وصف ما شاهده في معرض باريس الدولي
5) التعريف بقصور فرساي والرجوع إلى تونس.

ونبه ابن الخوجة قارئه إلى أنه سيقتصر «على بضع فصول لا غير، نلخص كما يقول فيها جملة ما رأيناه، أو بقي بمحفوظنا من أخبار سفرنا تاركين مراجعة التفاصيل، وأخذ الإفادات الشافية من الرحلات الجديرة بأن تنعت بهذا الاسم، تضلع محرريها، وصحة مبانيها، كالكتاب المسمى (تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز) تأليف العالم الشهير رفاعة رافع الطهطاوي [1] وككشف المخبأ عن فنون أوروبا للناقد والإخباري الكبير أحمد فارس الشدياق [2] صاحب جريدة الجوائب» دون أن ينسى الرحالين التونسيين كما سنرى.

من تونس إلى باريس :

بدأ الحديث عن رحلته منذ الخروج من حلق الوادي،

---

(1) رفاعة رافع الطهطاوي (1801- 1873) من رواد الإصلاح في مصر، تخرج من الأزهر، وذهب إماما لبعثة الطلاب المصرية التي أرسلها محمد علي إلى باريس، وفيها أكمل رفاعة ثقافته، وكتب رحلته المذكورة، ويعتبر من الرواد الذين كتبوا في فن الرحلة في الأدب العربي الحديث، وبها تأثر الكثير من الكتاب العرب ومنهم صاحبنا ابن الخوجة.

(2) أحمد فارس الشدياق(1801 – 1888) من رواد النهضة الأدبية في العصر الحديث، أسلم في تونس، وكان كاثوليكيا، بروتستانيا، قام برحلات إلى مصر ومالطة وأوروبا، وكتب في أدب الرحلة، ومن كتبه في هذا الفن بالإضافة إلى كشف المخبأ الذي طبعه في تونس الواسطة إلى معرفة مالطة، انظر محمد الهادي المطوي:أحمد فارس الشدياق (في جزأين) ط دار الغرب الإسلامي بيروت 1989.

حتى وصوله إلى باريس، فقد كان محط أنظاره مع صحبه، منذ إقلاع السفينة من شواطئ الخليج التونسي «فمن حلق الوادي إلى جبل المنار، ومن رادس إلى حمام الأنف، ثم التوغل في غمار البحر (شاهد وصحبه) بقية الشواطئ، فيمينا شبه جزيرة دخلة المعاوين، ويسارا المرسى وقمرت وغار الملح وما والاها» ولم يؤثر فيه شيء بعد المبارحة أكثر من مشاهدته « كرسي الصلاح وشاطئ المرسى» وقد قال بعض شعراء تونس في هذا الشاطئ :

يا شاطئ المرسةَ السلا مُ عليك يا نزهة العيون

ولما جن الليل كان يهتدي بنور ناظور سيدي أبي سعيد، وهويردد مع القائل :

وبالناظور إشعارٌ بِجُودٍ لأنَّ به ضريحَ أبي سعيد

وقضى ابن الخوجة ليلتين في البحر، بعد أن مروا بسردانيا من مملكة إيطاليا، وصاروا ينتظرون الوصول إلى البلاد الفرنسية بفارغ صبر، ثم حطوا رحالهم بمرسيليا عند منتصف النهار، فقضوا بقية اليوم وليلة الغد، فتجولوا في المدينة، وتعرفوا إلى معالمها، وزاروا دار الوالي ودار البريد، وكنيسة نوتردام «الملقبة بولية الحراسة عندهم، وقد كان تأسيسها على أطلال معبد قديم في سنة 1864 مسيحية، ولهذه البيعة (يقصد الكنيسة) عند القوم حديث مشهور، وذكر مأثور، ينقله الخلف عن السلف، وينذرون إليها النذور، ويستغيثون بها ويلتجئون إليها في الأزمات، واشتداد الكربات».

وتحدث عن حركة التجارة بميناء مرسيليا، فتبين له أنه أول

مواني البحر المتوسط من هذه الناحية، وأما أحياؤها فلم يجد فرقا بينها وبين الأحياء الأوروبية في البلدان الإسلامية، بحيث إنه لم يجد عظيم فرق بينها وبين حومة باب البحر بتونس، أما السكان فقد رأى خليطا من الناس، فعلاوة على العنصر الفرنسي، وهو الغالب، فقد رأى « كثيرا من الناس بأشكال مختلفة، وزي غريب، ولغة غير اللغة الفرنساوية، ولا نغرب - يقول - على القارئ إذا قلنا أننا رأينا هنالك أناسا من أهالي جزائر اليابان، كما التقينا بعدد غير قليل من أهالي الشرق، وغالبهم من البلاد المصرية» كما وجد الكثير من التونسيين ومن يهود تونس، بالإضافة إلى الجزائريين والمغاربة.

ولفت انتباهه وهو يتناول وصحبه طعام العشاء على ساحل البحر يوم وصولهم إلى مرسيليا رهط من الفنانين الأسبان المتجولين يستجدون الناس «وبيدهم آلات موسيقية، يعزفون بها الأناشيد والألحان الغرامية لترويح الحاضرين، ثم يستعطفون مراحمهم في الآخر، ليجودوا عليهم بما تسمح به هممهم كل حسب كرامته وجوده، وينالوا بهذه الطريقة صدقات واسعة تكفيهم لسد عوزهم أو أكثر».

ولما فارقهم هذا الصنف الغريب من الشحاذين أقبل عليهم شاب « أسمر اللون متقيف بالزي الأروباوي والقلنسوة على رأسه، وأخذ يترنم شفاها بأناشيد فرنساوية محسنا لحفظها وإلقائها، ثم قدم لنا قبعته، لنتصدق عليه بدرهم أو درهمين، ولما « بيضوا كفه» شكرهم بلسان عربي مبين، وتبين أنه جزائري جاء من وهران، طلبا للرزق، وأن هذا النوع من الشحاذة يجلب له مالا وفيرا».

وتحدث ابن الخوجة عن أخلاق أهل مرسيليا، فوصفهم بالجد والكد كبقية الفرنسيين «إلا أنه تغلب عليهم المجاهرة بكل ما في ضمائرهم، حتى ما يخص أمور بيوتهم، كما تغلب عليهم الثرثرة في الكلام، وهي طبيعة عرفت بهم، كما عرفوا بها من قديم».

وختم مشاهداته عن مدينة مرسيليا بالحديث عن متاحفها وحدائقها العامة والخاصة، ورأى «حوافل تسير بالكهرباء ليست كالتي بباريس، بل كالتي هي بصدد الإنجاز بحاضرة تونس الآن».

وركب ابن الخوجة ومن معه القطار السريع، أو الطيار كما يسميه، ليقطع بهم مسافة ثمانمائة كيلومتر في أقل من ثلاثة عشر ساعة للوصول إلى باريس، وكان لا بد أن يصف، وهو على القطار الأماكن التي مر بها،ولو من بعيد، وقد اجتاز تلولا وأنقابا جبلية «وبساتين نضرة، وعمارات ومزارع بهية، وكروم وأشجار على مد البصر، لا يتخلل ذلك من البياض سوى طريق تمر به العجلات أو نحو ذلك».

ووصل القطار إلى مدينة ليون الشهيرة برفعة المنسوجات الحريرية، والكائنة على ضفاف نهر الرون، قال إن العرب يسمونه في تواريخهم بنهر ردونه، وهذا اسمه باللسان اللاتيني الذي عرفوه به، وعند مروره بمدينة أفنيون قال «إن التاريخ الإسلامي حفظ لبعض البقاع الفرنساوية كثيرا من أسمائها على عهد السلطنة العربية، من ذلك أن مدينة أفنيون، واسمها بالعربي صخرة أونون» وبما أنه على متن قطار فلا يرى من هذه المدن التي مر بها سوى العمارات

والبساتين، كذا كان الشأن بالنسبة لمدينة مونتلمار، وفي مدينة ليون (ثانية المدن في فرنسا بعد باريس) توقف القطار برهة ثم استأنف سيره بين ظلال أشجار تلك البراري الواسعة المنتظمة، إلى أن بلغ في حدود الغروب مدينة ديجون التي لا تقل حسنا وبهجة عن سابقتها في الذكر.

ووصل الوفد إلى باريس لَيلا، ولم يشعر ابن الخوجة بالتعب على متن القطار كما شعر به وهو على ظهر السفينة البحرية التي أقلتهم من تونس إلى مرسيليا، وهنا تذكر بيتا للأمير عبد القادر الجزائري يقول فيها، مفضلا ركوب البر على ركوب البحر:

سَفَائنُ البرّ بلْ أنجي لراكبها ** سفائن البَحْرِ كمْ فيها من الخطر

وعلى ذكر الأمير عبد القادر يقول: « من غريب الاتفاق أن السفينة التي حملتنا من تونس لمرسيليا تسمى(طفنة) نسبة لوادي طفنة الواقع ببلاد الجزائر الذي تم على ضفافه إمضاء المعاهدة الشهيرة باسمه المنعقدة في 30 ماي 1837 بين حكومة الجزائر والأمير المشار إليه».

في مســالك بــاريس :

لما وصل ابن الخوجة إلى باريس أخذ يستطلع إجمالا أحوال تلك المدينة الطافحة بالعمران، فزار معالمها، وبدأ بالتفسح في شوارعها العامة، لاحتوائها فضلا عن انتظامها وحسن اتساقها على أكبر وأهم محلات الباعة والتجارة في البضاعة الثمينة من الحجارة الكريمة والأقمشة السندسية وما شاكلها، ولكونها أيضا المركز الجامع لأهم ملاهي وقهاوي

العاصمة الباريسية، ومستودع المخترعات الحديثة التي لا يتسع إلا الإعجاب بقوة عارضة صانعيها، وهذه الشوارع فسيحة جدا تمتد عدة أميال، ومن أشهر هذه الشوارع شارع المادلين « نسبة للكنيسة المسماة (سانت مادلين) أي مريم المجدلانية، وهي كنيسة ضخمة مقامة على أعمدة شاهقة، تحاكي في هيئتها معابد الروم الأقدمين » وبعد أن يتعرض لمن بناها، وكيف أن نابليون الأول أرادها أن تكون «هيكلا للفخر يريد تزيين عرصاته بصور قواده المشهورين ومحاربته وفتوحاته» ولكن لويس فليب بعد أن أتم بناءها قرر تخصيصها لأن تكون معبدا دينيا.

ولاحظ ابن الخوجة «على واجهة هذه الكنيسة نقوشًا شخّص بها صانعها يوم الهول الأكبر من حشر ونشر، كما توجد على واجهاتها الداخلية آيات من العهد القديم مرسومة باللسان اللاتيني، وصور ذوات مشهورة كرسم نابليون المتقدم في الذكر، وسانت لويز الذي غزا تونس في عهد المستنصر بالله الحفصي، وبقي له ذكر ليومنا هذا بقرطاجنة، وأما سقوفها فإنها محلاة بصور وهمية يزعمون أنها صور للملائكة المقربين».

ثم انتقل إلى شارع كابوسين (ومعناه بالعربية شارع العصيفرات) فوجد به البنك العقاري، وبالقرب منه الملهى المسمى (تياترو دي أوبرا) وهو أعظم وأشهر ملهى في فرنسا، وفي أوروبا كذلك، ويلي الشارع المذكور شارع الطليانيين، وهو «أكثر حركة من الناحية التجارية، وفيه أثمن البضاعات من حجارة كريمة وملبوس وقهاوي مضاءة، ومضيئة بنور الكهرباء الذي صيّر بهجتها في الليل أحسن مما بالنهار».

ومنه مر إلى شارع مونمارتر، وفيه (تياترو دي فاريتي) أي ملهى المنوعات «كناية على أنه يقع به تشخيص الروايات المختلفة من هزلية وجدية وحزينة وغيرها» وبجوار هذ المسرح توجد دار البورصة «أي مجتمع التجار والمضاربين في أسهام البنوك وقراطيس المالية الدولية، ولهذه الدار ونظائرها أهمية كبرى في البلاد الأروباوية الراتعة في ميادين الثروة والرفاهية».

ثم انتقل إلى شارع (بواسونير) أي الحواته -بائعي السمك-، فشارع (بون نوفال) أي البشارة، وعلى مقربة منه كنيسة القديس (سان فانسان دي بولس) الذي كان فر من الأسر بتونس في عهد المشاحنات الدينية.

ويختم حديثه عن الشوارع الهامة بباريس بشارعين هما (سان جرمان) و(سان ميشال) وتوجد في هذا الشارع الأخير معاهد التعليم التي يؤمها عشرات الآلاف من التلامذة والطلبة، ويسمون هذا الحي بالحارة اللاتينية، وبما أن ابن الخوجة التزم الإيجاز في التحرير فقد اكتفى بهذا القدر اليسير من الكلام على ملاهي وشوارع باريس.

ولما انتهى من تجوله في شوارع باريس الجامعة حوّل وجهته لزيارة ما اشتهر ذكره في الخافقين من المعالم التاريخية والآثار الصناعية ذات البهجة والانتظام، وبدأ بدار الكتب العمومية ويسميها الكتب خانة، وبها من الكتب ما ينوف عن ثلاثة ملايين مجلد، ووجد في هذه المكتبة الزاخرة بالكتب في شتى اللغات مصحفا من القرآن بالقلم الكوفي مكتوب على الرق، وقد نسخ في عهد التابعين، ورأى مصحفا آخر أحدث من

الأول، لم ير قط خطا أجمل وأرشق من خط اليد التي سعدت إلى الأبد بانتساخه، ومصحفا ثالثا بخط الغازي سنان باشا الوزير العثماني المشهور، وشاهد نسخة من التاريخ الكامل لابن الأثير كتبت من إملاء المؤلف، وشاهد أيضا نسختين عتيقتين من مقامات الحريري، بهما صور لوقائع المقامات.

ثم دخل قسم النقوش التاريخية والتحف الأثرية، وشاهد ودائع تاريخية هامة، منها وعاء مطرز بالذهب وبالحجارة الكريمة من نوع الزبرجد كان أهداه الخليفة هارون الرشيد الخليفة العباسي الخامس (170 /786 - 194 /809) للإمبراطور شارلمان (768 - 814) مع رقعة من الشطرنج بقيت منها بقية لهذا العهد (1900).

ومن دار الكتب العامة انتقل ابن الخوجة إلى المتاحف، ومنها متحف اللوفر، الذي كان مقرا لملوك فرنسا، وقد زينت جدران قاعاته بتماثيل عظماء فرنسا، على اختلاف العصور، وقد وجد ابن الخوجة « في بعض الأخبار الصحيحة أن سبب الثروة التاريخية التي حصل عليها هذا المتحف الشهير بسائر بلاد العالم المتمدن كانت في سني الفتنة التي ظهرت بفرنسا أواخر القرن الثامن عشر، ومن سبايا الحروب التي نالها نابليون الأول (1804 -1815) من ألمانيا وإيطاليا».

وأتى على ذكر متاحف أخرى دون شهرة متحف اللوفر مثل متحف الآثار الحربية ومتحف الآلات الموسيقية، وتحدث لقراء الحاضرة عن بقية المعالم مثل (البانتيون) الذي به ضريح نابليون الأول، وعمود (فندوم) وعمود يوليو الذي أقيم تذكارا لانتصار الحرية على الملك المطلق، وقد

أقيم فوق أطلال سجن الباستيل أي القلعة « ولا يخفى أن هذا السجن حفظ له التاريخ أسوأ ذكر، حيث كان بيت العذاب الأليم، ومن ساقه سوء الطالع لداخله لم يفرح بعد بالفرج أبدا» وأشار إلى عمود آخر وهو عبارة عن مسلة مصرية أهداها محمد علي حاكم مصر (1805 - 1849) إلى لويس فيليب (1830 - 1848) فأمر بإقامتها في ساحة (الكونكورد) أي الوفاق، وهي من أحسن بقاع باريس وأجملها، وأشار إلى أن الباريسيين يسمون هذه المسلة (مسلة لكسور).

يقول ابن الخوجة عن (لكسور) «لا شك أنه محرف عن لفظ القصور الذي هو اسم البلد الذي جلبت منه تلك المسلة» وببطحاء الوفاق توجد دار الندوة الفرنسوية أي مجلس نواب الأمة «ولا يخفى أن هذا المجلس هو الذي يدبّر بفرنسا مع مجلس الشيوخ (سينات) كل أمر ذي شان، ولا نبالغ إذا قلنا إن بيده سعادة الأمة وشقاوتها».

وانتقل بعد ذلك لدار السكة الكائنة بشارع ريشيليو (1585 -1642) وزير لويس الثالث عشر (1610 - 1643) ومؤسس الأكاديمية الفرنسية، وقد اطلع مدير الدار محمد ابن الخوجة ومرافقيه « على سائر محلات الصنع، ومستودعات الذخائر النقدية من نقر الفضة والذهب الوهاج بحالتيهما المعدنية إلى انقلابهما لنقود ومسكوكات فرنسوية» ولدار السكة متحف تاريخي للنقود من سائر الأنواع واختلاف الأعصار، يقول ابن الخوجة عن هذا المتحف: «أما ما يفيد قراءكم (يخاطب مدير الحاضرة) من زيارتنا لهذا المتحف فنقول لهم : إنه يوجد به نقود ذهبية وفضية من سكة عمر بن عبد العزيز (99 /717 - 102 /720) والأمويين والحجاج (75 /694

96 /714) والي العراق، وكنا نظن قبل ذلك أنه لم يبلغ في ولايته بطريق النيابة مع الخطبة لعبد الملك بن مروان (66/ 685 - 86 /705) إلى حد ضرب السكة باسمه، فحقق لنا العيار غير ما كان بظننا، أما مسكوكات العباسيين فكثيرة، ومثلها سكة الحفصيين بتونس، وبني عبد المؤمن بالمغرب».

ومن معالم باريس العظيمة قوس النصر الكائن ببطحاء النجم، بدأ تأسيسه نابليون الأول، وأتمّ بناءه لويس فيليب، وهو عبارة عن أربعة أقواس شخصت بكل واجهة منه مواطن حرب ومواقع عسكرية قام بها نابليون الأول من عام 1792 إلى عام 1815.

بعد أن أتم ابن الخوجة الحلقة الثانية من رحلته المنشورة بالحاضرة تلقى من القرّاء وهو في باريس «ملاحظات رشيقة» كما قال، وذكر أنهم رأوا منه التقصير في التعريف بمعالم باريس، إذ أنه لم يذكر إلا ما اشتهر منها،وهو قليل، وطلب من مدير الحاضرة أن يفسح له المجال، لكي يقوم نحو قرائه بتدارك ما رأوه تقصيرا منه، وإن لم يحط بكل شيء علما كما يقول.

وبدأ الحلقة الثالثة بالحديث عن دار الرصد، ومن أسسها، والمراصد الفلكية التي بها، وقد نظر من خلال التلسكوب إلى القمر فقربه منه نجيا، وكأنه يبعد عنه بعشرين ميلا فقط، ثم تعرض إلى المجمع العلمي الفرنسي من حيث أقسامه وعدد أعضاء كل قسم.

وعاد بقرائه إلى الحديث عن الهياكل والمعالم والمواقع الشهيرة بباريس، مثل كنيسة نوتردام (وترجمها بسيدتنا مريم) وهي أم الكنائس بهذه المدينة من حيث عظمتها وقدمها وموقعها،

وذكر من بناها، وما هي المدة التي استغرقها هذا البناء (مائتا عام) ونوع البناء، ومحتوياتها الثمينة، ونصح قراءه الذين يريدون تفاصيل أكثر عن التمدن والعمران بباريس بالرجوع إلى كتب الرحلات المنشورة وهي (تلخيص الإبريز إلى تلخيص باريز) للطهطاوي و(كشف المخبأ عن فنون أوروبا) للشدياق (وقد ذكره أكثر من مرة) و(صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار) لبيرم الخامس (توفي بالقاهرة 1889) وكذلك الرحلة التي سيقوم بتدوينها محمد الحشائشي، ونبه القارئ مرة أخرى إلى أنه التزم الاختصار في تحرير رحلته الباريسية، اعتقادا منه، وهذا صحيح أنه ينشر هذه الرحلة في صحيفة موجهة إلى العموم.

ثم عاد إلى الحديث عن آثار التمدن بباريس، فذكر منها وسائل النقل من الكروسة إلى السيارة إلى المترو الذي يسير بالكهرباء تحت الأرض.

ومن أجمل بقاع النزهة في باريس منتزه شانزيليزي (وترجمته كما يقول روضة الأصفياء) وهي حديقة متسعة «ذات شطرين كل منهما ذو مقاعد وكراس وفوانيس كهربائية وأشجار وأنوار محكمة الترصيع، وحواليه يمينا وشمالا محلات النزهة والملاهي، وخوانبت الباعة التي فيها من كل فاكهة زوجان، وأرضه مبلطة بالخشب الصقيل كغالب شوارع باريس (...) وفي هذه الحديقة الجميلة يرى الناظر من كل شيء أحسنه، وبها من سائر أنواع الفكاهات والألعاب بين مزمر ومشعوذ ومغن وعازف وساحر وقصاص، أما منظرها في الليل حال انتشار الجنس اللطيف بجنيناتها فأمره مهول، وحديثه يطول».

وليس بباريس أحفل ولا أجمل من هذا المكان إلا البستان العظيم المسمى بْوَى دُو بُولونيا (غابة بولوني) «وهي عبارة عن ندحة من الأرض واسعة ممتدة، كلها شجر وحياض ومماش وظلال تجري من تحتها الأنهار، وبها طرق للعواجل ومقاعد، وشلالات ينحدر منها الماء، وآجام ورياض وقهاوي وحانات وملاه، وفيه من سائر نباتات الدنيا وحيواناتها وطيورها، ولكل قسم من النبات والحيوان والطيور عيش وهواء وترتيب لائق بمزاجه، بحيث إن الحشائش المتولدة بالبلاد الحارة محتجبة في بيوت من البلور لوقايتها من البرد، وتسقى بماء ساخن، مع هواء له من الحرارة الدرجة المماثلة لطقس الأرض التي ينبت بها، وقس على ذلك تربية الحيوانات الضارية والأهلية، والطيور المستجمعة من كل فج عميق».

محاسن هذه الغابة وما فيها من متع قال عنها بعضهم: إنها راموز الجنة، أما ابن الخوجة فقد قال عنها: إنها راموز نعيم الدنيا.

وهناك منتزهات أخرى مثل بستان الباتات وغيضة (مونصو) وبستان (لوكسمبورغ) وبستان التويلري.

أما أخلاق أهل باريس، فيقول عنهم ابن الخوجة: «هم أهل ليانة وكياسة قلما توجد عند غيرهم من الأروباويين، وبقدر ما يغلب على طبيعة غيرهم الكبر والعجب يوجد عندهم عكس ذلك من الأوصاف الحميدة التي ينشرح لها الغريب في بلادهم».

والفرنسيون كما يقول كلهم « يستوون في إحساس واحد ونهضة واحدة في المحافظة على شرفهم وإعلاء مركز أمتهم

بين الأمم، ولقد قاموا غير مرة بأدلة واضحة وبرهنوا على هذا الإخلاص في خدمة وطنهم الذي يرون دونه أرواحهم، بما جعل لهم المكانة المكينة والقدم الراسخ بين الملل والنحل.

وتعجب ابن الخوجة من إقبال الفرنسيين في النهار على العمل والكد، وإقبالهم في الليل على اللهو والمجون «وكثيرا ما تحدث وقائع ليلية بمحلات النزهة واللهو يخجل لسماعها صاحب الذوق السليم، والبوليس يتحاشى عن ضبطها أو التداخل فيها، وهذا من الأمور التي قضت علي بالاستغراب، ولم نتدبرها إلى الآن» وقد قال شعرا في هذا المعنى:

يُرى بالليل عندهم مجون *** ولهــو وانبساط وانشــراحُ

وكــد ثم جد فـــي علـوم *** تضيء الكون إن طلع الصباحُ

وخصص الحلقتين الأخيرتين من هذه الرحلة لوصف معرض باريس الدولي (وسنذكر مختارات منه في القسم الثاني من هذا الكتاب) وحديثه عن الرجوع إلى تونس، ووصف ما فاته عند الذهاب إلى باريس.

ويمكن القول إن هذه الرحلة تعكس انطباعات مثقف معجب بالحضارة الفرنسية، وما بلغته من تقدم وازدهار، وخاصة في المجال الثقافي والاقتصادي، وقد مزج هذه الانطباعات بأشعار القدامى والمحدثين، والتذكير بالتاريخ الإسلامي، وأمجاد الحضارة العربية.الإسلامية، فمثلا عند حديثه عن التقدم العلمي في فرنسا يعرض آراء بعض الكتاب الفرنسيين في حضارة العرب، وسبقهم إلى العلوم التي استفادت منها أوروبا (انظر رأي سيديو في الحضارة العربية في قسم المختارات).

ولئن انبهر ابن أبي الضياف بما رأى وشاهد في رحلته مع أحمد باي إلى فرنسا (1846) فإن ابن الخوجة تجاوز مرحلة الإعجاب والانبهار إلى التعرف إلى أسباب هذا التمدن، وأرجعه إلى الإقبال على العلم والانكباب على العمل والجد فيه «فأمة الفرنسيس بلغت في حضارتها لأوج العز والسعادة إذ هي استخدمت فكرتها، وأجالت قريحتها في كل ما يمكن للعقل الإنساني استخراجه بقوة العلم من حيز الوهم إلى عالم الوجدان».

وقد ضمن هذه الرحلة الكثير من الآيات القرآنية، ومن الأشعار كما أشرنا، وكان بصفة عامة « يجنح إلى إيراد الفقر المأثورة، والقوالب المشهورة، وتنزيل أبيات الأمثال والمعاني، فكان لتحريره قبول عند أصحاب الثقافة القديمة، وأنصار الأدب التقليدي» [1]

ولا شك أن محتوى هذه الرحلة أرضت سلطات الحماية، كما أرضتهم (الاستطلاعات الباريسية) للسنوسي من قبل، فالرجل ينوه بالثقافة الفرنسية، ويعرف بالمؤسسات والمتاحف والمكتبات وما فيها من مخطوطات عربية نادرة، مما دعا إدارة الحماية إلى طبعها بعد نشرها في الحاضرة مباشرة، ونفدت طبعتها بعد توزيعها في كل من تونس والجزائر، وأصبحت اليوم في حكم المخطوطة، ولهذا رأينا نشر أكثر من حلقة في هذا الكتاب الذي نشرته الحاضرة تحت عنوان (رحلة محمد ابن الخوجة إلى باريس).

---

(1) الفاضل ابن عاشور: الحركة الأدبية والفكرية ص 92

إن ما كتبه ابن الخوجة،وخاصة رحلاته أصبحت اليوم جزءا من التاريخ، وخاصة رحلته إلى باريس، التي يمكن أن يرى فيها الفرنسي إعجاب مواطن بالحضارة والثقافة الفرنسيتين.

الفصول المختــارة :

لم أذكر هنا الأبحاث والمقالات التي كتبها محمد ابن الخوجة في المجلة الزيتونية أو في شمس الإسلام، والتي تم جمعها ونشرها على العموم في السنوات الأخيرة، من قبل كل من المرحومين حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحي،كما أشرنا سابقا، وفي رأيي إن الفصول كما يسميها ابن الخوجة والتي كتبها في عهد الشباب لا تقل قيمة وطرافة عن الأبحاث التي كتبها في شيخوخته.

ولئن كانت مطالعها تتناول أحداثا ظرفية تعد من وظائف الصحافة فإن الرجل كثيرا ما يتوجه إلى التاريخ، أوغالبا ما ينزع « إلى إحياء التاريخ التونسي، وتراجم المشاهير من التونسيين بأيسر مناسبة» على حد تعبير الفاضل ابن عاشور..

وسيرى القارئ في المقالات الموالية كيف يتوجه ابن الخوجة الى التاريخ، ومنه بالخصوص تاريخ تونس، في أغلب الفصول التي كتبها، وكأنه يتخذ الحدث السياسي ذريعة لتناول المسائل التاريخية، حتى ليمكن القول إنه لا يحسن الكتابة الا في فن التاريخ.

وعلى كل فالفصول التي تم اختيارها تتضمن :

1) كيف يفهم التاريخ، ودعوته إلى الاعتناء بتاريخ تونس؟

2) أحداث ووقائع تهم الوضع في تونس، وفي غيرها من بلدان العالم.

3) نماذج من فن الرحلة عند ابن الخوجة، أي رحلته الى باريس سنة 1900.

4) وفي باب التراجم ذكرنا مثالين على مساهمته في هذا الباب، وهما ترجمة لمحرز بن خلف، وأخرى لمحمد عبده.

المختــارات

1) كيف يقيّم التاريخ، ودعوته إلى الاعتناء بتاريخ تونس؟

2) أحداث ووقائع تهم الوضع في تونس، وفي غيرها من بلدان العالم.

3) نماذج من فن الرحلة عند ابن الخوجة، أي رحلته إلى باريس سنة 1900

4) وفي باب التراجم ذكرنا مثالين على مساهمته في هذا الباب، وهما ترجمة لمحرز بن خلف، وأخرى لمحمد عبده.

نـظـرة في التـــاريخ

لما وقف بونابرت أمام أهرام مصر في سنة 1213 [1] قال مخاطبا جيوشه العرمرمية : «إن أربعة آلاف سنة من أعالي هاته الأهرام الشامخات تنظركم» أي مشرئبة لمعرفة ما ستفعلون، قاصدا بذلك تشجيع قلوبهم، وتنشيط عزائمهم، ليفوزوا بالظفر والانتصار، فكان الذي يفهم من كلام هذا الرجل العظيم أن لمرور الأربعين قرنا على وجود تلك الأهرام عبرة ماضية، جاءت تلخص ما ستبدي الجيوش الفرنسية إذ ذاك بتلك الأصقاع.

ليس موضوع كلامنا الحديث عن أخبار نابليون الأول إذ أنّ ذلك أمر تكلفت [2] به التواريخ الإفرنجية، بل وحتى العربية أيضا، وإنما قصدنا الكلام على تاريخ البلاد التونسية، واستدلينا بعبارات نابليون، لنقيم الدليل على أن الماضي شاهد عدل على الحال، فنجعل من ذلك قياسا، لما أحببنا أن نتعاطى تفكيه حضرة القرأء به، سيما وقد وقفنا في هاته الأيام الأخيرة على كتاب خرج من الطبع، وهو الجزء الثاني من مجموعة المخاطبات الرسمية بين ملوك تونس، وملوك فرنسا يبتدي بعام 1700 مسيحية (1111 هـ) وينتهي بسنة 1770 م (1184 هـ) ولكن قبل أن نمخر خضم التواريخ التونسية نقدم كلاما للتعريف بالتأليف المشار إليه،

---

(1) 1213 /1798

(2) هكذا في الأصل والصواب تكفلت

ثم نأتي بكلام موجز في فضل التاريخ بالسند الصحيح عن العلماء الإسلاميين، فنقول: إن وزارة الخارجية رخصت لأحد أتباعها، وهو المسيو بلانتي من مشاهير الكتّاب أن يستخرج من أوراق الدولة الرسمية ما يهم المطالعين من مخاطبات ملوك تونس مع ملوك فرنسا منذ سنة 1500 م (961 هـ) إلى سنة 1830 م (1246 هـ) أي السنة التي افتتحت فيها فرنسا عمالة الجزائر، فجاء كتابا جامعا لعيون الوقائع وغرائب النصوص التي لا يتخللها ريب، بسبب أنها منقولة من حجج وأوراق لم تزل أعيانها محفوظة منذ المئين الغابرين، وقد رأينا أثناء مطالعتها من الأخبار ما حرك فينا تذكار المجد الذي كان لأسلافنا أمطر الله عليهم مواهب الرحمة القدسية كما شاهدنا أيضا استمرار العلائق الحسنة من قديم بين هاته المملكة والدولة الفرنسوية، فقد كانت رسل القطرين غادية رائحة طول السنة بين تونس وفرنسا، خصوصا على عهد الأمير على باشا ممدوح المؤرخ حمودة بن عبد العزيز [1]

ومما هو حري بالذكر هنا، سيما عند سنوح الفرصة، هو وقوفنا في تاريخ آخر فرنسوي على نص المعاهدة التي أمضيت في خمس ربيع الآخرسنة 669 [2] بين فيليب ابن الملك

---

(1) حكم علي باشا المملكة التونسية من سنة 1735 إلى سنة 1756 (راجع ابن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان ج2 ص 145 وما بعدها) أما حمودة بن عبد العزيز الكاتب والشاعر في عهد الباشا المذكور فقد توفي سنة 1787 (انظر ترجمته في الإتحاف ج 7 ص 22 24)

(2) 669/1270–1271 وقد أغرمت الحملة المستنصر بالله مالا اتفقوا

سان لويز [1] قتيل الوباء بقرطاجنة، وبين الملك المستنصر الحفصي [2] وهي معاهدة لم نقف عليها إلا بطريق الإشارة في التواريخ الإسلامية، وفيما كتب المؤلف أن النص العربي الموقع عليه بخط الأمير الحفصي لم يزل قائم الذات موجود العين، فيا عجبا لاعتنائهم، ويا عجبا لإهمالنا [3].

ولنرجع الآن للتنويه بشأن التاريخ فنقول: إن العلماء أجمعوا بالنقل عن عمدة الحفاظ السيوطي [4] أن أول من أمر

عليه على وجه الصلح (راجع حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ط تونس 1976 ص 131)

(1) غزا لويس التاسع ملك فرنسا تونس، وظاهره على هذا الغزو ملوك النصارى، ومنهم البابا، وكان تعداد الجيوش الفرنسية أربعين ألف مقاتل، نزل لويس المذكور بقرطاج، واستمرت الحرب بين المغيرين وبين الجيوش التونسية ستة أشهر، فشا مرض الوباء بتونس، فهلك بسببه خلق عظيم، ومن جملتهم الملك لويس (1270 م) فدفن بقرطاج، ثم عادت الجيوش الفرنسية من حيث أتت، بعد إمضاء معاهدة بين الطرفين (انظر ح ح عبد الوهاب في المرجع المذكور أعلاه ص 130 – 131)

(2) المستنصر بالله الحفصي خامس أمراء الدولة الحفصية، حكم من سنة 647/1249 حتى وفاته سنة 675/1276

(3) ذكر ابن أبي الضياف في تاريخه أن « عقد الصلح بالعربية معروف، ورأيته كما يقول بباريس دار سلطنة الفرنسيس»(الاتحاف ج 1 ص206) وأشار محقق هذا الجزء من الإتحاف المرحوم الشيخ محمد شمام في الهامش ع25 ص 206 إلى أن هذا العقد» محفوظ إلى الآن بوزارة الخارجية الفرنسية وهو بخط القاضي ابن زيتون(...) وابن زيتون هذا هو أبو القاسم اليمني مفتي إفريقية وقاضيها في مدة الأمير أبي زكريا الأول وابنه محمد المستنصر»

(4) جلال الدين السيوطي توفي 911/1505 عالم موسوعي كتب في اللغة كما كتب في الحديث والتفسير وبقية العلوم الدينية الأخرى.

بكتب التاريخ هو عمر رضي الله عنه سنة عشر للهجرة [1] وقال في سمط اللآل [2] أن من فوائد التاريخ واقعة رئيس الرؤساء مع اليهودي الذي أظهر كتابا فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بإسقاط الجزية عن أهل خيبر، وفيه شهادة بعض الصحابة رضوان الله عليهم، منهم علي ومعاوية وسعد بن معاذ، فعرضه على الحافظ أبي بكر بن الخطيب [3] فحكم بتزويره، محتجا بالتاريخ، لما أن معاوية أسلم عام الفتح، أي سنة ثمان، وفتح خيبر كان سنة سبع، وفيه شهادة سعد بن معاذ، وقد مات سعد يوم بني قريظة قبل خيبر بسنتين، ومثل هاته حادثة وقعت في سنة 1107 [4] لدى علي خوجة [5] باي قسنطينة، لما وفدت عليه طائفة اليهود بأيديهم رق عتيق به خط مضمونه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى لهم بمزايا ومنح إلى غير ذلك، وفيه شهادة عدد من الصحابة، منهم أبو بكر وعمر، وغيرهم رضي الله عنهم، وكان من جملتهم كعب الأحبار، فعرض

---

(1) نعم عمر بن الخطاب هو الذي أمر بكتابة التاريخ في مراسلاته إلى الولاة، ولكن ليس كما قال ابن الخوجة في السنة العاشرة للهجرة، وإنما كان ذلك يوم الأربعاء 20 جمادى الثانية الموافق 8 جويلية 638م أي بعد الهجرة بـ (17) سنة

(2) سمط اللآل فيما اشتمل عليه كتاب الشفا من الرجال للشيخ أبي عبد الله محمد بن علي المعروف بقويسم، والمتوفى بتونس 1114/ 1702وكتابه المذكور مخطوط، وتوجد نسخة منه بدار الكتب الوطنية بتونس

(3) أبو بكر بن الخطيب: لم أعثر على هذا الحافظ في تراجم حفاظ الحديث، ولا في الأعلام للزركلي

(4) 1107/ 1695

(5) علي خوجة: لم اعثر على ترجمته

هذا الرق على الشيخ أحمد برناز [1] فقال: قبح الله الكاذبين، أن فيه شهادة كعب الذي لم يسلم إلا في أيام عمر [2] فكيف قبل النبي شهادة غير مسلم، هذا أمر مستحيل، إلى غير ذلك من البراهين القاطعة والحجج الدامغة في فضل التاريخ الذي عبر عليه (؟) العلماء المنصفين (كذا) بقولهم : إنه من أعذب علوم الأدب منبعا، وأهناها مشربا، وأنورها مطلعا، وأحلاها من القلوب موقعا، لم تظل محاسنه تروق، وفوائده تفوق، وفرائده تشوق، وقالوا أيضا: إن التاريخ يفيد حزما وعزما وموعظة وعلما، وهمة تذهب هما، وبيانا يزيل وهنا ووهما، وقالوا: إن في أخبار الماضين عبرة لأولي البصائر، واستعدادا ليوم تبلى السرائر، وفي قوله تعالى: « وَلَقَدْ جَاءهُمْ مِنَ الأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِي النُّذُر» [3] وفي آية : « لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ » [4] ما يدل على أن للتاريخ شأنا وأي شأن، قال الشاعر:

ليسَ بإنسانٍ ولا شِبْهِهِ *** مَنْ لَمْ يَعِ التَّارِيخَ فِي صَدْرِهِ
ومن وَعَى أخبارَ مَنْ قَبْلِهِ *** أضافَ أعمارًا إلى عُمْرِهِ

إذا علمت ما للتاريخ من الاعتبار الزائد الذي يجعله عروس

---

(1) أحمد برناز (توفي1138/1726) عالم بالقراءات والنحووالحديث، من أصل تركي، أول قاض حنفي بتونس من مواليد البلاد (انظر محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين ط بيروت 1982 ج1 ص 122 وما بعدها)

(2) كعب الأحبار تابعي، من أقدم رواة الحديث النبوي، يهودي من اليمن، اعتنق الإسلام في عهد أبي بكر أو عمر، توفي في حمص سنة 32 هـ/ 652م.

(3) سورة القمر: 4

(4) سورة يوسف : 111

الفنون الأدبية تخلصت سريعا لاستطلاع أطوار هذا العلم الجليل، وخصصت حالا مطالعتك منه أولا لما يتعلق بوطنك مسقط رأسك، ومنبت آبائك، قبل أن تبحث فيه عن معرفة أخبار غيرك من الأقوام، إذ واجب المرء أن يعلم حال نفسه وعياله، قبل أن يشتغل بحال جاره، وما كنا مخطين سطرا في هذا الباب لولا أن قصدنا الحض على تعليم تاريخ هذه البلاد الذي لم نر له من أثر بين الجمهور والأفراد، وللإفصاح عما يختلج بفكرنا القاصر في هذا الموضوع، نصرّح بما في خلدنا، وهو أن فن التاريخ التونسي مفقود في الحال بالمرة من جامع الزيتونة، عمّره الله، ومن مدارسنا الأهلية، ولا نرى في ذلك من عذر سوى إهمال البعض وتقاعس الآخرين، وإلا فلا أحد يجهل أن التاريخ للإنسان كاللبن الذي تغذيه أمه به، مذ كان رضيعا، إذ بالتاريخ يعلم الإنسان مجد جنسه، وشماخة أصله، فيزداد حبا في وطنه من بين الأوطان.

ولقائل أن يقول إن حب الوطن حاسية غريزية تخلق مع الصبي في بطن أمه، بحيث إنه لما يشب يحب بلاده، كما يحب أبويه، ويستمر على ذلك حسب قاعدة الإنسان يشيب ويشوخ(؟) ويهرم ويموت، على ما شب عليه، فنجيب بأنا لا نسلم بذلك تماما، لما أنا شاهدنا بالبرهان أن معرفة الإنسان، ولو لتاريخ غيره تودع فيه حاسية احترام وولوع بجنس أهل ذلك التاريخ، حتى أن البعض ممن يجهل تاريخ بلاده يظن بل ويعتقد في بعض الأحيان أن لا مجد إلا لأهل التاريخ الذي يعرفه، بل ويترقى في سلم غلطه حتى يستنتج مما تعلم أنه وجنسه وبلاده من سقط المتاع، فتسلب عندئذ منه حاسية الغيرة الجنسية، والحمية الملية، وإذ ذاك يصير ضره لنفسه أقرب من نفعه إليها، بل وربما سرى منه ذلك الداء لغيره وهلم جرا.

فيا لله، كيف يصح، والحال تلك، أن تعليم فن التاريخ التونسي مفقود بجامع الزيتونة، وبالمدارس الأهلية، حالة كوننا نرى كتب تواريخ هاته البلاد وخصوصا بالألسن الأوروبية، تتساقط علينا من الصباح إلى المساء، بل وكيف اكتفى علماء الجامع مع طول باعهم، ومزيد اطلاعهم على الاقتصار على كتابين أو ثلاث في التاريخ، ألفت في القرون الوسطى، واحتوى عليها برنامج الدروس مع أنها صارت ضربا من أساطير الأولين، نعم أننا نستثني منها مقدمة ابن خلدون الصالحة لكل زمان، ولكنها تشغل بفلسفة التاريخ، وليس بتاريخ الوقائع، وعلى فرض صلوحية التواريخ العتيقة لأبناء هذا الزمان، فهل يصح لأحد أن يقرأ التاريخ العام، قبل تاريخ بلاده، فهو لعمري كمن يرغب في استطلاع معرفة أحوال الغير، ويجهل حال نفسه وبيته، تلك شامة سوداء تبقى في جبين الكليات العلمية التونسية، ما دام ما كان على ما كان.

أليس من المفيد أن يعرف الإنسان مثلا كم دولة تحكمت في هاته البلاد منذ الفتح الإسلامي، وبعد أن كان عمرانها يناهز الثماني عشرة مليونا على ملك قرطاجنة، ويعلم أن افتتاح المسلمين بالسيف الباتر كان في سنة 29 للهجرة على يد كاتب الوحي الشريف سيدنا عبد الله بن أبي سرح [1]

(1) عبد الله بن أبي سرح كاتب الوحي وأخ معاوية بن ابي سفيان من الرضاعة، توجه في خلافة عثمان مع جماعة من الصحابة اسمهم عبد الله (سمّوا العبادلة السبعة)، وهم: عبد الله بن أبي سرح، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن جعفر، وعبد الله بن عمر بن الخطاب،وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وتم فتح إفريقية سنة29/650 وكان عدد جيوش المسلمين عشرين ألفا من الصحابة والتابعين، وجيش جرجير يتكون من مائة ألف مقاتل (راجع حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة... مرجع مذكور ص 54 – 55).

ودامت تحت إمرة الصحابة والتابعين، ومن تبعهم، إلى أن تسلم أمرها المهلبيون في سنة 151هـ [1] ثم وليها بعدهم الأغالبة من سنة 181هـ [2] ثم جاء بعدهم العبيديون من سنة 297 [3] ثم آل أمرها لدولة صنهاجة من سنة 365 [4] ثم تسلم أزمّتها الحفصيون من 603هـ [5] ولما هزمت دولتهم وأفل نجمهم تغلب عليها الأسبانيول، فجاءها سنان باشا في سنة 981 هـ [6] وافتتحت عنوة في ظل حسام السلطان سليم الثاني [7] الذي قال فيه شيخ الاسلام بيرم الثاني [8] في قصيدة عقد الدر والمرجان :

وأحيا به الرحمان تونس عندما
غدت بعد عز شامخ في تحطم

ثم جاءت الدولة المرادية، ثم الدولة الحسينية، خلد الله

---

(1) 151 هـ/768 م

(2) 181هـ/798 م

(3) 297هـ/910 م

(4) 365 هـ/976 م

(5) 603 هـ/ 1207 م

(6) 981 هـ/ 1573 م

(7) سليم الثاني السلطان العثماني الحادي عشر (1566 - 1574)

(8) محمد بيرم الثاني (توفي1247/1831) ينتمي إلى أسرة علمية كبيرة، تولى الافتاء والقضاء، وله تآليف في العلوم الدينية، نظم عقد الدر والمرجان في سلاطين آل عثمان، وهي قصيدة طويلة، وجاء حفيده بيرم الرابع فأكمل هذه القصيدة بذكر السلاطين الذي جاءوا بعد جده (راجع محمد محفوظ تراجم ... ج1 ص177 181).

بقاءها، ما دام الدوران، تجر ذيل العدل والإحسان، وناهيك بواسطة عقدها الأمير العادل حمودة باشا [1] معاصر نابليون الأول [2] وكانت بينهما مخاطبات ودية، وقفنا على البعض منها، ولولا خوف الإطالة لنشرنا أنموذجا منها، إذ لا تخلو عن(؟) فائدة في نظر من يهمه معرفة تاريخ هذا القطر المحروس، وأخيرا فتح في وجوهنا عصر الحماية، وهو العصر العلوي [3] السعيد الذي نعيش فيه في ظل أميره الذي منّ الله علينا بوجوده، حيث أنام الأنام تحت راية إحسانه وجوده فيما لنا من الإخلاص نحو حكومة هذا العصر الجديد الذي طـرّز جبينه بمآثر المحامد والخير المزيد، نلتمس ممن أوكل الله إليهم مصلحة الجمهور أن يسعوا في إحياء ما اندرس مما لنا من المجد الشامخ الواضح الظهور، بتعليم التاريخ ليوضع في الصدور، وبذلك يقيموا لنا الدليل البالغ على اعتنائهم بهاته المنقبة، كما اعتنوا بغيرها من مهمات الأمور، وإلى الله المرجع وإليه النشور. [4]

---

(1) حمودة باشا، تولى العرش الحسيني سنة 1882حتى وفاته سنة 1814

(2) نابليون الأول امبراطور فرنسا (1804 – 1845) كانت له انتصارات باهرة في أوروبا،قاد حملة على مصر (1798 – 1899) مات منفيا في جزيرة سانت هيلانه.

(3) نسبة لعلي باي، تولى العرش الحسيني بعد وفاة الصادق باي سنة 1882 حتى سنة 1902 وإليه تنسب المدرسة العلوية الموجودة اليوم.

(4) الحاضرة عدد 355 بتاريخ 9 جويلية 1895.

المعاهدات التونسية :

قال تعالى: «وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا» [1] هذه الآية الكريمة تدل على أن للعهود اعتبارا زائدا بنص التنزيل، ولذلك كان خلفاء الإسلام منذ البعثة النبوية يلحظون بكمال المراعاة المعاهدات التي يعقدونها في مصلحة الملك والرعية.

وحيث إن أهم مسألة داخلية في الأوقات الحاضرة تتعلق بأحوال هذا القطر المحروس هي مسألة المعاهدات السياسية التجارية التي تربط هاته المملكة بدول أوروبا فقد أحببنا هاته المرة أن نكتب فصلا بهذا الخصوص، نجئ فيه على أصل المعاهدات في الإسلام عموما، وفي تونس خصوصا، حتى يتبين لحضرة القراء ما هو العبء الثقيل الذي تحمله هذه البلاد من وقر تلك المعاهدات في مقابلة المنافع الزهيدة التي يمكن أن تستخرجها من غضونها، وإليك تلخيص ذلك بالنقل عن أوراق تاريخية صحيحة لا يتخللها ريب البتة، فنقول: إن أول معاهدة أمضيت في الإسلام مع غير المسلمين كانت في شهر ذي القعدة سنة ست للهجرة، وتعرف بعمرة الحديبية، وقع الاتفاق عليها بين النبي صلى الله عليه وسلم، وبين سهيل بن عمرو سفير قريش إثر واقعة مشهورة في تاريخ حياة هذا الشارع الهادي مؤسس هذا الدين القويم، ومنها سنت المعاهدات عند المسلمين [2]

ثم استمر خلفاء الإسلام والملوك من أهل العدل والإنصاف

---

(1) الإسراء:34

(2) راجع عن عمرة الحديبية السيرة النبوية لابن هشام تحقيق مصطفى السقا(بالاشتراك) ط مصر(د ت) ق2 ص 308.

على العمل بتلك السنة القويمة، كلما اضطروا لوجوب مصلحة شرعية، عائدة بالنفع على المسلمين، إلى أن جاءت الحروب الصليبية، وحشدت الملل النصرانية لافتكاك بيت المقدس من أيدي المسلمين، ففي ذلك العهد أي في مبادئ المائة السابعة للهجرة ابتدأت أمم الإفرنج في ربط علائق مع المسلمين، وهي علائق اتسع نطاقها بعد ذلك بقليل مراعاة لجانب المسيحيين، وجبرا لخاطرهم بعد افتتاح المسلمين بحسامهم الباتر في عام 857 هـ [1] للقسطنطينية العظمى التي هي دار الخلافة الإسلامية في التاريخ، وبذلك خولت الدولة العلية العثمانية تخويلا رسميا لرعاياها المسيحيين مباشرة مذهبهم، وتأسيس معابد لديانتهم، وأولت عليهم أسقفا بأمر سلطاني، ومنحتهم جميع ما كان لهم من الامتيازات والعوائد قبل الفتح الإسلامي، ودام الحال على ذلك المنهج المستقيم الذي مبناه المصلحة الشرعية، إلى أن آل حكم فرنسا للملك فرنسوا الأول [2] وفي ذلك العصر استجاه [3] الملك المذكور بالسلطان سليمان الثاني [4] ليمده بالخيل والرجال حيث

---

(1) 857 هـ / 1453 م

(2) فرنسوا الأول حكم فرنسا من 1515– 1547 كان عدوا للإمبراطور شارلكان (أوشارل الخامس) ملك إسبانيا وإمبراطور ألمانيا من 1515 إلى 1556.

(3) لعلها من الجاه، وهو المنزلة والقدر، وتدل حسب السياق أن ملك فرنسا طلب مساعدة الخليفة العثماني للاستعانة به على خصمه

(4) سليمان الثاني (هكذا) والصواب سليمان الأول القانوني، عاشر السلاطين العثمانيين (1520 - 1566) لقبه الأتراك بالقانوني، والإفرنج بالعظيم، قاد بنفسه ثلاثة عشر حملة في أوروبا وآسيا، دون القوانين والشرائع، أوثق عرى الصداقة بين الباب العالي ودول أوروبا، ووقع مع فرنسوا الأول ملك فرنسا المذكور معاهدة الامتيازات الأجنبية.

كان ملكه على شرف الاضمحلال، بسبب تغلب شارلكان عليه، وتحالف مع الدولة العلية محالفة بقيت آثارها الودية إلى هذا العهد بين الدولتين العثمانية والفرنسوية، وبتلك المناسبة حصل الملك المذكور على خط شريف سلطاني مؤرخ بعام 942 هـ [1] في تقرير المنح التي لعموم النصارى، وفي جعل أسلوب خاص لمحاكمتهم، وأن لهم حق التعبد، وتعظيم شعائرهم، إلى غير ذلك من الامتيازات المعروفة اليوم بعالم السياسة باسم (الكبتلاسيون)[2] والتي هي لهذا العهد أعظم عثرة في سبيل تقدم البلاد الشرقية، فازداد ارتباط النصارى بالمسلمين، وصار ملوك فرنسا خلفا عن سلف يطلبون توسيع منطقة المنح المعطاة للمسيحيين ببلاد العثمانيين والدولة، توافقهم في البعض الذي لا يمس بناموس الهيئة الإسلامية، وتخالفهم في الباقي، وصارت من ذلك العهد تعتبر حكومة فرنسا صاحبة حماية اعتقادية لم تزل مقررة حتى الآن.

ولذلك العهد كانت إيالة تونس مرتبطة ارتباطا واثق العرى بممالك أوروبا الجنوبية لقربها منها، وعلى الأخص بفرنسا، حيث إنها استحصلت من حفصيها المستنصر بالله [3] في

---

(1) 1535/942 وخط شريف سلطاني تركية، وتعني إعطاء حقوق للنصارى في المجال الديني والاقتصادي وغيرهما

(2) الكبتالسيون (le regime des capitulations) أي نظام الامتيازات الأجنبية، وفيها استسلام وخضوع وتنازل عن السيادة لفائدة الأجانب المقيمين بالبلدان العربية والإسلامية

(3) حكم المستنصر بالله الحفصي من سنة 647 إلى 675 هـ/ 1249 - 1276 م.

5 ربيع الآخر سنة 669 [1] على معاهدة في حماية النصارى، وفي تخويلهم حق التجارة، ومباشرة شعائرهم، ولم نقف في كتب التاريخ على نص معاهدة قبل المذكورة سوى الكلام بالإشارة على المواصلات التجارية التي كانت بين مرسيليا وتونس، وعلى شروط التزم بها ملك صقلية [2] لعبد المؤمن بن علي [3] في سنة الأخماس، ثم شروط أخرى عقدت في نحو عام 630 [4] مع بيزة [5] في تخويل أهلها منحة صيد المرجان بمياه تونس، واستمرت فرنسا والإمارات التي تتركب منها اليوم مملكة إيطاليا على تجديد العلائق، وربط الروابط التجارية والبحرية مع أمراء تونس، سيما لحماية متاجرهم وسفنهم من قرصان البحر إلى سنة 1517 مسيحية.

في 28 مايه من هاته السنة زاد الملك هانري الثالث [6] في إحكام مواصلاته التجارية مع تونس، فعين لذلك قنصلا

---

(1) ربيع الآخر سنة 669 / نوفمبر- ديسمبر1270

(2) ملك صقلية روجار الثاني(1093 - 1154) انظر ح ح عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس ط تونس 1976 ص 118ص 119.

(3) عبد المؤمن بن علي مؤسس الدولة الموحدية التي امتد نفوذها من برقة شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، وتجاوزه إلى الأندلس، توفي 558/ 1163 بمدينة سلا بالمغرب الأقصى.

(4) 1232/630

(5) بيزة (Pise) مدينة إيطالية في مقاطعة توسكانا، انظر عنها محمد السنوسي: الرحلة الحجازية تحقيق علي الشنوفي ط الشركة التونسية للتوزيع 1396/ 1976 ج 1 ص 241 وما بعدها.

(6) هنري الثالث ملك فرنسا (1574 - 1589)

بالحاضرة، وهو أول قنصل رسمي فرنساوي سمي بها، ولكن مع ذلك فإن شوكة الإسلام بشمال أفريقيا كانت يومئذ سائدة، وكانت لهم سطوة ترتعد منها فرائص الجبابرة، ونوتية المسيحيين، لا تجري فلكهم إلا في منطقة مقيدة محدودة، ومهما دفعها سوء البخت إلى دواخل البحر المتوسط إلا وطاف عليها طائف من ربك [1]

ولما اشتدت وطأة المسلمين في البحر، وصاروا يأخذون كل سفينة غصبا[2] كانت إذ ذاك مملكة تونس في قبضة آل عثمان، فرفعت الإفرنج بلسان دو بريف سفير هانري الرابع ملك فرنسا [3] شكواهم للسلطان مراد الثالث [4] فأصدر فرمانا عاليا في إدخال الامتيازات المعروفة (بالكبتلسيون) لمملكة تونس، وكان ذلك في حدود عام 1015 هجرية[5] ومن هذا التاريخ انحاز رعايا الإفرنج عن الأحكام الإسلامية في بعض القضايا سيما الحقوق الشخصية، وأخذت تلك الامتيازات تتفرع يوما فيوما إلى أن أصبحت الحكومة التونسية مدى القرن الثاني عشر مغلولة اليد، كما سترى ذلك.

وبعد أن بلغت سلطة المسلمين بالبحر في المائتين التاسعة والعاشرة إلى حد كاد أن لا يقبله العقل أخذت قواهم إثر

---

(1) اقتباس من القرآن: «فَطَافَ عَلَيْهَاطَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ» (القلم : 19)

(2) اقتباس من قوله تعالى: «وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا»(الكهف : 79)

(3) هنري الرابع ملك فرنسا (1589- 1610)

(4) مراد الثالث سلطان عثماني حكم من سنة 1574 حتى1595

(5) 1015/ 1606

ذلك في الانحطاط والتقهقر، بسبب الحروب الداخلية التي لم تخمد نارها، فكان شمال أفريقيا في المائة الحادية عشرة يلتهب التهابا جهنميا، واندثر العلم وأهله، وصارت رؤوس برءاء(؟) الناس وكبرائهم تتناثر بسيوف الأغراض وخناجر الآباء في بطون الأبناء، والفتنة ضاربة بين الأخ وأخيه:

إِذَا تَمَّ شَيْءٌ بَدَا نَقْصُهُ *** تَرقَّبْ زَوَالاً إِذَا قِيلَ تَمَّ

وبينما الإسلام بالبلاد البربرية يسير القهقرى ابتدأت أوروبا في خلع ربقة الخمول، والخروج من تحت الدعة والسكون، وظهرت بملك جديد يبتغي الفتوح والانتقام فتسابقت لغرس اسمها بتونس، وما أن تم القرن الحادي عشر للهجرة حتى كانت المملكة التونسية مرتبطة بعهود تجارية مع كل من فرنسا وانكلترا وهولاندة ودول إيطاليا وإسبانيا والسويد والنمسا والدنمارك والبرتغال وأمريكا، وكل من هاته المعاهدات تشترط قطع دابر قرصان البحر.

ولما استلم آل حسين، خلد الله ملكهم، مقاليد المملكة كانت إذ ذاك حالتها إلى الخراب واليأس، أقرب منها إلى العمران والرجاء، وكانت أوروبا عهدئذ متدرجة في معارج السطوة والشبيبة، فما كان في الإمكان إلا الانحدار مع تيار الحوادث، والدهر يوم لك ويوم عليك، واستمر الحال كما ذكر، إلى أن صار الإفرنج متقدمين بمراحل على المسلمين، وساد عندهم سلطان العلم، فبرزت من أكمته المخترعات النافعة بتقوية أفكار بني الإنسان، مع كده وجده قال الشاعر:

لاَ تَحْـرِزِ المَـرْءُ أَحْجَـاءَ البِـلاَدِ وَلاَ

تَبْنِـي لَـهُ في السَّمَـاواتِ السَّـلاَلِـمُ

من ذلك العهد صار لأوروبا سمعة بأفريقيا الشمالية، وصارت أساطيلها الضخمة تتظاهر بمياهها، لتأييد مطالب رعاياها طورا بمدافعها، وآونة بلسان قناصلها، ومن تصفح التواريخ رأى من ذلك العجب العجاب، ودامت تلك الأحوال إلى سنة 1245 [1].

اعتبارا من هاته السنة التي ابتدأت فيها فرنسا فتح الجزائر دخلت الحكومة التونسية في طور جديد كما حقق المؤرخون وصارت مجبولة بطبيعة الجوار على الالتحام بأوروبا، فتساهل ملوكها في عقد معاهدات أوسع نطاقا من المتقدمة، وأعطت بها المنح المعقولة وغير المعقولة، حتى أصبحت تجارتها الأهلية في حيز العدم، وتمكنت إيطاليا وانكلترا والنمسا بالموارد الحياتية التي كان يقتات منها أهالي هذه البلاد، فجددوا معاهداتهم مع الحكومة التونسية، بما يلائم مصالحهم السياسية والتجارية، فانكلترا أمضت أولا معاهدة في 16 ربيع الآخر سنة 1280 [2] ثم أخرى أبدية في 16 جمادى الثانية سنة 1292 [3] تبعت بذلك دولة النمسا التي عقدت قبلها معاهدة لا غاية لها في غرة جمادى الأولى سنة 1272 [4] وهذه المعاهدة هي الحائلة في هذا اليوم بين الحكومة التونسية، وبين إحياء صناعة الشاشية، ونهضت بعدهما إيطاليا فحصلت على عهدة

---

(1) 1245/ 1830

(2) 1280/ 1863

(3) 1292/ 1873

(4) 1272/ 1855

تجارية في جمادى الأولى 1285 [1] وهي العهدة التي يحل أجل نقضها في الشهر القابل [2] كما أشرنا لذلك في العدد الفارط [3] وزيادة على الشروط والمعاهدات المقررة أعلاه التزمت الحكومة بمناسبة عهد الأمان في سنة 1276 [4] بتقرير جميع الحقوق والمنح والامتيازات التي للأوروبيين بالمملكة التونسية. ومعلوم أن عهد الأمان أسس اقتداء بالتنظيمات الخيرية [5] التي كلل بها السلطان عبد المجيد [6] جبين ممالكه الشرقية.

ومن أجل ذلك تشبثت أوروبا بما لها من المنح والحقوق التاريخية، وأثقلت بطلباتها كاهل البلاد، فتنفست منها الصعداء إلى سنة 1298 وهي السنة التي أمضيت فيها

---

(1) 1285/1868

(2) سبتمبر 1896 يشير إلى المعاهدة التي أبرمها الباي مع إيطاليا، والتي بمقتضاها تخول الدولة التونسية امتيازات سياسية واقتصادية وثقافية لإيطاليا لمدة ثلاثين سنة، وقد بدأت سنة 1868 وأبطل العمل بها سنة 1896 وبإلغائها تبخرت آمال الإيطاليين في الاستحواذ على تونس، إذ يعتبر هؤلاء القوم أنهم أولى بالاستيلاء عليها بحكم التاريخ والجوار

(3) أي الحاضرة ع 361 بتاريخ 20 أوت 1896

(4) 1276/1859

(5) التنظيمات الخيرية: الإصلاحات التي قامت بها الخلافة العثمانية وحاولت تعميمها بجميع الولايات التابعة لها، ابتداء من سنة 1839 حتى سنة 1876 وذلك بإيعاز من الدول الأوروبية

(6) السلطان العثماني عبد المجيد (1839 – 1861) أصدر خطي شريف وخطي هومايون، أجرى إصلاحات إدارية هامة

معاهدة باردو(12 مايه 1881) ودخلت بمقتضاها المملكة التونسية تحت الحماية الفرنسوية.

ومن هذا التاريخ رفع برقع السلطة الأجنبية، وأخرجت تونس من تحت نير العبودية الأوروبية، بما مدت لها فرنسا من يد المساعدة والإسعاف، بما انحصر في قبضتها من النفوذ السياسي، حتى أمكن لحكومة تونس اليوم أن تطلب بلسان الدولة الحامية نقض المعاهدة الطليانية، بل وقد رأينا في بعض الجرائد المعتبرة أن الحكومة الفخيمة الجمهورية سعيا وراء توسيع نطاق التجارة بين فرنسا وتونس ستأخذ تدابير جدية لنقض المعاهدة الإنكليزية، فليكن مسموحا لنا بهاته المناسبة أن نستعطف من مراحم حكومتنا المحروسة أن تنظر أيضا في أسباب نقض المعاهدة النمساوية، حتى يتسنى إحياء بعض الصنائع التونسية، وعلى الأخص منها صناعة الشاشية، فيعود بذلك إلى التجارة الأهلية رونقها القديم، وتنطق الألسن بشكر المنعم والثناء على مسلكه القويم، هذا ما أمكن جمعه من أخبار المعاهدات «وفوق كل ذي علم عليم» [1].

فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا :

إن افتتاح دار الوزير ابن إسماعيل مستشفى لليهود بالحاضرة التونسية من يوم سابع عشر مارس الفارط [2] حرك فينا داعي الحمية الجنسية والغيرة الجبلية الغريزية

---

(1) الحاضرة ع 362 بتاريخ 27 أوت 1896

(2) أي 17 مارس 1895

بما أدانا لنفث ما اختلج في صدرنا، ولو بصفة فلسفية، ولا نقصد بذلك إظهار قنوط حصل لنا عن انقلاب هيئة تلك الدار التي كانت مقرا رسميا للحكومة التونسية على عهد الدولة المرادية، وفي صدر العائلة الحسَينية، كما أنا لا نعني أيضا إظهار ضجر ما، أو تسجيل على ما صارت إليه تلك الدار الباشية، سيما وأن انقلابها مستشفى فيه مصلحة لبعض الهيئة البشرية،وعلى الأخص كون الأمور تجري ببحار الإرادة القدسية، ولكن قصدنا إقامة برهان جديد لحضرة القراء، ولمن يهمهم تتبع حركة أحوال هاته البلاد قديما وحديثا، على أن البيوت بل والبلاد أيضا لها كما للأشخاص طور عز تسعد فيه، وطور شقاء تنقلب إليه، سنة الله في أرضه:

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى البِلاَدِ رَأَيْتَهَا
تَشْقَى كَمَا تَشْقَى العِبَادُ وَتَسْعَدُ

تسلم ابن إسماعيل أمر هاته البلاد، وهو لا يميز بين السقيم من الصيب، ولا الخبيث من الطيب، فانحدر مع تيار الظلم والأعتساف، كمن يتخبطه الشيطان، في عصر شرب أهله خمرة الاستبداد، وأمسوا ثملا بها، حتى فاجأهم الظلام، فهلك الخاص والعام، ولكن في ذلك الوقت الذي أشبه ما يكون بالفوضى جاء ما هو أحزم منا [1] وتدارك الأمر بما هو أرضى، فأمن القوم على العرض والدين والمال، وذاك ما يتمنى من أكابر الرجال، فدارت أمور الرعية حسب نظامات

---

(1) يقصد محمد خزندار(1810 ـ1889) الذي تولى عدة مناصب وزارية كان آخرها الوزارة الكبرى (1881–1883) راجع محمد السنوسي: الرحلة الحجازية ج2 ص118

مرعية، وهي وإن كانت ليست في منتهى الكمال، إلا أن ذلك أثّر كثيرا في جانب مقتضى الحال.

إذا تقرر ذلك نقول : إن الظلم مهما كان مصدره مدمر، والعدل مهما كان مورده معمر، وما ذلك إلا لما ستراه من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة التي توضح بحجة التاريخ أسباب التقدم ومسببات السقوط، وكل ارتقاء يعقبه ولله الكمال هبوط، ولولا حصول الحادث الذي افتتحنا به هذا الفصل لما تعرضنا قط إلى هذه المحادثة التي نسجت عليها عناكب النسيان، وذهبت في خبر كان، ولذلك نقول: إنه إذا أردت أن تنظر إلى درجة أي مملكة في ميدان الحضارة عليك بمطالعة رتبتها في مضمار العدل الذي هو ميزان الله في الأرض، إذ به تسير سفينة التوفيق في بحار الأمان، ويكتسب به الإنسان من مواهب التنوير المادي ملكة جديدة ينظر بها على فعل الخير، وبعكسه من توغلت سفينته في جنوب الجهالات، وصارت تمخر خضم بحار الظلم فتهوي به في مهاوي الغرور والضلالات، وهذا القسم أكثر عددا من الأول، إذ أن الإنسان مجبول بالطبع على حب الظلم:

والظُلمُ مِنْ شِيَمِ النُّفُوسِ فَإنْ تَجِدْ *** ذَا عِفَّـةٍ فَلِعِلَّـةٍ لاَ يَظْلِمُ

وفي آية : « وهديناه النجدين» [1] ما يقيم لنا الدليل القاطع والحجة الدامغة على صحة ذلك، سيما إذا ترك الإنسان وشأنه، وأهمل في مرعى عوائده، ولم تهذبه التجارب والاقتداء بالدين الذي هو للاعتصام من الضلالات الأساس المتين،

---

(1) البلد: 10

ولم يؤت على مملكة الإسلام وانغماسها في بحر القهقرى إلا بنبذ كبرائها للوازع الديني، والناس على دين كبرائهم، بل ولاستحواذ أقويائها وعبثهم واستخفافهم بضعفائها، وتسلطهم عليهم بدون ما أنزل الله به من سلطان، وبما أن النفس تكره الانضغاط، وتسأم من التسلط بدون حكم شرعي، أو قانون مرعي، لما في ذلك من سلب الحرية التي أودعها الله فيها، ينقلب حالها إلى أسوإ الحالات، والإنسان إذا فقد حرية العمل والفكر يتكاسل حتى عن شبع بطنه، وري كبده، ويصير عاجزا بالرغم على أنفه عن كل حركة، فيضطغن على وليه، ويتربص به الدوائر، ووبال ذلك عائد على الجميع.

تلك السياسة التي أوجبت الهوان على معاشر التونسيين نحو خمسين سنة في القرن الماضي، وهي سياسة أسرع إلى الزوال منها إلى البقاء بسبب مجاورة هاته المملكة للعناصر الأوروبية التي تتقدم كل يوم فرسخا في مضمار التمدن والفنون، وقد انتبه في ذلك الزمن لتلك الحال إمام شعراء عصره المفتي المرحوم أبو الثناء محمود قابادو، فقال:

لِذَاكَ تَرَى مُلْكَ الإفْرَنْـجِ مُؤثَّلاً
بِعِلْمٍ عَلَـى الأيَّـامِ يَمْتَـدُّ يَمُّـهُ
ومملكـةُ الإسـلام يَقْلُصُ ظِلُّهَا
وَيَنْقُصُ من أطرافِها ما يَضَمُّهُ

ولم تتقدم ممالك أوروبا، وتترك البلاد الإسلامية خلفها بمراحل إلا بإسداء العدل، وإقامة النكير على الظلم وأهله، إلى أن أبرزوا من أكمة التمدن الأزهار الأزاهر، واستخرجوا من أصداف العلوم مكنونات الجواهر، وما

كفاهم ذلك حتى نصبوا مجالس الشورى للنظر في مصالح دنياهم، فكان لسان حالهم يقول للمسلمين: ها نحن قد اقتطفنا بكل رغبة ثمرة ما فرطتم أنتم فيه، وصرنا لا نعمل عملا إلا بعد المشاورة، لنتخذ من المجد ركنا، ونتحكم فيكم بما نشاء، ونسود عليكم، وفيما نشر ذلك الجرنال المحلي الذي لم يتلعثم بأن قال: إن أحقر أروباوي أو نحوه سيد لسراة هاته الديار ما يكفي لاعتبار ما تقدم.

والحق يقال: إن الأروباويين في بلادهم دونّوا الشرائع، وعملوا بها، بخلاف المسلمين الذين نبذوا كتابهم المحكم ظهريا، وأهملوا سياستهم الشرعية العادلة التي تخرج الحق من الظالم، وترفع كثيرا من المظالم وتدفع أهل الفساد، ويتوصل بها إلى المقاصد العالية والمدارك السامية، حتى تضيء على البلاد، وينتفع بها انتفاع الغيث المدرار في الأزمات، لكن أين من يقدر على امتطاء صهوتها، إذ بابها الآن ضيق، تضل فيه الأفهام، وتزل فيه الأقدام، فلا وربك لن يتمكن أحد من إحياء ما انطفأ من ذلك النور الباهر، «حتى يلج الجمل في سم الخياط» [1].

وفي كتب السياسة الشرعية أن السياسة المدنية هي التي تدور على إقامة المصالح بكف الاسترسال في اتباع الشهوات النفسانية، وانغماس القبيل في اللذات، ومن أعظم الأدلة على صحة هذه السياسة في استقامة أمر الممالك واستبحار عمرانها، واتساع نطاق ثروتها، وتشييد أركانها قوله تعالى:

---

(1) الأعراف: 40

« وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون» [1] أي لا يهلكهم لمجرد عدم إيمانهم إذ كانوا مصلحين، يعاملون بعضهم على الصلاح والسداد.

ومن أسباب تأخر البلاد التونسية أيضا في العهود الخوالي، زيادة على إهمال وزرائها إعراضهم عن معنى العلوم ومسمياتها لكونهم كانوا إلى الجهالة أقرب منها إلى المعرفة، نعم أن الليالي أولدت من بينهم ذلك الوزير العالم والحاكم العادل خير الدين باشا التونسي، إلا أن نفوذ من عداه طمس وجه الحق وتعداه، وإن كان من سعى في إبعاده لم يبلغ منتهى مراده، ولو كان ترقي الأفكار هنا بمعشار ما بالديار الأروبارية، وكان للتونسيين غيرة كما لغيرهم من الأجناس، ولا توجد غيرة بدون تواريخ مدونة لاطلعوا من بين صفحات التواريخ التونسية التي لا تلبث أن تضمحل باضمحلال من تنقل عنهم شفاها في هذا الزمن على سياسة الوزير ابن إسماعيل مثلا، ولأمكنهم بواسطة تلك التواريخ أن يجعلوا قياسا بينه وبين المرحوم خير الدين باشا، عماد الدولة وذروة سنامها، فيجدوا محققا أن الأخير أصلح وعمر، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى، وأن الأول أفسد وخرب ودمر، فلا يلبث عاجلا أو آجلا أن تزل به القدم حيثما هو، فتهوي به الريح في مكان سحيق [2]

فأين الواحد من الآخر لولا اجتماعهما في لقب الوزارة، وإلا فبينهما بون بعيد، قال الشاعر:

---

(1) الصواب : «وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ» (هود : 117)

(2) اقتباس من القرآن، ونص الآية : «فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ»(الحج: 31)

وللزنبور والبازي جميعا *** لدى الطيران أجنحة وخفق

ولكن بين ما يصطاد باز *** وما يصطاده الزنبور فرق

وقد أفاد التاريخ أيضا أن لكل وزير من المآثر التي تبرزها الأيام من بعده ما يشعر بما كان يغلب على طبع ذلك الوزير في زمن تصرفه، ولا حاجة لنا أن ترتقي سلم الوزارات أكثر من خمسين سنة لنقيم ما يزيد على أربعة أدلة في هذا الغرض، إذ المقام لا يقتضي كثرة التطويل الذي تكرهه بعض النفوس، وفيه سر عجيب على مطابقة أخلاق أولئك الوزراء للحالة التي توجد الآن عليها بيوتهم في التاريخ، فمثال ذلك أن الوزير ابن إسماعيل على ما في رسالة حررت بالعربية في نابولي متناسل من يهودية، فكان في انقلاب بيته مستشفى إسرائيلي تناسب كلي، واقتران أصلي.

كما أن الوزير خير الدين باشا الذي انفطر وجبل على إسداء العدل، والقبض على راية الإنصاف بساعد قوي نرى داره بعد خروجها عن حوزته قد أصبحت محكمة عدلية، لإنصاف المظلومين، وكبح جماح الظالمين، ففي هذا دليل آخر على التناسب الذي يجمعه العدل بين الوزير المشار إليه وبين حالة بيته في التاريخ.

وهذا الوزير حسين [1] باشا المتوفى بإيطاليا المشهور

---

(1) الوزير حسين (؟ -1887) شركسي، قدم إلى تونس وهو صغير، فتربى في قصر حسين باشا باي، تتلمذ على الأستاذ قابادو في المدرسة الحربية بباردو وعلى بيرم الخامس، تقلد عدة مناصب في الدولة منها رئاسة المجلس البلدي ووزارة الخارجية والشورى والمعارف، صحب خير الدين في سفره إلى باريس لتمثيل تونس في نازلة محمود بن عياد، وإلى أيطاليا في قضية نسيم شمامة، جرد في عهد الحماية من مناصبه، وبقي في إيطاليا حتى وفاته.

بغيرته على العساكر الإسلامية، وحب انتصارهم في ميادين الوغى، وأعظم شاهد له على ذلك إعانته للجنود العثمانية زمن حربها مع الروسيا بمال جزيل من رزقه الخاص، وبتعقيبه لأملاكه المحبسة على جيوش الإسلام برهان آخر على التناسب القطعي بين ما كان يختلج بين أضلعه من الإحساسات الوطنية وغيرته وذبه على حوزة الملة الإسلامية، وبين الهيئة المحترمة المحتلة لداره في التاريخ.

وفي صيرورة دار الوزير مصطفى خزندار [1] مكتبا دوليا إيطاليا ما يشعر بما كان لهذا الوزير الذي ما أجدر وزارته أن تدون في كتاب على حدة من حسن علائقه زمن تصرفه مع دولة إيطاليا، وترجيح سياسة العنصر الطلياني بتونس على غيره.

كما أن في انقلاب دار الوزير محمد خزندار مسكنا للسادة الأشراف ما يدل على ما كان لذلك الرجل النصوح من المحبة المتعارفة التي لا تكيف (؟) في آل البيت، حتى أن ملحده كان جوارهم، ونعم الجوار، وليقس ما لم يقل.

فتحصل مما تقرر أن الممالك الإسلامية عموما، والمملكة التونسية خصوصا لم يؤت عليها إلا من سوء إدارة متصرفيها

---

(1) مصطفى خزندار(1817 - 1878)من أصل يوناني، جيء به إلى تونس وهو صغير السن إلى البلاط الحسيني، تولى عدة مناصب، فمن وزير العمالة(أي الداخلية) إلى وزير أكبر، وبقي في الحكم ستا وثلاثين سنة، وبسبب تبذيره، وإرضاء شهوات سيده، أصيبت الدولة بالإفلاس، فلجأ إلى الاقتراض من البنوك الأجنبية، مما أدى بتونس إلى الكارثة.

وزيغهم عن سواء السبيل، وكان السلف الصالح يهتز أعظم اهتزاز لأدنى شيء مخالف للقواعد الشرعية خوف التورط في ربقة الظلم، وفي قصة تلك المرأة التي اشترى منها الفاروق الخليفة الثاني، وناهيك به من إمام عادل ظلامتها بشهادة علي وابنه عبد الله بن عمر رضوان الله عليهم ما يكفي لاعتبار ما كان عليه أوائلنا من حب العدل والانتماء إليه، ولقد كان العلماء إذا جبرهم الوقت لتحمل مظلمة يتحرون فيها وينتخبون منها من هي أخف ضرا حيث إنهم يراعون قول عمر بن عبد العزيز من أنه تحدث للناس أقضية.

ومما يؤيد ذلك ما وقفنا عليه بمقدمة ابن خلدون من أن القاضي بفاس لعهد السلطان أبي سعيد وهو الفقيه أبو الحسن المليلي [1] عرض عليه أن يختار بعض المجابي لجرايته، فأطرق مليا، ثم قال له: من مكس الخمر، فضحك الحاضرون من أصحابه، وعجبوا وسألوه عن حكمة ذلك، فقال: إذا كانت الجبايات كلها حراما، فأختار منها ما لا تتابعه نفس معطيه، والخمر قل أن يبذل فيها أحد ماله إلا وهو طرب مسرور بوجدانه، غير آسف عليه (ولا متعلقة به نفسه) [2] فتأمل واعتبر.

نحمد الله تعالى على بزوغ شمس العدل والعرفان التي أشرقت اليوم في سماء الممالك بعد انغماسها في مدلهمات الظلام الحالك، ونشكره على ما أنعم به في هذا العصر العلوي السعيد، الموسوم بالعدل والخير المزيد،

(1) أبو الحسن المليلي: لم أعثر على ترجمته في المصادر المتوفرة لدي

(2) ما بين قوسين زيادة من المقدمة ط 3 دار الكتاب اللبناني بيروت 1967 ص 709 (فصل في الاحتكار)

على هذا البلد بإخراجه من ربقة الحضيض والسفالة، إلى أسمى درجات العز والعدالة، في كنف أميره المولى الجليل، واسطة عقد الملوك، الذين أضاءت مآثره الغر ضياء الشمس عند الدلوك، لا زالت الأقدار تحمي دولته من نوائب الأيام، وتهيئ له من أسباب السعادة أقصى المرام، سيما لما اشتهر به من الرأفة والحنان على عبيده الصادقين، وتبعته الطائعين، الذين لا غاية لهم سوى التعلق بأذيال العدل الذي أرخى عليهم في مدته سدوله، فأصبحوا إليه مرتاحين، وإلى الله أحسن الشاكرين.

والآن نختم الكلام في هذا الباب، تاركين الحكم في صحة ما قلنا لذوي الألباب، ولتدعيم ما دار عليه الكلام في هذا الغرض النفيس نحتج بحكمة اليوناني أرسطاطاليس [1] وبه ينتهي المقال، ولله المرجع في سائر الأحوال، قال الحكيم اليوناني في دائرته : «إن الرعية عبيد، يتعبدهم العدل، والعدل ميزان به قوام العالم» [2].

النصرانيـــة والإســـلام :

هـذا مطلع مقـالـة نشرتهـا صحيفـة ليكليـر [3] الفرنسوية احتـــوت على عبـارات حكـى فيها القس هيا

(1) أرسطاطاليس أو أرسطو فيلسوف يوناني (384 – 322 قبل الميلاد) من كبار الفلاسفة، ومعلم الأسكندر الأكبر، ومؤسس المدرسة المشائية في الفلسفة، من مؤلفاته (كتاب ما بعد الطبيعة) و(الخطابة) و(المقولات) وغيرها

(2) الحاضرة ع 342 بتاريخ 2 أفريل 1895

(3) L'éclair

سانت لوازون [1] ما يختلج بفكره بخصوص ديانة الإسلام، وهي أفكار كثيرا ما صرح بها في خطبه العديدة التي ألقاها بالجزائر ووهران وتلمسان، وكانت لها رنة عظمى بأجواف المعابد النصرانية، وفيما روت الجريدة المشار إليها، أنه لم يعهد إلى التاريخ بعالم الرهبانية من تمحضت حرية ضميره إلى غاية ما بلغ إليه القس المومأ إليه، حيث إنه بنى إيمانه على العقيدة الآتية، وهي قوله: إني راهب متمحض للنصرانية، والاعتقاد في المسيح، ولا أرى أني مخل بالأدب معه إذ اعترف أن محمدا (عليه الصلاة والسلام) نبيّ بعث للعرب، لأني أرى أن تأسيسه لتلك الديانة العظمى الإسلامية لم يكن إلا بوحي إلهي، وإلا ما آمن به مئات الملايين من المخلوقات بكل صقع وفج عميق.

فإن بونابرت الذي كان من الشهامة العسكرية بمكان

(1) اهتمت الصحافة العربية في تونس، ومنها جريدة الحاضرة بنشاط هذا الراهب وما ألقاه من خطب في بلدان شمال إفريقيا ومنها تونس، قصد من ورائها التقارب بين المسيحيين والمسلمين، بخلاف الكردينال لا فيجري الذي كان يناوئ الإسلام والمسلمين، ويرى إنّه لا بد من تنصيرهم أو التنكيل بهم، وقد رأى جماعة الحاضرة في هذا التقارب الذي يدعو إليه القس لوازون إنصافا للإسلام والمسلمين، إذ سيؤدي شيئا فشيئا إلى المشاركة في الحكم والإدارة والتعليم، انظر:

- فرنسا والإسلام الحاضرة: ع 408 بتاريخ 28 جويلية 1896
- موالاة الإسلام ع 436 بتاريخ 9 فيفري 1897
- لا يعدم الإسلام منصفا للمستشرق هوداس ع 635 بتاريخ 9 فيفري 1901
- وشارك عبد العزيز الثعالبي الاحتفاء بمواقف هذا القس في جريدته سبيل الرشاد ع 3 بتاريخ 29 ديسمبر 1895

وقد نشرت المجلة الزيتونية (المجلد الخامس ص 225) شهادة القس لوازون بصحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم.

وراجع بحثنا: الحاضرة ص 172

حتى أنه رأى نفسه أحيانا في منزلة الأنبياء، قال ضمن خطابه الشهير الذي ألقاه بمصر: إن الفرنسويين ما أجدرهم بالإسلام، لما رأى في ذلك من أنه يمكننا التشبث بالديانة الإسلامية، مع بقائنا على الفطرة النصرانية، بل ولنقدر بذلك الديانة المسيحية حق قدرها، أي بأحسن مما عرفناها إلى هذا العهد، ولو تسمح الأقدار باتحاد فرنسا اتحادا سياسيا مع الممالك الإسلامية يمكن الحصول على قوة عسكرية ترتعد منها فرائص الدنيا، كما أنه باتحاد الإنجيل مع القرآن يضيء على عالم الأرواح نور «يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار» [1] وقد فاه الأمير الخطير عبد القادر الحسيني [2] الذي قاتل الفرنسويين، ثم أخلص الود إليهم بعبارات قال فيها: « لو أن المسلمين والنصارى وجهوا إليّ أسماعهم لحسمت مادة اختلافهم، ولوفقت بينهم جميعا، ولكنهم بصدد (؟) عن ذلك، لأنه سبق في أزل الله أن لا يتحدوا في شيء «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا» [3] ولكن سيزول من بينهم الشقاق يوم ينزل عيسى إلى الدنيا».

وبما أننا نحن إخوان النصرانية نعتقد أيضا في نزول المسيح، ولكن لا ندري متى يكون ذلك، ولا كيف يكون، نرى

---

(1) النور:43

(2) الأمير عبد القادر الجزائري الحسيني (1808–1883) ولد بالجزائر وتوفي بدمشق، حارب الفرنسيين في الجزائر (1832 – 1847) ثم صالحهم، نقل رفاته إلى الجزائر (1966).

(3) مقتبس من قوله تعالى: «أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا» (الرعد:31)

من إدراك أسرار المسيحية التي هي نور وإيمان أن يبث ما انطوت عليه في الصدور بإخلاص وسلام يقضي تجددهما بإصلاح ذات البين بين إخوة تشاحنوا منذ أحقاب، وليس الآن في طاعتهما العفو وكظم الغيظ، ولنكن بعد ذلك مسيحيين على قواعد الإسلام، ومسلمين كما جاء في الإنجيل» (حرره الراهب هيا سانت لوازون)

هذا نص الخطاب الذي ردده لسان الرهبانية ببطون كنائس الجزائر، وضرب صداه بمسامع محرر جريدة ليكلير، ونحن مع عدم التعمق في هاته المسألة للخوض فيها من جهة الميل الصراح الذي أبانه هذا الراهب القريب من محجة الهداية، ولا غرابة في ذلك: إذ أمره بشرنا به القرآن المجيد في قوله تعالى: «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ»[1]

وما من أحد تصفح كتب السير، وتراجم العلماء إلا وعثر غير ما مرة على اهتداء القس الفلاني، واعتناق الراهب الفلاني للديانة السمحاء المحمدية، ومن تتبع أخبار مناظراتهم مع أئمتنا وفقهائنا يرى العجب العجاب من أمرهم، ومن مباحثاتهم التي تنتهي إما بإسلامهم، أو بالاعتراف بصحة هذا الدين القويم، ولا أورد من ذلك هنا سوى كلام بطريق الاقتصار على ثلاثة من تلك المناظرات إحداها كانت في صدر الإسلام (؟) بين الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان[2]

(1) المائدة: 82

(2) صاحب المذهب المعروف توفي سنة 150/ 767

رضي الله عنه، وأحد قسوس بلاده، والثانية في عصر الإمام فخر الدين الرازي [1] وقعت بينه وبين أحد الرهبان بخوارزم، وكان موضوع المجادلة بينهما قوله تعالى: « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم»(الآية) [2] والثالثة وهي أشهر من «قفا نبك» [3] وقعت ببلد أكبر أباد في رجب سنة 1270 هـ بين الشيخ رحمة الله الهندي [4] والراهب فندور [5] وهي التي دعت لتصنيف كتاب (إظهار الحق) المشهور الذي أداه إلى الفرنسوية بترجمة جليلة أحد أفاضل علماء الإفرنج بهمة الوزير الخطير خير الدين باشا التونسي.

تأييدا لما تقدم أثبت السواحون الثقات أن الإسلام انتشر بدواخل إفريقيا مدى النصف الثاني من القرن الفارط، بصفة تشخص لها الأبصار: إذ زاد في أهله ما ينوف عن ستين مليونا من الزنوج، اعتنقوه طوع أنفسهم، بدون دعوة ولا مبعوثين، وأن كلا من أولئك السواحين على

(1) فخر الدين الرازي (توفي 606/ 1509) فقيه ومحدث ومفسر له تفسير (مفاتيح الغيب) المشهور بالتفسير الكبير.

(2) نص الآية: «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوا نَدْعُو أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلَ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ» (آل عمران:61) وتسمى آية المباهلة.

(3) قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل البيت الأول من معلقة امرئ القيس.

(4) رحمة الله بن خليل الهندي (توفي 1888) نزيل الحرمين، باحث عالم بالدين والمناظرة، جاور بمكة وتوفي بها، من كتبه (إظهار الحق) في جرأين في مجلد.

(5) انظر : مقدمة (إظهار الحق) دار الجيل بيروت 1408 / 1988

اختلاف أجناسهم ومشاربهم اندهشوا لما رأوا من النتائج التهذيبية التي أدخلها الإسلام على الأقوام الذين اتخذوه دينا، حالة كون من بقي منهم أو من جاورهم على الوثنية مغموسون في ظلمات الجهل، بعيدون عن التمدن، ضرهم لأنفسهم أقرب من نفعهم إليهـا، لا يرون الضوء إلا من سم الخياط.

لما قام الكردينال لافيجري [1] المطران الذي ملأ ذكره المعمور خطيبا بعواصم أوروبا ينادي على منع الرقيق، بعناية من سموا أنفسهم نصراء الإنسانية، قال ضمن كلام له: «إن التقدم السريع الذي يجره يوميا ذيل الإسلام، بالأمم السذج الإفريقية صار يخشى معه على راحة الشعوب الضاربة بشاطئ بحر الروم، سيما يوم تخول الأقدار أولئك الأمم التي تدخل أفواجا في الملة المحمدية من يرشدها إلى طريق التقدمات الحقيقية بجمع أشتاتها، وتوحيد عصبتها فالأمان الأمان».

هذا ما بقي بمحفوظنا مع طول العهد من كلام ذلك المطران الحازم الذي خدم جنسه خدمة زميله لفنكسطون [2] للجنس الإنجليزي، حتى قضى نحبه بمدلهمات الصحاري الإفريقية.

---

(1) الكاردينال لافيجري (1825 - 1892) رجل دين فرنسي، كون قرية للأطفال المسلمين في الجزائر، قصد تنصيرهم، ولكن مشروعه باء بالفشل، كون الآباء البيض 1868، أنعم عليه بابا زمانه (ليون الثاني عشر) بولاية دينية على جميع كنائس إفريقيا، ورئيس أساقفة قرطاج

(2) لفنكسطون من رهبان الإنجليز أقام سنين عديدة بأواسط إفريقيا، وجال بها شرقا وغربا، ثم انقطعت أخباره، راجع البشير صفر: مقالات في الإصلاح، تقديم وتعليق علي العريبي ط تونس 2004 ص 151

ليت شعري لماذا لم تنتبه مملكة الإسلام عندما كانت في ميسرة بإرسال الدعاة إلى الأقطار الهمجية، والبلاد المتوحشة لبثّ دين الله فيهم، وتخريجهم من ربقة الحضيض إلى مدارج السعادة، ومدارج العز بأسهل ما يكون من طرق الإرشاد التي يقبلونها،بمجرد عرضها عليهم، إذ نراهم اليوم يدخلون من عنديتهم بدون واسطة في دين الله أفواجا أفواجا، ومن البلية والعار في وجه المسلمين المستقلين إلى هذا العهد إغضاء الطرف عن هذه الطريق، سيما في الممالك المجاورة لشعوب هم الآن يهيمون في أودية الضلالة والعناء، بل وفي بحار العذاب الأليم نرى الممالك الأوروبية، وناهيك بالبلجيك صغرا بينها تزاحم في هذا الميدان، وتستهلك الأموال الذريعة لحماية قسيسيها بالبلاد البعيدة، حتى ضرب رهبانها بتخوم سد [1] الصين في آسيا، وببحيرة نينزه بدواخل القارة الإفريقية، وذلك لمجرد تنصير العباد.

أما الدول العظمى الأوروباوية، وحرصها في هذا الشأن، فحدث عن البحر ولا حرج، ونحن بقينا من وراء وراء.

لما افتتحت فرنسا على عهد ملكها كارلوس العاشر [2] بلاد الجزائر عرضت حكومتها مع شروط على مملكة تونس أن تلتحق عمالة وهران [3] فبادر باي العصر، وهو الأمير

---

(1) لعله يقصد سور الصين

(2) هو شارل العاشر ملك فرنسا من سنة 1824 حتى 1830 في عهده احتلت الجزائر، أطاحت به ثورة 1830 ومات في المنفى.

(3) انظر تفاصيل هذا لاتفاق وفشله في إتحاف أهل الزمان ج3 ص 225 – 228.

العادل حسين باشا [1] قدس سره بإرسال وفد تحت رئاسة الوزير خيرالدين كاهية [2] لتنفيذ غرض الاتفاق، فلم يقرن مسعى الوفد التونسي بنجاح، ورجع صفر اليدين، وكان سبب ذلك التشتت الذي أدى إلى خروج قطر الجزائر عن حوزة الممالك الإسلامية، وقس على ذلك تسلط الهولنديين على مملكة أجيم بجزر يافا، بعد أن استنجدوا بالسلطنة العلية العثمانية، ومثل ذلك منع الإنجليز للحكومة الخديوية من الاستيلاء على بلاد الزنجبار، فلا يسعنا يومئذ إلا الترثي [3] (؟) لحالنا بقول الشاعر المجيد:

إِذَا لَـمْ يَكُنْ مِنَ اللهِ عَـوْنٌ لِلْفَتَـى
فَأَوَّلُ مَـا يَجْنِي عَلَيْـهِ اجْتِهَـادُهُ

في صدر الإسلام افتتح المسلمون بسيفهم الباتر في ظرف ثمانين سنة ما افتتحه الرومان في مدة ثمانمائة عام، ولكن لم يلبثوا أن دخل الشيطان بينهم، وألقى بذر الفتنة في شرقهم، فتعطلت حركة دولاب فتوحاتهم نوعا ما، ولكن في ذلك الوقت نهض الأمويون، وأسسوا سلطنة الأندلس التي أبهرت عيون العالم بتمدنها، فخرج من جزيرتهم نور ساطع يغشي الأبصار، أضاء فيما بين المغرب والشرق نحو ستمائة عام.

---

(1) حسين باشا باي، تولى العرش الحسيني 1824 حتى 1835

(2) مملوك أتي به إلى البلاط الحسيني من بلاد القرج، وتدرّج في الخطط إلى أن أصبح كاهية بدار الباشا، توفي 1272/1855 انظر عنه ابن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان ج 8 ص 98 – 99

(3) هكذا والأَصْوبُ هو «الرثاء».

لما أفل نجمهم تشتت ملكهم، وذهبوا أدراج الرياح، فتفرقوا في البلاد، يحكون تيه بني إسرائيل في العهود الخوالي، وحل الأسبانيول مكانهم، ولكن بالرغم عن ذلك أبى الله إلا أن يتم نوره، فأظهر بالشرق حسام آل عثمان، فكان لتجريدهم إياه قعقعة اضطربت لها مياه الطونة، وسكن رعبها في القلوب نحوا من خمسمائة عام.

في ذلك الزمن كانت أوروبا على ما حكاه العالم الوزير دوروي [1] «تائهة في غياهب الجهل، سابحة في أبحر الظلمات، ولكن لم تلبث أن تشعشعت بعرصاتها أنوار المعارف إثر دماء أهرقوها، لنيل حريتهم، وقطع دابر استبداد ملوكهم، حتى أدركوا اليوم المنزلة السامية، والدرجة العالية، فكانت لهم بذلك السيادة المطلقة على غالب وجه المعمور، سيادة توارثوها عنا، ونحن توارثناها عمن كان قبلنا، والله يرث الأرض ومن عليها» [2].

التعريف بالحماية السياسية :

مضت السنون ونحن نسمع في كل يوم التعاريف المتناقضة لمعنى الحماية، فمن قائل إنها وسيلة تمهيدية للإلحاق، ومن قائل إنها طريقة غير صالحة منذرة بالخسران، ومن قائل إنها أحسن طرق التعمير، وبث المدنية بين الأقوام، ومن ومن [3]

---

(1) فكتور دوروي (Victor Duruy) (1811 – 1894) مؤرخ ووزير فرنسي له: تاريخ القرون الوسطى منذ سقوط الإمبراطورية الغربية إلى منتصف القرن التاسع عشر، وخصص بعض فصوله لحضارة العرب

(2) الحاضرة ع 343 بتاريخ 9 أفريل 1895.

(3) تناول أيضا هذا الموضوع علي بوشوشه بعد أكثر من عشر سنوات

يَوْمًا بِحَذْوَى وَيَوْمًا بِالعَقِيقِ
وَبِالْحُدَيْبِ يَوْمًا وَيَوْمًا بِالْخُلَيْصَاءِ

ونحن تلقاء تلك الأقوال جانحين إلى الصمت، والصمت حكيم، لا تهزنا تمويهات المغرضين، ولا تفجعنا نفثات المصدورين، موكلين أمرنا إلى الأقدار، ثم إلى من بيدهم مقاليد الأمور، مرتاحين لما تنطق به ألسنتهم أحيانا بما يمحق بذور الزور التي يبثها المغرضون الذين لا يرضون بأية حالة، كم يشتهي الشتاء في زمن الصيف، حتى إذا جاءه أنكره، وهلم جرا.

وكلما دنونا من النظر في معنى الحماية التي كانت من يوم انتشارها على هذا القطر سببا في رفعه من وهدة السقوط

على مقال ابن الخوجة في افتتاحية بعنوان : «الحماية بمعانيها» فقال في المقدمة: ليس معنى الحماية اليوم في عرف علماء البشر والباحثين في نواميس العمران أن تصب الدولة أو الدول ذات السطوة والجاه والجبروت سيادتها، وتنشر سيطرتها على شعب أو قطر أداه ضعفه أو وهنه أو خموده إلى الوقوع في مهاوي السقوط، ودرك الانحطاط، وأفضى به غروره وجهله إلى التعاسة السياسية، وفقد نعمة الاستقلال والحرية، مما هو مصداق الحماية السياسية» (الحاضرة ع 988 بتاريخ 7 جويلية 1908) وراجع أيضا لصاحب هذا الكتاب دراسة بعنوان: مفهوم الحماية عند جماعة الحاضرة نشرت في المجلة الصادقية ع22 أفريل 2001 ص 34 وما بعدها، وقد تبين من خلال الوثائق التي اكتشفت أخيرا أن الاحتلال قام بتركيز مؤسساته، وتدعيم أركانه، حتى يسهل عليه حكم البلاد، ويتسنى لمعمريه الهيمنة على أراضي الشمال والوسط هيمنة كاملة تحت مظلة ما يسمى بالحماية التي بها «تحصل فرنسا على كل ما يلزم لضمان الاستغلال السريع، والتعمير المناسب للبلاد، وبها تربح بتحريك المصالح الخاصة ود الأهالي الذين ستخمد عصبيتهم» كما يقول الكردينال لافيجري (ذكره علي المحجوبي: انتصاب الحماية الفرنسية بتونس ط تونس 1986 ص 163).

إلا وتأخرنا عن ذلك خوف الخطإ في فهم مغزاها، وإن كانت أصولها الإجمالية لدينا معلومة، وطالما صرح بها نواب الدولة العظمى الجمهورية، ولا نشك لحظة واحدة في أنها أصبحت أي الحماية لهذا العهد خير طريقة لفلاح هذا القطر المحروس، وإننا لا نبتغي الخروج عن نهجها المتكفل بالإنصاف والرفق والمساواة وبث المعارف والعلوم وإيقاظ الأفكار من سنة الغفلة والخوف.

وبمعرفتنا لهاته الحقائق التي شاهدناها بالعيان فهمنا بعض أسرار الحماية، وها أننا وقفنا أخيرا على مقالة في الغرض، بلغت من الفصاحة مشتهاها خطها قلم رجل شهير، هو من الخبرة السياسية بمكان، ونعني به المسيو هانوطو [1] وزير خارجية فرنسا الذي نصب الحماية الفرنسوية على مدغشكر، وكانت مسألة هاته الجزيرة على ما قيل سببا في استقالته من خطته المنيفة، وكان تحريره لهذا الفصل الذي جعل عنوانه العنوان الذي اتخذناه لمقالتنا هاته إيضاحا وشرحا لأعماله بخصوص تلك المسألة المهمة، وحيث إن كلام هذا الوزير بخصوص مدغشكر، وبدخولها تحت الحماية الفرنسوية بمقتضى معاهدة طنانريف ينطبق بالحرف الواحد على المملكة التونسية، ونصب الحماية الفرنسوية

---

(1) غبريال هانوطو (G Hanotau) (1853 – 1944) مدرس التاريخ في معهد الدراسات العليا بباريس، تولى وزارة الخارجية من سنة 1894 حتى سنة 1898 وله موقف مناهض للإسلام والمسلمين، وقد تكفل بالرد على مزاعمه الأستاذ الإمام محمد عبده في الأعمال الكاملة تحقيق محمد عمارة الجزء الثالث : الرد على هانوتو، الإسلام والمسلمون والاستعمار ص 201 وما بعدها ط بيروت 1976.

عليها، بموجب معاهدة باردو، رأينا من الفائدة نقل ذلك، ليكن معلوما ومفهوما لدى حضرات القراء معنى الحماية وأصولها ومنافعها ونتائجها حتى يدرك كل ما له وما عليه.

عرف الوزير منهج الحماية بقوله: إنه تنازل بل رفق من طرف الغالب عند انتصاره، وأنها أي الحماية لا غاية لها، بل أن وطأتها تكون على نسبة الأتعاب الحربية التي كان في مقدور الدولة الغالبة أن تصل بها إلى غزو البلاد، ثم قال: إن الحماية لا حد لها، لأنه ليس هنالك أولا قاض يقضي بين الغالب والمغلوب، فيما عسى أن يحدث بينهما من الخلاف في فهم معناها، وثانيا لأن قوة المغلوب اضمحلت وانعدمت بسبب احتلال الغالب احتلالا مستمرًا للبلاد، بعد تجريده للمغلوب من سلاحه الذي بسواه لا تطير شرارة الحرب من جديد أبدا، فتحصل من ذلك أن أنواع الحماية تتعدد وتختلف بتعدد واختلاف البلاد المحمية.

ثم قال:إن تنفيذ أحكام الحماية ينبغي أن يكون من الرفق واللين أوفر حظا للشعوب المحمية على اختلافها، فيفهم من كلام الوزير أن أساليب الحماية ربما تتعدد وتختلف في القطر الواحد، ولذلك قال جنابه: إنه ليس للحماية عبارة شديدة اللهجة، أو قاعدة عويصة التطبيق، بل أنها أي الحماية تختلف باختلاف الزمان والظروف، وتظهر آثارها بالأعمال أكثر منها بالأقوال، وهذا أمر واضح لأننا نرى مثلا أن أسلوب الحماية التي نصبت في أكتوبر الفارط على مدغشكر أشد وطأة من الحماية الأولى التي منحتها فرنسا لتلك الجزيرة نفسها في عام 1885 فالحماية الحالية خولت لفرنسا حق النظر والمراقبة على جميع الأعمال الإدارية والمالية والعسكرية

بالجزيرة، بل وقد خولتها حق التوسط بين ملكة البلاد والدول الأروباوية في علائقها السياسية، كما خولتها أيضا نصب وزير مقيم لتشريع القوانين، وسن التراتيب، وهي تصرفات فيما يرى مسيو هانوطو لا يتم أمرها للحكومة الحامية إلا بإظهار سلطتها، كما فعلت فرنسا أخيرا.

ثم تخلص الوزير للكلام على نتائج ما تقدم، فقال: بما أن معنى الحماية هو ما تقرر، فلا ينبغي للدولة الغالبة أن تدع سفينة الحماية تجري في تيار الظفر بما يؤول لضياعها، واتقاء من الوقوع في هذا المحذور برهن المسيو هانوطو عما يلزم اتخاذه من الوسائل لذلك، وحصره في أمرين: أولهما المحافظة والذب عن الحكومة الأهلية، بمعنى أن الدولة الغالبة لا تغير أساسات الدولة المغلوبة، بل وتسعى بكلّ جهدها لمدّ يد الإسعاف إليها، لتحصل على خضوع الرعايا، وثانيهما التزام الحكومة الحامية، وكتبها على نفسها احترام شعائر الأهالي وعوائدهم وديانتهم وهيئتهم الاجتماعية التي وجدتهم عليها، وتطرح قطعيا مادة الانتقام والاضطهاد واستغلال العباد والأرزاق بأي طريقة كانت، بل تتخذ من وسائل الرفق واللين والعدل ما تخفف به عبء الفتح الثقيل على عاتق الأهالي الذين تكفلت بحمايتهم حتى يؤول أمرهم إلى الاعتقاد بأن الحماية هي الصالحة بهم صلوحية مرضية، بمعنى أن الهيئة الحاكمة يقع حصرها في ذوات أهلية، تحت رعاية مراقبتنا، على أن أولئك الذوات الذين هم رؤوس الأهالي أمرهم بأيدينا، وولايتهم تقع حسب مشيئتنا، وإذا فلا محل من الإعراب للعدول عن هذه الطريقة، بل نعد السعي في إفساد النظامات الأهلية وتعويضها بأساس ربما

كان عقيما ضرب من الجنون، ومن اعتقد غير هذا وسعى فيه فقد سعى في إخلال النظام، وإعلاء راية الفوضى والخلل بمكان ساد فيه من زمان سلطان الراحة والنظام.

كيف لا وعمالة الجزائر التي مضت عليها ستون سنة، ونيران الحرب والفتنة تلتهب فيها، لم نعرف إلى الآن ما هي الهيئة الصالحة بها لتقرير سلطتنا [1] وفي تونس لم تمر علينا سوى خمسة عشر عاما حتى تحققت سعادتها، وساد فيها سلطان الأمن، ولم يحدث بها ما يكدر راحة أهاليها، بل ولم تطلق بها عساكرنا عيارا واحدا ناريا، أو تهرق بين جدرانها قطرة من دم.

ثم قال الوزير: ولقائل أن يقول: ما هي الفائدة التي تعود من ذلك على الدولة الحامية، وجوابه: أن منفعة الدولة من ذلك لا ينبغي أن تعد دنانيرا كمن يشتغل عقارا، أو أن المستعمرات جعلت كضيعة، تستنزف الدولة منها منافع نقدية في آخر كل عام، بل أن منفعة الدولة من مستعمراتها أجل وأسمى من ذلك، ألا وهي بث لغتها ونفوذها واسمها وأخلاقها في البلاد، وهي غاية شأوها بعيد، تعمر بها الدولة زمنا مديدا، وزيادة على ذلك فقد ثبت أن الأهلي بالمستعمرات عون مساعد على نجاح الأعمال في الاستقبال، أفلم نر الجزائريين يمدون فرنسا

---

(1) وقع ضم الجزائر إلى الوطن الفرنسي، باعتبارها بلدا مفتوحا واحتل بالقوة، وكانت تابعة لوزارة الداخلية، في حين كانت تونس تابعة لوزارة الخارجية، وكلا البلدين تحت الراية الفرنسية الاستعمارية، إلا أن فرنسا كانت تعامل تونس في الظاهر معاملة لا تخلو من الرفق واللين، وبهذه السياسة نالت اقتصاديا وثقافيا ما لم تنله بالضم والعسف ومحو العادات واللغة والثقافة، كما فعلت في الجزائر

في حربها السبعينية [1] بأنفسهم، وهل أحد ينكر أن التعمير بالرفق يؤاخي بين العنصر الحامي والعنصر الأهلي.

وختم بقوله : «هذه حقيقة معنى الحماية، وكنه منافعها الأصلية، وهي لا محالة ليس بها من السحر والأسرار ما يقلب أعيان الأقطار التي نحكمها بل لا بدّ من مرور الأيام، وتكرر السنين لإدراك هذا السر المكنون ببث قوة التمدن ونشر لواء نتائجه الخيرية في سائر الأقطار» [2].

خـــزائن الـــكتب :

تلك الواسطة العظمى للتحفظ على كتاب الله الكريم، وأحاديث نبيه المختار، بل الوسيلة الوحيدة الجامعة لمهمات المسائل، وغرر التحريرات المتكفلة بحفظها من تلاعب الأزمان.

أنبأ التاريخ أن الاعتناء بحفظ الكتب متعارف من قديم، فقد ثبت أن اليوناني بيزستات (؟) صاحب الحكيم صولون [3] القانوني أسس خزانة الكتب بأثينا، جمع أشعار هومير [4]

(1) يقصد حرب سنة 1870 بين فرنسا وألمانيا حول مسألة الألزاس واللوران، فقد استولت الجيوش الألمانية على العاصمة باريس(1870) وفرض بسمارك عليها غرامة ثقيلة، واستولت ألمانيا على مقاطعتي الألزاس واللورين، وأسرت جيوش ألمانيا إمبراطور فرنسا، فأعلن الفرنسيون خلعه، وأعلنوا الجمهورية الثالثة.

(2) الحاضرة ع 387 بتاريخ 25 فيفري 1896.

(3) صولون مشرع أثينا، وأحد الحكماء السبعة في اليونان (640 – 558 ق م)

(4) هومير أو هوميروس (ق9 قبل الميلاد) شاعر ملحمي يوناني تنسب

الشهير في حدود سنة 1162 قبل الهجرة إلا أن هذه المكتبة لم تأخذ من الشهرة ما حصلت عليه خزانة ملك مصر بطوليمي صولير الأول [1] التي أحدثها بثغر الإسكندرية سنة 915 قبل الهجرة، وبعد حين من الدهر أضيفت إليها خزانة الملك أومين الثاني [2] بما ارتقى به عدد مجلداتها إلى مائتي ألف مجلد، وهاته الخزانة هي التي نسب بعض مؤرخي الإفرنج حرقها للفاتح عمرو بن العاص [3]، وزعموا أن ذلك كان بإذن من الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الشوري رضوان الله عليه، وحيث إن هاته الدعوى من أكبر غلطاتهم التاريخية المتعددة التي لو أردنا ذكر بعضها ما وسعته أعمدة صحيفتنا، حيث يلزم للرد عليها كلاما تاريخيا مطولا، وإليك راموزا منها قصة أبي سعيد الباجي التونسي [4] الذي روى بعض محرري العصر أنه هو نفس لويز التاسع ملك فرنسا الذي غزا تونس على عهد أبي عبد الله محمد المستنصر الحفصي ومات على

له الإلياذة والأوديسة، وللملحمتين تأثير كبير في الأدب اليوناني خاصة والأدب العالمي عامة.

(1) بطليموس المخلص (360 – 283 ق م) من قواد الإسكندر الأكبر، وحاكم مصر بعد موته، ثم ملكها، مؤسس أسرة البطالسة، جعل الإسكندرية عاصمته، وأسس فيها خزانة للكتب.

(2) أومين الثاني (نحو197 – 159 ق م) ملك برغاما وحليف الرومان

(3) عمرو بن العاص (توفي 65 / 684) قائد عربي إسلامي شهير، انتصر على البيزنطيين في اجنادين (فلسطين) فتح مصر، وألحق بالأعداء هزيمة ساحقة، احتل الإسكندرية، حاكم مصر، بنى الفسطاط.

(4) أبو سعيد الباجي، ولي صالح مدفون في الضاحية التي تسمى باسمه، وكان معاصرا لأبي الحسن الشاذلي (571 – 656 هـ) إذ توفي الباجي سنة 628هـ (كما قال ابن الخوجة).

ربوات قرطاجنة بالموضع الشهير باسمه في العاشر من محرم سنة 668 (هـ) مع أن أبا سعيد انتقل قبله بأربعين سنة، إذ كانت وفاته في 16 شعبان سنة 628 على عهد أبي المستنصر المذكور الأمير أبي زكريا بن عبد الواحد [1] إلى غير ذلك من قصة باطلة يطول شرحها.

من أجل ذلك كان من الواجب تكذيب من دلس على ابن العاص، ونسبه إلى تلك الفعلة الموحشة بقوله: «إنه أذن بها أن تحرق أي كتب الإسكندرية، وتحمى بها حماماتها ففعل، وكانت نيرانها تضطرم مدة ستة أشهر» فهذا كلام زيف ردّه بعض أكابر مؤرخي الفرنسويين بسندات مهمة، منها أن تلك الفعلة الشنعاء مخالفة لديانة المسلمين، وأخص من ذلك لسيرة العرب الذين كان لهم في صدر الإسلام حرص تام على بث المعارف والتقدمات في معارج الكمالات، وكفى بذلك حجة ما حرروه، وبقي أثره لهذا اليوم، ولقد اعترف به العلامة صاحب كتاب (حضارة العرب) وغيره من الإفرنج المنصفين.

إذا علمت ذلك، وتحققت صحة نقله اضرب الحائط بكلام من دلس على المسلمين بحرقهم كتب الإسكندرية، إذ أنا نجد بتواريخ الإفرنج أنفسهم أن العرب أسسوا في صدر الإسلام خزانة مهمة بعين الإسكندرية، وأخرى بالقاهرة احتوت على مليون وستمائة ألف مجلد، ولم تحرم باقي مدنهم من الكتب أيضا: إذ كانت لبغداد وطرابلس الشام وفاس خزائن بقي ذكرها مخلدا في بطون التواريخ لهذا اليوم.

---

(1) أبو زكريا بن عبد الواحد من الذين أسسوا أركان الدولة الحفصية توفي 647 / 1249

أما مكتباتهم بجزيرة الأندلس فقد بلغت السبعين، أهمها خزانة قرطبة التي تجاوزت الأربعمائة ألف مجلد، كلها لعبت بها نيران الأسبانيول لما استولوا على الجزيرة، وما بقي أوكلوا أمره لقسيسيهم، فخافوا انتشار درره، وبذلك يظهر لدى الشعب عجزهم وتدجيلهم، فدمروه تدميرا.

هذا ملخص الكلام على مجامع الكتب في الأعصر الخالية، وبقي التعريف بحالتها اليوم: إذ للأمم الآن مزيد اعتناء بحفظها من التلف، أو التمزيق،أو اعتداء السوس عليها، فإن بالخزانة العمومية التي أسست سنة 1350 بباريز دار العلوم ما ينوف على المليوني مجلد، وبخزانة أخرى بها مليون كتاب، كلها على غاية من النظافة وصحة الأوراق، لا يعثر القارئ فيها على غبار يعطسه، أو نقب سوس يريه الضوء من بين الصفحات، وبخزانة لندرة المؤسسة عام 1753 مليون مجلد في سائر العلوم، دينية ودنياوية، وبخزائن برلين نحو الخمسة ملايين من الكتب، فضلا عما بمدائنها، وبرومة ستمائة ألف مجلد بالخزانة التي أسسها أمانويل الثاني سنة 1876 وبصان بطرسبورغ إحدى عشرة مائة ألف كتاب، وبمدينة كوبنهاج عاصمة الدنمارك ثمانمائة ألف مجلد بالخزانة المؤسسة عام 1550 ومن جملة كتب هاته الخزانة مصحف كريم، خطته يد إسلامية في القرن الأول للهجرة. كل ذلك نقله العلامة شفروي الطبيعي الفرنساوي، ولسلطان الصين خزانة هائلة، يُجْهَل إحصاء ما بها، وفيها من الكتب العتيقة شيء عظيم، حيث إن تواريخ كتبهم من حوالي أربع وثمانين ألف سنة فيما نقلوا.

على أن الدولة العثمانية لها أيضا خزائن كثيرة معتبرة،

وولعها بالاعتناء بحال الكتب مبسوط في التواريخ من قديم، فإن السلطـان أبـا الفتح محمد خـان لما أخذ الأستـانـة سنة 857 [1] أمر بالتحفظ على ما وجد بها من كتب اليزنتيين، ووضعها بداره، وبقي لها أثر لهذا العهد.

أما سبب وفرة أعداد الكتب التي بخزائن أوروبا، فأصله المطبعة التي اعتبرها البارع مزمر [2] الفرنسوي أول خطوة مشتها أوروبا نحو التمدن والعمران.

إذا تقرر ذلك ثبت لديك أيها المطالع قيمة الكتب التي لولاها ما أمكن لنحاتنا استخراج سبعين وجها للصفة المشبهة أو يزيد، ولا وجد مخترع التلغراف لمخترعه من سبيل، وقد عده بعضهم ضربا من الوحي، والوحي في اللغة هو الإشارة والكتابة والكلام الخفي والرسالة والإلهام، ومنه قوله تعالى: « وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ»(الآية) [3]

أما تنظيم حال الكتب بتونس، بعد أن تلاشى ما بخزائنها عندما قدم إليها الأسبانيول [4] عدو المعارف، حسبما هو مبسوط بمحله من تواريخ هاته المملكة، فقد كان تجديده على عهد المشير الأول أحمد باشا [5] وذلك في رمضان

---

(1) 857 / 1453

(2) مزمر لم أجد له ترجمة.

(3) النحل: 68

(4) دخل الجيش الاسباني إلى تونس سنة 1553

(5) أحمد باشا باي الأول حكم من سنة 1837 حتى سنة 1855 راجع تأسيسه للمكتبة الأحمدية في الإتحاف ج 4 ص 56

سنة 1256 فإنه اشترى سائر ما احتوت عليه خزانة الوزير حسين خوجة [1] لما ركبه دين لم يسعه قضاؤه، حسبما هو منصوص بأخبار هذا الرجل، وأضاف إليها كتب أسلافه التي كانت ببيت الباشا [2] ثم زين بجميعها مع ما أضاف عليها بالشراء الصحيح صدر جامع الزيتونة عمره الله، حيث علم أن لا فائدة ببقائها عند من لا علم له بقيمتها إلا المباهاة، وشتان بين من يملك كتابا يستفيد منه ويفيد، وبين من يهجره، ويكتفي بقوله عندي ذلك الكتاب.

على أن من خلف المشير أبي العباس عرف أيضا أن لا حاجة لإبقاء الكتب التي بجوامع الحاضرة وزواياها فجمع شملها بإضافتها للمتقدمة، مع ما اشترى من كتب الوزير إسماعيل السني [3] وغيره، وبذلك تكونت خزائن الجامع الأعظم التي لا يتجاوز عدد جميع ما بها الاثني عشر ألف مجلد، رحم الله واقفها، وتقبل سعيه.

---

(1) حسين خوجة من مماليك الوزير يوسف صاحب الطابع، ولما قتل هذا الوزير غيلة أصبح من موالي حسين باي (حكم من 1824 حتى 1835) ثم أضحى من وزرائه، ومن جراء إسرافه تداين، ولم يستطع دفع ديونه، فسجن ثم أخلي سبيله، وبيعت كتبه، فاشتراها احمد باشا باي الأول، ودفع الثمن للغرماء، وتوفي حسين هذا سنة 1857

(2) بيت الباشا، والباشا هو علي بن محمد بن علي تركي، اغتصب الحكم من عمه حسين بن علي، بعد قتله، تولى حكم البلاد التونسية من 1735 حتى 1756 انظر خبر تمرده عن عمه في الإتحاف ج 2 ص 132 وما يليها

(3) إسماعيل السني أصله من الروم نشأ في بلاط حسين باي، وتولى مهام سامية في الدولة، اتهم بتدبير انقلاب في عهد الصادق باي، فقتله خنقا 1867 راجع الإتحاف ج8 ص 131

ولما جاءت الوزارة الخيرية زادت في الاعتناء بحال العلوم بالحاضرة، فضبطت حال تلك الكتب ضبطا محكما، وعينت لها حفظة ثقات، لكن من سوء الحظ أنه بلغنا اليوم من حالها ما حرك دواعي الأسف على شأنها، سيما الكتب المحررة في العلوم غير المزاولة بالجامع كالطب والتاريخ والفلسفة، فقد اعتدى عليها السوس والغبار، حتى أسف لحالها من رآها، ونطق لسانه بأن من جهل شيئا عاداه، وإذا أضفنا لذلك الخبر المسيء الذي نرجو البحث عنه من اختلاس المصحف الكريم الذي نسخه المرحوم الشيخ حمودة قميحة [1] بخطه الجميل، ونقله الزمان من الوزير صاحب الطابع [2] بعد موته لنوبة الحضرة الصادقية طاب ثراها، ثم بعدها أنقذه الله من مخالب الوزير ابن إسماعيل، وأودعه يدا طاهرة، ألا وهي يد الحضرة العلية [3] بادر سمّوها بتحبيسه على ضريح الولي أبي محفوظ محرز بن خلف [4] ووكلت به مأمورا يقرأ منه ما تيسر يوميا جوار ذلك الضريح، بعد أن

---

(1) حمودة قميحة لم أعثر على ترجمته

(2) من أشهر وزراء العهد الحسيني علما ونزاهة، وحبا لخدمة الصالح العام، اغتيل في عهد محمود باشا باي ظلما وبهتانا، ترك مآثر جليلة، منها الجامع المعروف باسمه في تونس العاصمة (حكم من سنة 1814 حتى 1823) سنة 1815 (راجع خبره في الإتحاف ج3 137 وما بعدها)

(3) يقصد علي باي تولى العرش الحسيني من سنة 1882 حتى 1902

(4) محرز بن خلف بن رزين البكري(340/ 951 - 413 / 1022) من نسل أبي بكر الصديق، ومن أكابر الزهاد، سكن في أول أمره قرب القيروان، ثم استقر بتونس يقرئ القرآن والحديث والفقه، وهو أول من سن بتونس قراءة القرآن بعد الصبح، عوضا عن الذكر.

جعلت له صندوقا محلّى بنقر من الفضة، ابتدرت أيدي بني الزمان بتقليعها شيئا فشيئا، ثم باختلاس عين ذلك المصحف الجليل، عجل الله باسترجاعه.

على أن جامع الزيتونة الذي أنبت جموعا من أعلام المسلمين من لدن الميئين الأولى، لا زالت عرصاته، ولله الحمد ،غاصة بأفواج من أكابر العلماء العاملين، أطال الله بهم النفع، ولا عدمنا حياتهم، رغما عن الفريق الآخر الذي جهله يرجح علمه، وضره أقرب من نفعه، وهل مع الصبح دليل.

من أجل ذلك كتبنا هذا الفصل، لتنبيه أولي العلم منهم الذين رفع الله لهم درجات، كما خفض لأهل الجهل دركات، وهو القائل عز اسمه : « أفمن جعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات» [1] ليتذكروا معنى أهمية الكتب في الشرع والعادة، فيعتنوا بالتحفظ على ما بجامع الزيتونة، أدام الله عمرانه، من نفائس الكتب، ويصونوها من الغبار والسوس الداء العضال، وخصوصا يتحرون في تمكينها، فلا يعطوها لغير مستحقيها فيظلموها ويظلموهم.

أما بفرنسا فقد قرر مجلس التمييز تطبيق الفصلين 254 و255 من قانون الجنايات على وكلاء الكتب أو المطالعين الذين يتمادون عليها بالإهمال أو الاختلاس، ولذلك فقد ناسب أن نتعرض هنا للمصحف المحرزي المتقدم ذكره، ونستلفت الأنظار لشأنه، بل ونطالب البحث عنه وعلى مختلسه، حتى

---

(1) الآية هكذا في القرآن: « أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا» (الأنعام: 122)

يظفر بهما جميعا، فيعاد الأول لمقام أبي محفوظ، ويودع الثاني تحت ظل السجن، ثم نطلب إحالة النظر عليه لجمعية الأوقاف لئلا يتلاشى مرة أخرى، حيث إن نظام الزاوية داخليا يحتاج لتعقب في غالب الأمور، والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور[1].

الحماية القنصلية :

هذا موضوع مهم لم نسبر غوره منذ بروز هاته الصحيفة لعالم الوجدان، وهو من المسائل التي لها مكانة مكينة في عالم السياسة الأجنبية بالبلاد الإسلامية، وكثيرا ما خطر ببالنا أن نحيط بأطراف هاته المسألة ذات التشعبات والصعوبات، إلا أن الفرصة لم تمكننا من ذلك، بيد أنا لم نغفل عنها، ولم نطرحها من برنامج المسائل المعتبرة المختصة بالبلاد الإسلامية، ولذلك فقد رأينا اليوم من القيام بوظيفة الجريدة أن نذكر كلاما وجيزا في معنى الحماية الشخصية، سيما بعد وقوفنا بجريدة (الرفاي دو ماروك) [2] على فصل طويل الذيل في الأحوال المغربية به كلام يوافق عين الحقيقة في النازلة، يفهم منه زيغ بعض الدول عن جادة الصواب، وسلوكها مسلك الارتياب في منح حمايتها جزافا، سعيا وراء أغراض في النفس، يعلمها كل من عرف كنه السياسة الأوروباوية في البلاد المغربية، ولدفع ما عسى أن يتبادر لبعض الأذهان من الالتباس ندرج أولا فحوى صحيفة (الرفاي) ثم ندعم

---

(1) الحاضرة ع 217 بتاريخ 18 أكتوبر 1892

(2) Le Réveil du Maroc

ذلك بكلام لم نر أحسن منه في الإيفاء بالمقصود، نقله مسيو فوكون أحد مشاهير (الطان) [1] ضمن تأليف له في تاريخ تونس سماه (قبل الحماية وبعدها) ثم نعرج بعد ذلك على ذكر فوائد الحماية القنصلية ومضارها.

قالت جريدة (الرفاي): ومن سوء الحظ أن كان شطط عمال المغرب هو الباعث على تقوية شوكة اللائذين بالحمايات الأجنبية الذين لم يزل عددهم يتزايد تزايدا فاحشا في كل يوم، بحيث إنه لأقرب وقت ستنزع حكومة المغرب من سائر رعاياها، وبذلك يتضح جليا ما هي الأغراض المقصودة والنتائج التي سترى آثارها في أطراف البلاد المغربية، على أنه لو تعاطينا إحصاء اللائذين بالحمايات الأجنبية، والمنتمين للشركات المختلطة الزراعية لرأينا من بعض الدول التي ليس لها صالح سياسي ولا تجاري بالمغرب استعجابا كليا من وفرة عدد المحتمين بها في مراكش.

ثم إليك ما نقله في هذا الباب قلم إنصاف المسيو فوكون بكتابه المشار إليه الذي سطر فيه النتائج الحسنة التي نجمت عن نصب الحماية الفرنسوية بالمملكة التونسية، قال بعد أن ساق عدة أسباب ومكائد كانت عثرة في سبيل تقدم الايالة التونسية لتعدد القنصليات الأجنبية لديها، مع ما للقناصل من الحقوق والامتيازات الممنوحة لبني جنسهم بالمعاهدات الدولية : «أن الأروباويين ليتهم كانوا وحدهم متمتعين بالامتيازات القنصلية، إذ ليس في ذلك إلا ضرر جزئي، ولم يوجد حذوهم قوم أكثر منهم تكديرا للنفوس، وهم المحتمون

---

(1) (Le Temps) صحيفة فرنسية متحررة

بالدول، وهؤلاء حالهم مجهول بفرنسا، حيث إنه لم يطلع بها على كنه معنى الحماية بالبلاد الشرقية، لأنه كثيرا ما يرى في الجرائد أن أروباويا أهانه مأمور إسلامي، وأن قنصله سجل في الحال، فوقعت معاقبة المعتدي مع استرضاء النفر المتعدى عليه بالمال والقول اللطيف، والحال أن ذلك الأوروباوي المجهول الحال هو في الغالب إما عبد أو بدوي أو يهودي، لا يحسن أي لسان كان من ألسن صقعنا الأروباوي، ولكنه لبس ثوب جنسية مستعارة، ليمنع من أحكام بلاده، فترى الفضاء بين الآستانة وبيروت والإسكندرية وطرابلس الغرب وتونس وطنجة عامرا بأصناف هذا القبيل المتكون من مالطيين وخوارج المشارقة، ومن كل فالت ومتمرد يشين ثغور بحر الروم، وهو متمتع بجميع المحظوظيات كالأروباوي نفسه، ومن البديهيات إقبال الأهالي على الحماية القنصلية، إذ هم يعلمون الفوائد التي تنجم عنها، ولذلك ترى المتمردين منهم يلوذون بأحد القناصل، فيتخذون وراءها ترسا، بمعنى أن حالتهم في يوم واحد تنقلب انقلابا، يخرجهم عن دائرة أحكامهم الطبيعية، ويعفيهم من الضرائب الثقيلة، ومن الخدمة في العسكرية».

فمن دون تعمق في أصل المسألة يمكن أن يقال بأن الحماية القنصلية، وعلى الأخص من بعض الدول التي لها صالح خصوصي بالبلاد المستقلة الإسلامية تجاوزت حد القانون الذي وضعت له، ودخلت في طور الإجحاف والتشويش، سيما ببلاد المغرب في هذه الأوقات، إذ كما لا يخفى أن المقصود من حماية الغير هو دفع ظلم الولاة عنه، ومن هذه الحيثية لا راد على من يأخذ بناصر الإنسانية، ولنا عبرة

بما وقع في سنة 1263 لما التجأ أحد المنتسبين للعلم [1] لأحد القنصليات عندما دهاه ظلم صالح شيبوب أمير عساكر غار الملح، فاستفسر أمير العصر في شأنه، عالم الملة أبا إسحاق إبراهيم الرياحي [2] فأفتاه هذا العلامة الجليل بأنه لا محظور، ولاحرج عليه، واحتج له بجعل أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأهله في حماية مشرك، لما هاجر مع النبي صلى الله عليه وسلم، فطوى الأمير بساط الكلام، وكظم غيظه.

أما إذا خرجت الحماية الشخصية عن هذا المدار لتغير الأطوار، بأن تدخل في حيز توفير عدد أشياعها، ليتسنى لها مد يد الاغتصاب، لما ليس من أملاكها، كما نشاهد من تطاول ألمانيا وانكلترا واسبانيا الواحدة تلو الأخرى على البلاد المغربية، فذلك أمر يستهجنه كل من انبلج في وجهه صبح الحق، وزهق لديه الباطل، ولو ارتقينا معارج التاريخ

---

(1) هو قاضي رأس الجبل أبو عبد الله محمد العنابي، الذي هرب إلى دار القنصل الانجليزي، وعدل عن الهروب إلى القنصل المذكور، ولجأ إلى دار الفرنسيس لنسبته إلى عنابة، كما يقول صاحب الإتحاف « وذلك أن أمير لواء عسكر غار الملح صالح شيبوب أخذ ابنيه غصبا للخدمة في سراية غار الملح، وفداهما بمال، فأخذه ولم يسرحهما، ودهاه ما لا قبل له به، فأحوجته الضرورة إلى هذا الهروب، فوقف معه القنصل، وخرج بأمان له ولبنيه» (الإتحاف ج 4 ص 131 132) وفكر الباي (المشير الأول أحمد باي) في عزله من خطته، إذ كيف لصاحب خطة دينية أن يصدر منه هذا الصنيع ولكن الشيخ إبراهيم الرياحي لم يوافقه على هذا العزل للحجة المذكورة أعلاه، وكان ذلك سنة 1263/ 1846.

(2) إبراهيم ألرياحي (1766 – 1850) من أشهر علماء تونس في القرن التاسع عشر، له حظوة لدى البايات لمكانته العلمية، له عدة مؤلفات منها الرد على الوهابية.

لرأينا أن حماية الذوات بل وتجنسها أيضا موجود من قبل الإسلام بأحقاب، حيث إن مملكتي الرومان واليونان، وناهيك بمجدهما الشامخ، وعزهما الباذخ، كانتا تهب حمايتهما، بل وتقبل أيضا تجنس من ينتسب إليهما، ولكن على شروط، لاتخل بشرف العنصر الحامي، ولا يذم بها المحتمي وكانت العرب قبل البعثة وبعدها تحمي بعضها ضد البعض، وتحلف على الإيفاء بذلك حلفا مؤكدا، بل وكانت قبائلهم تتحالف مع بعضها في الحروب، وتتحد بما يشبه الاتحادات المعروفة لهذا العهد، ومن ذلك تحالف ست قبائل من قريش عند محاربة بني عبد مناف لعبد الدار وأضراب ذلك يفوت الحصر، وناهيك بالأشعار الحماسية في هذا الغرض ليهوديهم السموأل بن عاديا [1] المشهور بوفاء العهد، وحمي الذمار.

ولا يقال إن الحماية والتجنس غير معروفين عند الإسلام إذ البرهان على خلافه بين، فالحماية عند المسلمين لبعضهم أو لأهل ذمتهم معدودة من أركان الدين، ولم يقلص ظلها بالبلاد الإسلامية إلا عند تغلب هوى النفس على ولاتها، وأما الجنسية فسلطانها سائد إلى هذا العهد، وهي تنحصر في الاهتداء لاعتناق الملة السمحاء المحمدية، وبابها ليس له حاجب، والوافدون عليها كثيرون.

ومما يجدر ذكره هنا لتعلقه بهذا البحث هو أن بعض

---

(1) السموأل بن عاديا(ق6 م) شاعر يهودي، صاحب الحصن المشهور بالأبلق، يضرب به المثل في الوفاء، لأنه فضل قتل ابنه على التفريط في أمانة (سلاح) أودعها عنده امرؤ القيس، لما توجه إلى الشام، يطلب نصرة القيصر، ليسترد ملك أبيه.

المحررين من البلاد الأروباوية جاؤوا على قدم دولهم في السعي وراء تنمية عدد تبعتهم، ولو بصفة أدبية معنوية، فيزعمون مثلا أن خير الدين[1] شقيق عرّوج الغازي ودرغوث باشا [2] فارس البحر، وسنان باشا [3] الفاتح، وغيرهم من متأخري مشاهير الإسلام أصلهم أروباوي، فينسبون الواحد للمجر، والآخر لإيطاليا، والآخر لبولونيا، وهلم جرا، وقس على ذلك زعمهم بأن الطائر الصيت عثمان دقنه [4] القائد السوداني الذي دوخ عساكر الانجليز بضفاف وادي النيل أصله أروباوي، ونسبوه لبلدة إفرنجية موقعها في المنطقة الباردة، مع أنه سوداني بحت خلق، ورزقه بالبلاد الحارة.

وتحفظت بعض الدول على ناموسها، خوفا من التورط في ربقة ذلك الخلل الفاحش، فوضعت القوانين والتراتيب الخصوصية لقبول إعطاء الحمايات لمن يلوذ بها، أو الجنسية لمن يرغب فيها، فدفعت بذلك الشبهة عن نفسها، ومن أشد

---

(1) خير الدين بربروس وأخوه عروج، من القراصنة الأتراك، أسسا دولة الجزائر، قتل الأسبان عروج في تلمسان(924/ 1518) وانتصر خير الدين على الأسطول الأسباني يعد عام من مقتل أخيه، توفي في اسطنبول 953/ 1546.

(2) من جنود البحرية العثمانية، واشتهر بقيادة السفن، وله غزوات عديدة منها هجومه على جزيرتي كورسيكا وصقلية، مات شهيدا وهو يحاصر جزيرة مالطة 973 / 1565 ودفن بطرابلس.

(3) تولى الصدارة العظمى لدى الباب العالي، كلفه سليم الثاني قائدا عاما لافتكاك تونس من يد الأسبان، فقام بالمهمة أحسن قيام، توفي سنة 1596

(4) عثمان أبو بكر دقنة، تولى الحكم في السودان الشرقي، ثم انضم إلى محمد أحمد، وتجند في خدمته، توفي عام 1926.

الأمم حرصا في التحرز من إعطاء الحماية أو الجنسية لغير المستحقين الأمة الفرنسوية، وكثيرا ما طرق أسماعنا رفض مطلب زيد، ودحضها رغبة عمرو، وما ذلك إلا لكون فرنسا العالمة بمقدارها ليس لها مقاصد خفية بالبلاد المستقلة الإسلامية، وعلى الأخص منها حكومة المغرب، وإلا فالبلاد العثمانية لها قوانين خاصة بها، وبمقتضاها لا يسوغ لأية دولة أجنبية تمكين حمايتها أو جنسيتها لأحد الرعايا، إلا بعد موافقة الدولة وقل أن توافق.

على أن الشرقيين في هذا العصر تشملهم صنوف العدل والإحسان بخلاف الجهات التي ضربت فيها الفوضى أطنابها وصار أهلها لقمة لكل آكل، فطبيعة أن النفس تسأم من الظلم، ترى اليوم قبائل المغرب، وعلى الأخص أهل الأرياف والثغور مقبلة على اقتناء الحمايات الأجنبية، ويبذلون فيها النفس والنفيس، ومعلوم أنهم بصيرورتهم في زي الأجنبي يمدون له يد الإسعاف والمساعدة، فيخربون بيوتهم بأيديهم، ويكونون كالباحث على حتفه بظلفه[1].

اللســـان المـــالطي :

وقفنا أخيرا في جريدة (لاتونيزي) على فصل تحت هذا العنوان من قلم المسيو (جان سبيرو) يرد فيه محرره على من زعم أنه ليست للمالطيين لغة أصلية، وبالغ هذا المحرر في الرد إلى أن قال: «إن المالطيين يتكلمون لغة عربية فصحى كالعربية المستعملة بالديار التونسية وبغيرها من البلاد الإسلامية».

---

(1) الحاضرة عدد 356 بتاريخ 30 جويلية 1895.

واحتج على دعواه بجملة أمثلة عربية يقول إنها مستعملة بين المالطيين، أوردها بلفظها، فمنها قولهم (خير حبيب في السوق من كم فلوس في الصندوق) ومنها (احسب آش يجي قبل تعمل) ومنها (أكبر سنة يعرف أزيد مائة سنة) ومنها (قبل القميص من الصدرية) إلى غير ذلك من عدة أمثلة ملحونة، غير سائرة بين الأنام.

لكن من علم طباع البعض من الأجانب، وسرعة تصديقهم لما تسوّد به الصحائف، خصوصا فيما يخص الجنس العربي، لجهلهم بأصوله وعوائده بادر لهذه الدعوى الباطلة التي هي أوهى من بيت العنكبوت، ولذا حملتنا الغيرة الجنسية على الرد على المحرر بأقوال معقولة خالية من جميع الأغراض، يسلمها كل من علم قواعد اللغة العربية، وحلاوة لفظها، ورقة معناها، فنقول:

إن اللغة المالطية باتفاق فرع ملحون محرف جدا من الدوحة العربية الفصحى، خلافا لما يزعمه بعض المالطيين من أنها متولدة عن اللغة الفينيقية لوجود كلمتين منها بها، وهما البئر والصيد، وخلاف لما يدعيه آخرون، من أنها حبشية الأصل لوجود لفظ منبر بها، ومعناه الكرسي الذي تلد عليه المرأة.

والكل يعرفون أنها متولدة في الحقيقة من العربية، لكن لا يكادون يعترفون أبدا بذلك، حتى إذا اقتنع أحدهم بعد جدال طويل، ونزاع عظيم بأن اللغة المالطية عربية، يقول: إذا أن اللغة المالطية هي الأصل، وأن العربية فرع منها.

والمتنكلزون (أي الذين انطبعوا بطباع الانكليز، وصاروا يقولون في مجالسهم نحن الأروباويين نفعل كذا وكذا)

يعترفون بأنها فرع متولد عن العربية، لكنّهم يزعمون أنه فرع مستقل بقواعده وتراكيبه وصيغه عن أصله، كما تولدت اللغة الفرنسوية والطليانية عن اللاتينية، وصارتا لغتين مستقلتين، لكن جهل هذا المكابر أن كلامه مدفوع بأن اللغة العربية التي هي الأصل، لا يزال سوقها نافقا بين أسواق اللغات، ولم تنقض وتَمُتْ، كما وقع للغة اللاتينية،وبهذا لا يمكن أن يستقل عنها اللسان المالطي، بقليل معانيه وفساد مبانيه.

ومع كون المالطيين كلهم أو جلهم يتيقنون من أنّ لغتهم بل وعوائدهم أصلها عربي، يأنفون عن الاعتراف بذلك، عنادا وتكبرا، وعوض أن يتعلموا اللغة العربية الأصلية يذهبون لتحصيل الانكليزية والطليانية، لكون الأولى لسان أهل الحل والعقد، والثانية محررة بها شرائعهم، والتعامل بها في التجارة، وإذا عبت أحدهم، وقلت له: إنه لا يحسن بك أن تتعلم لغة غيرك، وأنت تجهل لغتك تشمئز نفسه حالا، ولا يطيق أن يعترف بقصوره، ويقول لك: أين وقفت لي على اللحن بكلام هو أيضا محرف؟ فتقول له مثلا في لفظ اخرج لماذا تقول احرج، فيقول لك: وما الفرق بينهما؟ فتعلمه بأن الخاء المعجمة غير الحاء المهملة، فيقول: إنه لا يرى عظيم فرق حينئذ بين كليهما، لأن نقطة صغيرة لا تقوّم المعنى ولا تفسده.

وهذه المكابرة تجدها عند غنيهم وحقيرهم، فهي تجري منهم مجرى الدم، حيث إنك إذا حضرت مجلس أحدهم، أول ما يبادر لك بمدح مالطة، أنها مناخ التمدن والمعارف والصنائع، إلى غير ذلك، ثم يأخذ بعد ذلك في امتداح شخصه، فيقول : نحن المالطيون نفعل كذا، ويخص بهذا التعظيم نفسه، ويريد منك أن تعتقد بأنه أهل لذلك، وتعظمه بذلك المقدار.

وقد أعقب تعلمهم للغات الغير اختلاط وتحريف عظيم في لسانهم العربي، فالسلام صار يرد بينهم بصفة مضحكة للغاية، حيث يقولون لبعضهم (بونجورنو عليك) وقس عليه من الاختلاطات والتحريف العجيب، وربما بلغ بهم التغيير في الكلام إلى تحريف كلمة ومزجها بأخرى من لغة أجنبية، فيقولون مثلا في لفظ عرفته (كونشيته) فهذه كلمة متركبة من الكاف والواو والنون والشين والياء، ومعناها (عرف) والأخرى عربية من التاء والهاء، وهما ضمير المتكلم والغائب، وأحيانا يدخلون ياء المضارعة على الكلمة الطليانية فيقولون (ما يربشيش) أي ما يوافق، وقد أجاد اللغوي الشهير أحمد فارس الشدياق في وصفها فقال:

تَبًّا لَهَا لُغَةً بِغَيْرِ قِرَاءَةٍ *** وَكِتَابَة عَيْنٍ بِلاَ إِنْسَانِ
تَتَبَلْبَلُ الألبابُ في تركيبها *** وَيَكِلُّ عَنْهَا كُلُّ حَدٍّ لِسَانِ
أَذْنَابُهَا وَرُؤوسُهَا عَرَبيَّةٌ فَسَدتْ *** وأوسطُها من الطَّلْيَان

ولقد يبعث المالطي المتنكلز ابنه إلى المدارس لتعلم الطليانية، حتى إذا أحسنها عاد إلى وطنه، وأخذ شيئا فشيئا في تغيير ما حصل عليه وتحريفه ومزجه بلسانه الذي فطر عليه، ويتناسى ما بقي، فيصبح جهولا عنيدا:

كُلُّ امْرِئٍ رَاجع يوما لشيمته
وإن تَخَلَّقَ أَخْلاَقًا إلى حِينِ

أخذت الحمية الوطنية أحد أعيان المالطيين، فبادر إلى تحرير كتاب في النحو سماه (الفابتو اللغة المالطية) ثم لما ابتدأ التعريف بالحروف الهجائية سمى الألف، وأعقبه بحرف العين، فخالف بهذا سائر اللغات المعروفة في العالم،

لأن الباء هي التي تعقب الألف في كل واحدة منها، وهو دليل عظيم على جهل المؤلف.

هذه جملة ألفاظ وحكايات أوردناها للتعريف ببضاعة اللسان المالطي، ولو أردنا البسط لما كفتنا أعمدة صحيفتنا، للتشنيع بهذه الدعوى الباطلة، لكن بقي علينا شيء، وهو ذكر بيتين من نظم المالطيين، للتعريف بشعرهم، كما برهنا على حسن نثرهم، ثم نعارضهما ببيت للسان الدين بن الخطيب[1] وآخر للقاضي الفاضل [2] في معناهما، وذلك ليعلم المسيو جان سبيرو الفرق بين العربي الفصيح والسقيم، قال الشاعر المالطي:

المحبوبْ تا قلبي سافر *** ليلي ونهاري نَبكيـــــــخْ

جعلتلُّو بدموعي البحرْ *** وبالتنهيدات تا قلبي الريحْ

وهذان البيتان هما معنى قول لسان الدين:

والبحرُ قد خفقتْ عليك ضُلُوعُهُ

وَالرّيـــحُ تَبْتَلِـعُ الزَّفِيـرَ وتُرْسِلُ

ومثله قول القاضي الفاضل :

كأنّ ضلوعي والزَّفِيرَ وأدْمُعِي

طُلُولٌ وَرِيحٌ عَاصِفٌ وَسُيُولُ

---

(1) لسان الدين بن الخطيب، شاعر ومؤرخ أندلسي، عرف بذي الوزارتين (الأدب والسيف) من مؤلفاته (الإحاطة في أخبار غرناطة) اتهم بالزندقة فقتل(776/ 1374).

(2) القاضي الفاضل (توفي 597 /1200) من مشاهير وزراء صلاح الدين الأيوبي، رافقه في رحلاته في مصر وسورية، وتولى عنه إدارة الدواوين، ويعد من أبرز أدباء عصره.

فالفرق صار الآن بين الأصل العربي والفرع المالطي غير يسير.

وما استدل به المحرر من إيراد تلك الأمثلة القبيحة اللفظ والسبك لا يمكن أن يعارض بشيء، بعد شرح معنى اللغة المالطية نظما ونثرا، وعلى كل حال نقابل المثل الأول منها بمثل سائر بين عامة المغرب، لاتحادهما في المعنى، فالمالطي يقول: (خير حبيب في السوق من كم فلوس في الصندوق) والمغربي يقول: (صحبة الرجال كنوز) ولا يخفى أن هذا أحسن من ذاك، حيث يفوته بحسن التركيب والإيجاز، وصحة الإعراب.

فهذه ردود وجيزة أوردناها هنا حبا في الإنصاف، وتزييفا لما عسى أن يتقرر بأفكار الغير من أن اللسان التونسي واللسان المالطي وغيرهما من الألسنة العربية، سواء في الفصاحة والتركيب، وإلا فما كان بودنا أن نعترض كلام المحرر الذي جهل عيوب اللسان المالطي، لأول برق اختطفه بصره:

وَلاَ تَفْرَحْ لأَوَّلِ مَا تَـرَاهُ *** فَـأَوَّلُ طَالِعٍ فَجْـرٌ كَذُوبُ

وأما اللسان المالطي عند العرب فأشبه شيء بغراب رأى حجلة تخطو، فأعجبته، وأراد أن يتشكل بشكلها في الزي والمشي، ومكث على ذلك حتى أيقن بالعجز، وأراد الرجوع إلى خطاه الأصلية، فأتلفها وبقي مذبذبا، وعليه فلا يحسن بمن جهل حال غيره أن ينصب نفسه حكما عليه، حيث أنّ الحكم على الشيء فرع عن تصوره، والله خلقكم وما تعلمون [1]

---

(1) الحاضرة ع 110 بتاريخ 9 سبتمبر 1890(ركن حوادث داخلية)

أحـــوال المغـــرب :

وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إلى ذمِّه *** ذَمُّوهُ بالحَقِّ وبِالبَاطِلِ

جاءتنا أخبار المغرب تترى في هذا الأسبوع، منذرة بأن أحوال تلك المملكة الإسلامية بين الخوف والرجاء، بسبب تعاقب المطالب والتهديدات التي صار مناخها بالثغور المراكشية، وطالما كتبنا الفصول الضافية على عهد المقدس مولاي الحسن [1] ثم من بعده إلى هذا اليوم في أحوال تلك المملكة التي هي لهذا العهد آخر دولة مستقلة بإفريقيا، إلا أن الأيام لم تهدنا إلى هذا الحد خبرا يفهم منه تحسن شؤونها وانقلابها من وهدة السقوط إلى معارج العز والحضارة والسطوة، كما كانت في العصور الخوالي، ولذلك فإنه اقتفاء بالمنهج الذي اطردناه نحوها، وإذعانا للحوادث المؤلمة التي أحاطت بها في هاته الأيام خصصنا لها هذا الفصل على سبيل التذكار، والذكرى تنفع المؤمنين.

وما اشتهر به وزيرها السيد أحمد بن موسى من الحزم والعزم في ظل حضرة متبوعه الشريف، لإحياء ما اندرس

---

(1) مولاي الحسن (1873 – 1894) يعتبر من مصلحي المغرب، حاول أن تكون المغرب دولة حديثة فأرسل بعثات طلابية إلى أوروبا، وكون جيشا نظاميا حديثا، وأنشأ معملا للسلاح في مدينة فاس،وكون حكومة قوية برئاسة أحمد بن موسى المذكور في هذا الفصل، وحمى هكذا بلاده من تدخل الأجانب، إلا أنه بغد وفاته، ووفاة وزيره أحمد بن موسى أصبحت المغرب لقمة سائغة للدول الأوروبية، ومجالا حيويا لتنافسها، حتى كانت الغنيمة في آخر الأمر من نصيب فرنسا (راجع علال الفاسي: الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ص 86 وما بعدها)

من حضارتها الباهرة، وسطوتها القاهرة، يتراءى منه بارقة رجاء لإصلاح الأمور. لسعادة مفردها والجمهور.

كنا نشرنا غير مرة [1] أخبار الفوضى الضاربة أطنابها بجهات الأرياف، وتعدي أهاليها بحق، وبغير حق على كل من تطول عليه أيديهم، سواء كان من الرعايا أو من الأجانب، حتى اضطرت الحكومة المغربية غير مرة لإشهار السلاح عليهم، لتخضيد شوكتهم، وناهيك بحادثة «مليلة» القريبة العهد التي أفضت للحرب مع دولة اسبانيا، وانتهت بصلح بين اسبانيا وحكومة المغرب، مع التزام هاته لتلك بغرامة حربية، قدرها عشرون مليونا من الفرنكات، ولكن الله ابى زيادة على الأطماع، التي لم تهضمها إلى الآن بطون بعض الدول الأروباوية، إلا أن يكون أهالي الريف هم السبب الوحيد، والداعي القوي لتمكين تلك الدول من فرصة التداخل ظاهريا وباطنيا في أحوال تلك البلاد، فما فرحنا لزوال مشكل بالمغرب إلا وعبسنا أثره لما هو أعكر منه، ولذلك ربما كان لومنا هنا غير مقبول إذا خصصنا اعتراضنا على الأجانب الراتعين اليوم في مضمار التسابق

(1) لم تهتم الحاضرة ببلد عربي كاهتمامها بالمغرب الأقصى، فقد كانت منذ صدورها تتابع أخبار هذا البلد، ولها مراسلون نذكر من بينهم محمد فخري الذي هاجم ذات مرة بعض الشوام لتداخلهم في شؤون المغرب، فكان أن سحب بعض الشاميين المقيمين بتونس اشتراكهم بصحيفة الحاضرة(كما قيد محمد ابن الخوجة بلسان القلم على نسخة الحاضرة التي كانت في مكتبته) ومن جهة أخرى طلب معتمد فرنسا بالمغرب الأقصى تشديد الرقابة على مراسلات المغرب للحاضرة، وفعلا تم منع نشر بقية المقال التي كانت الحاضرة قد نشرت قسما منه. انظر لمزيد التوسع : علي العريبي، تونس، 1995، الحاضرة ص 334 – 340.

نحو المغرب، بدون أن نوجه اعتراضا أشد منه على حكومة مراكش نفسها، حيث أن رب البيت هو أدرى بالذي فيه.

كان من الواجب على حكومة المغرب أن تنهض من غفلتها، وتبادر بحسم الداء الذي تمكن منها، إذ لا نخالها خالية من الوطنيين النصوحين، لكل من مولاي عبد العزيز وسلطنته، ويكونون بذلك قد قاموا بخدمة الوطن، الذي حبه إيمان، وعملوا بقواعد الإنسانية، إذ أن الأصل في الإنسان أن يكون أشرف الكائنات، لأن الخالق سبحانه خصه من دونها بالنطق والعقل والفكر والتمييز، وسخر له جميع الحيوانات، وألان له الحديد، وعرفه بمسالك البراري والبحار، ولكن هذا الشرف لا يتم إلا بعد أن يتخذ من العلم ركنا، وينظر في أحوال الماضين، ليطبق منه ما راق على أمور الحاضرين، وإلا فتكون نسبته كالطفل الرضيع، إذا أدنيته من النار تهافت عليها، أو من علو شاهق رمى بنفسه منه.

هذه دولة المغرب كان لها في القديم مجد شامخ، وعز باذخ، وكانت اسطوانة ممالك إفريقيا الشمالية في الصدر الأول، ولم يقلص ظلها إلا في العصور المتأخرة، بعد أن كانت كلمتها بأوروبا الجنوبية غير مردودة، وكانت لها علائق ودادية تاريخية مع فرنسا، حتى أن الملك هنري الثالث نصب نيابة قنصلية بفاس، وهي النيابة التي أحيتها فرنسا أخيرا بتلك العاصمة، وكان السلطان مولاي إسماعيل [1] له ود خاص

---

(1) مولاي إسماعيل من ملوك المغرب الأقصى في القرن الثامن عشر، كان معاصرا للويس الرابع عشر ملك فرنسا، وقد حاول مولاي اسماعيل التحالف مع لويس المذكور إلا أنه رفض، توفي 1727

بالملك لويس الرابع عشر [1] حتى أنه طلب منه أن يصاهره على إحدى بناته، ومن تاريخ اليوم الذي عقدت فيه معاهدة 14 أغشت 1844 (رجب 1260) فإن علائق فرنسا والمغرب لم يطرأ عليها ما يكدر صفوها إلى هذا العهد، وازدادت اليوم إحكاما بنصب قنصل فرنساوي بفاس، كما سبقت الإشارة إليه.

ولكن للانكليز مقاصد أخرى عدوانية، غير مقاصد فرنسا السلمية بالمغرب، فإن نواب جلالة ملكة انكلترا [2] لا يفترون ولا ينامون طرفة عين عن تتبع حركات أهالي مراكش وحكومتها، ومهما عثروا على صغيرة أو كبيرة إلا ونفخوا فيها ببوق التهويل والتعظيم، حتى أحدثوا بأوروبا مسألة سموها بالمسألة المغربية، تحوم حول مضيق سبتة، كما اختلقوا المسألة الشرقية التي مدارها على بوغاز الدردنيل، والقصد من هذه الترهات والأباطيل هو تضليل الأفهام بأوروبا، حتى يتسنى لانكلترا أن تنشب أظفارها بطنجة، مناها الوحيد وبيت القصيد.

واقتفى أثرها في الطمع الأسبانيول، حيث يرون أن المغرب إرث طبيعي لهم، فهم أيضا لا يضيعون فرصة تخولهم حق التداخل، وضرب الغرامات الثقيلة على المغرب بحق وبدون حق، وتكون لها في كل حال اليد العليا، لما أن الضعيف، وإن كان من شم الأنوف، يخضع دائما لحكم القوي، سنة الله في أرضه، وبقية الدول التي ليس لها صالح

---

(1) لويس الرابع عشر ملك فرنسا 1643 حتى 1715

(2) هي الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا (1837 - 1901)

بالمغرب سوى الاندفاع مع تيار التحاسد الذي يتكون بصدورها بسبب فوز الدول الأخرى، فهذه تنتهز فرصة نهب أحد الرعاع، المستجير بحمايتها، وتخلق من ذلك حدثا عويصا، تشدّ لحل كعوبه الرحال، وتقذف أساطيلها الضخمة القاهرة بمياه المغرب، وتحاصر ثغوره، كما فعلت ألمانيا وهولاندا أخيرا.

وهناك قسم آخر من الدول يلتمس وسيلة لتداخل دولته، حتى بداعي الانتصار للإنسانية، ومن هذا القبيل التهديدات التي أجراها المسيو جانتيلي سفير إيطاليا، نزيل فاس لهذا العهد، فإنه لما لم يجد بابا يلج منه لترويج بضاعته السياسية تداخل في نازلة يهودي من رعايا مراكش، كان قتل في العام الماضي، وحصل لعائلته على غرامة لها بال.

والحق يقال أن بالمغرب أناسا بعيدين عن السياسة الوقتية، راكنين إلى تسليم أمورهم لحكم القدر، من دون أن يتعاطوا أسباب الإصلاح، بل وفيهم من يؤثر الانتفاع الذاتي على المصلحة الوطنية، ولذلك كثيرا ما طرق أسماعنا أن قائد الجهة الفلانية بادر عندما استقر به عرش العظمة والسؤدد، ونفخ لديه في بوق التبجيل والتعظيم بإلقاء الرعب في قلوب الناس، وحملهم على الاعتقاد بأن في قبضته حياتهم ومماتهم، فأين هذه السياسة الملهمة من سياسة تنظيم المجالس والمحاكم، واختيار الولاة من أهل الرشد والرفق والمجاملة والمداراة، حتى يصير كل فرد ساعيا وجاريا في حظوة بلاده، وبذلك تخضد شوكة أهل الغي، وينقطع دابر أهل الشر والفساد من الرعاع السفلة الذين لا نظر لهم في الأمور، ولا استضاءة لهم بالعلم، كما قال المأمون.

كانت دول أوروبا في القديم قانعة بما تنتج بلادها، وتثمر أرضها، ولا تطمح إلى الحصول على كل ما يمكن وجوده في الأقطار والأمصار، والآن أصبحوا منهومين بإحراز كل ما يرون في البلاد القريبة والبعيدة، انظر كيف اهتزت انكلترا اهتزازا حرك أسطولها في ساعة واحدة من المياه الانكليزية، وقصد مياه طنجة، حيث يعضده الأسطول الاسبانيولي، ليطلبا جميعا، وباسم بقية الدول نصب قنصليات لها بحاضرة فاس، وما ذلك إلا لكونها حسدت فرنسا في فوز سفيرها، ونجاح سياسته، لما كان ضيفا مكرما عند الحضرة الشريفة السلطانية.

وبعد أن بشرنا التلغراف بإقلاع أسطول ألمانيا عن مياه المغرب الأسبوع الفارط ما راعنا إلا وعلمنا برجوعه حالا لمياه طنجـة، حيث انضمت له مدرعة طليانيـة، كل ذلك تتبعا لحركة الأغراض الانكليزية، مع أن دولة بريطانيا العظمى ليس لها في التـاريخ ما يشم منه رائحة تكدير في علائقها مع دولة مراكش، ومثلها اسبانيا ومثلهما إيطاليا.

فلننتظر ما ستهدينا أكف الحوادث من هذا التظاهر العام الذي لا قدرة للمغرب على دفعه إلا بتحمل الأكلاف الثقيلة، وانظر إلى تلاعب الانكليز بالأفكار، وتضليلهم للأفهام، فإنهم بينا أسطولهم بمياه المغرب، تراهم ينصحون الحكومة المراكشية، ويشيرون عليها حسب ما جاءنا في رسالة خصوصية من مكاتبنا برباط الفتح بأن يتكفلوا لها بتدريب عساكرها، وتنظيم جنديتها، لكي يفتحـوا بابا جديدا يلجون فيه من المهم إلى الأهم، كما

فعلوا بدول أخرى في القارة الأسيوية، وفي مصر نفسها، ومن أنذر فقد أعذر[1].

ذكــــرى لأولي الألباب :

قضى المسلمون مناسك الحج الشريف، وتيمنوا بلثم الحجر الأسود، وطافوا حول البيت العتيق، ثم زاروا قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم، وتبادلوا عبارات الوداد والاتحاد القلبي، وبسطوا أكف الضراعة، لتهوين كربات مكروبهم، وتخفيف وطأة مضطرهم، وتيسير حال معوزهم ومعسرهم، ومدوا يد الإخاء بقلب سليم لبعضهم، فتكونت من بنيانهم المرصوص سلسلة ضخماء، تجمع شملهم من تخوم الصين بالشرق الأقصى إلى ضفاف بحر الظلمات بالغرب الأقصى، وهاهم اليوم عزموا على الإياب كل لمسقط رأسه، حيث تركوا الأهل والرفد، تتلألأ وجوههم سلامة، وتنضح قلوبهم بماء الرحمة، مقبلين على أعمال البر والإحسان، جانحين لكل ما فيه خير، عائد على الأوطان، مسلمين مقاليد مستقبلهم في يد من أوكل الله إليهم إساسة أمور دنياهم، طائعين لله وللرسول ولأولي الأمر، لا يحيدون عن هذه الطريقة المثلى، حيث علموا أنها المنهج الأولى.

وسيلاقون في سائر بلاد العالم الإسلامي بمظاهر الحفاوة وعلائم السرور، ويهنون بحجهم المبرور، لكن ستحول دون بلوغ بعضهم للأوطان صعوبات، كان سبب ظهورها داء

---

(1) الحاضرة ع 360 بتاريخ 13 أوت 1895

الكوليرة بالديار المصرية، إذ لا بد والحالة تلك من قضاء زمن الكرنتينة بالمحاجر الصحية، حتى تسلم البلاد من العدوى، وتأمن النفوس وتستريح الأفكار.

على أن هذه الكرنتينة يستوي فيها الغني والفقير، والحاكم والمحكوم، ولا يعترض على مشروعها إلا معنت مكابر، لأن شريعتنا السمحاء ترى وجوبها، كما أبان ذلك بالأدلة الفقهية في إحدى رسائله العلمية العلامة الشيخ بيرم الثاني [1] رحمه الله، وهي رسالة معروفة، ليس موضوعنا شرحها، أو الإطناب بشأنها هنا: إذ درجة صاحبها في علوم الدين أشهر من أن تشهر.

كيف لا ووجوب ضرب الكرنتينات جاء حتى في شرائع من قبلنا: إذ التاريخ لم يزل يحكي لنا وجود ما يشابهها، لمنع فشو الأمراض ذات العدوى بين بني إسرائيل على عهد سيدنا موسى عليه السلام، وجاءت بعد ذلك شريعة الإسلام جامعة واعية لمصلحتي الدنيا والآخرة، فتراءت مثل ذلك، وفي حديث: فرّ من المجذوم فرارك من الأسد، ما يغنينا عن زيادة البيان.

ولما جاءت القرون الوسطى، واشتعلت نيران الحروب الصليبية التي جاءت إليها أمم النصرانية من كل فج عميق

---

(1) محمد بن محمد بن حسن المعروف ببيرم الثاني (1749–1831) من أكبر علماء عصره، تولى التدريس بالجامع الأعظم، وتقلد خطة الفتوى، والرسالة التي يشير إليها ابن الخوجةعنوانها (حسن النبإ في جواز التحفظ من الوباء) وهو يرى صحة القول بالعدوى، والتوقي منها، وذلك عن طريق الحجر الصحي (الكرنتينة) انظر محمد محفوظ: تراجم المؤلفين التونسيين ط دار الغرب الإسلامي بيروت 1982 ج1 ص177 ـ181

ظهرت عند حلولهم بالقدس الشريف أمراض وبائية بعساكرهم، فخشوا نمو ذائها، حيث كانت من ذوات العدوى، واخترعوا لمقاومتها محالا خارجية عن معسكراتهم، يقيمون بها مرضاهم، وسموا تلك المحال (سانت لازار) ومنها جاء لفظ (لزريط) الذي هو مستودع مرضى الكوليرة بجميع أنحاء العالم،لعهدنا هذا، ولم تعرف الكرنتينة بأوروبا إلا في مبادئ القرن الرابع عشر للميلاد، وكان الكبراء يأنفون بادئ بدء من الدخول تحت سلطتها، بحيث إنها لم تكن منتظمة في أولية أمرها، ودام حالها كذلك إلى أن ظهرت عدة أوبئة جارفة بأوروبا، كان منشؤها اختلاط الأقوام، بسبب تداخل الأوروبيين في آسيا، وتداخل الانجليز، خصوصا في الهند الذي هو منبت الهواء الأصفر، والعياذ بالله، فخيف من تمكن الداء، واجتمعت لذلك دول أوروبا في مؤتمر عام، كان عقده بالآستانة العلية في سنة 1865 (1281) ومن ذلك العهد أخذت أمور الكرنتينات في الانتظام، وزيادة الإحكام، سعيا وراء حفظ النفوس، ودفع البؤس، وصار يستوي فيه الحقير والجليل، كما قدمنا، وناهيك بدخول المشير الأول المرحوم أحمد باشا تحت أحكامها عند رجوعه لتونس من إحدى سفراته، بما بقي له ذكر في تاريخ البلاد التونسية.

وكانت دولة آل عثمان في هذا المضمار من الدول التي أدركت ذروة المدنية في الدفاع عن الإنسانية، لأن سلاطينها العظام لم يألوا جهدا في مقاومة داء الكوليرة، ويبذلون في ذلك النفس والنفيس، إلى أن قطعوا جراثيمه من البلاد الحجازية، واقتفت أثرها سائر الدول التي لها رعايا من المسلمين كالنمسا وفرنسا وهولاندا، وأما انكلترا فعلى عادتها

تنظر في مصلحتها قبل الصالح العام، بمعنى أنها إن كانت مصلحتها في هذا العام مثلا في مقاومة الداء تقاومه، حتى بالطرق التي لوثت الجامع الأزهر الشريف بدم البرءاء، وإن كانت مصلحتها في عكس ذلك تغض الطرف عن كل شيء، بل وتنكرأصالة في وجود الكوليرة مثلا بالهند، وهلم جرا.

وامتازت عليها الدولة الفرنسوية بالمعاملة بالرفق، حيث كان أوقع في النفوس، وأنجع في تقويم المعوج، وعلى منهجها جاءت حكومتنا التونسية، حتى أنها حرسها الله كانت تكفلت بنقل أناس هم ليسوا من رعاياها، وعالجتهم مدة سفرهم، وأوصلتهم لثغور بلادهم، بما أنطق الألسن بالثناء عليها، واتخذت في هاته السنين الأخيرة وسائل مهمة لراحة الحجيج التونسيين، وإمدادهم بالزاد والماء الكافيين لأودهم، وأسقطت عنهم الضرائب غير القانونية، التي كانوا يدفعونها في القديم، وتكفلت تحت جناح الحماية الفرنسوية بالذب عنهم في البلاد البعيدة، إلى غير ذلك من المناقب التي جاءت بها حكومة الحضرة العلية، بعناية رجالها النصوحين.

ومع كون البلاد الحجازية حرسها الله كانت على غاية من نقاوة الهواء في هذا العام الفارط، بما اتخذت الدولة العلية من وسائل التحفظ الصحي والسهر على راحة الحاج، ربما اضطرت الحكومة التونسية لجعل كرنتينة على الوافدين من حجاج البلاد الغربية، حيث إنهم يمرون بالطبع عند رجوعهم على الثغور المصرية التي ظهر بها مرض الكوليرة لنحو تسعة أشهر فارطة.

على أن تلك الكرنتينة ستكون، بما نعلم، من حسن دولتنا المحمية بغاية الرفق والمساعدة، حتى لا يسأم الحاج ويقنط، كما يقع لحجاج بعض البلاد الشرقية الذين قضي عليهم بالعيش

تحت السلطة أو النفوذ الأجنبي، وإذا أضفنا لهذا أن رجال الإدارة الصحية بجهتنا حصلوا في هاته السنين الأخيرة على التجربة الكافية والمعلومات التامة للقيام بأعباء خطتهم يقوى أملنا في معاملتهم للتونسيين الذين سيرجعون لقريب من بيت الله الحرام بالمعروف والنصح الخالص، حتى لا ينكسر خاطرهم من جهة، ولا تنشأ عنهم مضار للعموم من جهة أخرى، وبهاته المناسبة نعيد على سبيل الذكرى التي تنفع المؤمنين، ويعلي الله ذكرها ويرفع، أن من واجب حكومتنا السنية صونا لناموس الراعي وحياة الرعية أن تقرر من الآن ما يجب اتخاذه في هذا الباب من التدابير والأفاعيل حتى تنطق الألسن بالثناء على رجالها في الغدو والأصيل، والله الهادي إلى سواء السبيل[1].

إلى أين ستؤول الحال ؟

أرخت حكومة الجمهورية على عهد رئيسها الشهير غريفي[2] ستر حمايتها على المملكة التونسية، وتعهدت من يوم وقعت الحضرة الصادقية طاب ثراها على معاهدة باردو بحماية النفس والعرض والمال، وما أخلفت وعدها قط من نحو خمسة عشر عاما، فعادت للأنفس الطمأنينة، وامتد سلطان الأمن بين السكان، فأقبل كل على عمله، مشتغلا بخويصة نفسه، ومد الناس يد الإسعاف لبعضهم، تحت رعاية حكومتهم في ظل أميرهم المحبوب، ثم أخذ القوم رويدا رويدا، مع تشبثهم وتحفظهم على شعائرهم، يقتدون في مصالحهم الدنيوية بكل

---

(1) الحاضرة ع 404 بتاريخ 30 جوان 1896.

(2) غريفي (Jules Grevy) رئيس جمهورية فرنسا من سنة 1879 حتى سنة 1887 وفي عهده نصبت الحماية على تونس

أسوة حسنة، يغتبطون عليها العنصر الحامي، فأرسلوا أبناءهم لتدريس العلوم النافعة في الدنيا، على أساتذة الفرنسيس، حيث علموا أن الحكمة تؤخذ حيث توجد، وأن التسهيلات والإمدادات الفنية والتهذيبية، وإن لم تبلغ درجة عليا إلى حد الآن، هي في نفسها بالنسبة للعدم قدر وفير، فأصبح التونسي يبصر بعين الشكر آثار النعمة التي تشمل الأهالي من لدن دوائر الحكومة على اختلاف مشاربها، وما ذلك إلا من المدد الحسي والمعنوي الذي لم تزل تهيئه الدولة بهمة رجال الحماية، الذين اشتهروا بالعفة والاستقامة، بما آلوا على أنفسهم من التشيع للإنصاف، وتخويل كل ذي حق حقه.

ويضيق المقام عن تعداد المآثر التي نجمت عن تصرفات دولة الحماية من التنظيمات وسن القوانين:

لَوْلاَ الشَّرَائِعِ وانْتظَا *** مُ أُصُولِهَا هَلَكَ الوَرَى

وإنما رجعنا بالأصل الذي هو العلم، لكونه مفتاح تقدمات الشعوب على اختلاف الأنظار في جميع الأعصار والأمصار، وإذا كان ذلك هو راموز مساعي الدولة الحامية بين طبقات هذا القطر المحروس، فلا نعجب من اشرابات سائر طبقات الأهالي من حاكم ومحكوم إلى الانصياع لمحجة الهدنة والسلم، وعلى الأخص تطهير نواياهم من كل دنس، حتى لقد أصبح الأهلي يلهج في كل ناد بأية منقبة تظهر على أيدي رجال الحكومة المحمية، وكله من آثار الطريقة السياسية التي انتهجها الرجل الخطير مسيو كمبون [1] عند اجتيازه بهذه الديار، وإتباع أخلافه له في ذلك، فما منهم إلا وأعرب بلسان الصدق في كثير من

(1) بول كمبون (Paul Cambon) المقيم الثاني بتونس من 1882 حتى سنة 1886

المناسبات عن النوايا الخيرية التي ترشح بها الدولة الجمهورية، نحو العنصر الأصلي بالبلاد المحمية، ولقد أصابوا غير مرة في انتصارهم للأهالي في مسائل يخشى منها العبث بشعائرهم الدينية، وعوائدهم التاريخية، لكيلا يمس ناموس هيكلهم الإسلامي، بما استوجبوا عليه شكرا جزيلا، كثيرا ما أعلنا عنه في أعمدة هاته الصحيفة، وحيث إن من الواجبات الإقرار بالفضل لذويه لم نتمالك على الاصداع به في هاته المرة.

ولنتخلص منه الآن، حسب فكرنا القاصر، عما يظهر من الغيم في أفق السياسة الاستعمارية التي تعاطى بعض المغرضين [1] في الظروف الحالية تحويلها عن مركزها الطبيعي، بما لا يلبث عاجلا أو آجلا أن يدفع دولة الحماية في تيار ريح سياسي جديد، يريدون إثارته على تونس، بما يلائم مصالح عددهم الزهيد، ويعبث بمصالح أمة كاملة متناسلة أبا عن جد، إن لم نقل عجنت طينتها بماء طهور من تربة هذه البلاد.

ونحن بإزاء الإشاعات المقلقة التي تبثها ألسنة المغرضبن، وتنقلها جرائدهم، وتظهرها أفعالهم، لا يسعنا إلا زيادة إحكام انضمامنا لمن تحققنا فيه الرجاء من نواب

---

(1) يعني بالمغرضين المعمرين الذين استولوا على الأراضي الخصبة في شمال البلاد ووسطها، وكانوا يعملون جاهدين على حرمان أهالي البلاد من موارد بلادهم،ومنعهم من الحصول على وظائف في الدولة، وتقديم العملة الأجانب في الأشغال العامة وقد لجأ هنا محمد ابن الخوجة إلى المقيم العام للوقوف إلى حانب الأهالي، وهي سياسة اتبعها جماعة الحاضرة مثل علي بوشوشة والبشير صفر وغيرهما، وتبين لهؤلاء المثقفين فيما بعد أن المقيم العام انتصب في تونس للدفاع عن مصالح المعمرين، فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار، أو كما يقول المثل العامي التونسي: (هرب من القطرة جاء تحت الميزاب).

الدولة الجمهورية، حيث يجب أن يكون هو الفرد الذي إليه المرجع في المهمات، لسائر العناصر الآهلة لهذا القطر، وإلا ينحرف المزاج، وتعز طرق العلاج، ولذلك فإنا نتلقى بعلائم الاستضعاف ضروب الشعوذة السياسية التي أوقف عليها المغرضون صحفهم [1] لتضليل الأفهام، وتوغير الصدور بالباطل، إذ لا رجاء ولا مطمح لأصحابها إلا البلوغ لأرب وحيد، وهو التربع على مصطبة العضوية السياسية بدار الندوة [2] حين يمكنهم فك المملكة التونسية من رابطتها الحالية مع وزارة الخارجية [3] وإدخالها

---

(1) من الصحف الاستعمارية التابعة للمعمرين تذكر لاتونيزي فرنسيز (La Tunisie Française) وكذلك (Le Colon) وغيرهما، والصحيفتان المذكورتان لزعيم الحزب ألاستئثاري فكتور دو كرنيار

(2) كانت في البداية حجرة تجارية، وقد حولها ماسيكو المقيم العام الثالث سنة 1891 إلى جمعية شورية، أي برلمان ينظر في مصالح المعمرين، من فلاحية وتجارية وغيرها، وينوب التونسيين في هذا البرلمان رؤساء المصالح الإدارية، وهم كلهم فرنسيون، بدعوى أن التونسي غير قادر على النظر في المصالح العامة.

(3) من المعلوم أن تونس كانت تابعة لوزارة الخارجية الفرنسية، في حين كانت الجزائر تابعة لوزارة الداخلية، لأنها فتحت عنوة، ولا بد أن تكافأ على مقاومتها للجيش الفرنسي بتضييق الخناق عليها،وذلك بالقضاء على سيادتها، وطمس مقومات ثقافتها، أما تونس فلم يجد الجيش الفرنسي أمامه مقاومة تذكر، ولهذا اختير لها هذا الاسم أي الحماية، وكان لها أن تحكم بسلطتين مزدوجتين، وإن كان الحكم الفعلي للفرنسيين كما قال بول كامبون: «حكم البلاد باسم الباي من أعلى مستوى إلى أدناه» وليس للباي من سلطة سوى وضع خاتمه على القوانين والقرارات، ولو كانت ظالمة للتونسيين، فلا فرق في الواقع بين استعمار الجزائر ونصب الحماية على تونس، بل أن فرنسا « تحصل على كل ما يلزم لضمان الاستغلال السريع، وبها تربح ود الأهالي الذين ستخمد عصبيتهم» (راجع علي المحجوبي: انتصاب الحماية الفرنسية بتونس ط تونس 1986 ص 163) وانظر كذلك الفصل المنشور هنا في المختارات بعنوان : التعريف بالحماية السياسية.

في طور جديد، تتقدم به في طرق الحكم الاستعماري، فتطول عندئذ أعناقهم للضرب على أيدي أولي الأمر، أو مشاركتهم في المصالح العامة، كما يحاولون لهذا العهد، ليتحكموا في مليون ونصف من الأنفس، حسب مشيئتهم وأغراضهم، ويثقلون عاتقه بالضرائب التي يخففونها على أنفسهم، يعاملونه معاملة بعض السواحين لزنوج خط الاستواء.

على أن التونسيين، وإن كانوا ممن اشتهروا بالمسالمة والنزاهة، إلا أنهم مع ما هم عليه من فهم مغزى حكمة (عاش من عرف قدره) لا يتأخرون عن كشف الخبايا التي انصاع إليها الفريق، الذي زيادة على مزاحمته لهم في وجوه الاسترزاق، أصبح يحاول خراب بيتهم، ولذلك فإنا نلاحظ هنا لكل من له هوس في دماغه أن لا يشيد قصور آماله، وأن لا يطمع، إن شاء الله، في صيرورة وأيلولة هذا البلد لما صارت وآلت إليه أخته الجزائرية: إذ نحن نعلم حق العلم كنه مقاصدهم، ومهيع سياستهم العوجاء التي كثيرا ما رشقناها بسهام التنديد، لأنا نعرف مبدأهم الذي طالما صرحوا به، وهو أنهم بما لهم من بث روح التمدن بين سكان هذا القطر، لا يجوز معاملتهم مثل أهاليه، وإلا فما هي مكافأة الأتعاب والأرزاق التي يصرفونها لتعمير هناشيرهم.

فأنت ترى، يا رعاك الله، طويتهم في هذا الوقت الذي ليس لهم فيه سلطة، وما بالك بهم يوم يخولون، كما تؤكد صحائفهم حق المشورة في الكليات والجزئيات معاذ الله

أن نعتقد أن وزارة الخارجية تضطر نائبها بتونس [1] الذي أحسن فيها الإدارة أن يشاركهم في الأمر، خلافا لما كان من أسلافه من النظر وحده بمشاركة رجال الحكومة في الأمور التونسية، وهو معنى قول المسيو كمبون عند مبارحته لتونس من أن الرجال تمر، والسياسة تبقى بدون تغيير.

انتهز المغرضون فرصة ظهور نازلة التنبر والتسجيل [2] فهيلوها وجسموها، واستخرجوا من غضونها أقاويل لا نخوض في صحتها، أم فسادها، وإنما نقول إنهم أولوها حسب أغراضهم، ونادوا بباريز لرفع أمرهم لدى وزرائها، وصارت رسائلهم التلغرافية تتقاطر من الصباح إلى المساء، بما يسمونه إصابة اجتهادهم ومفاوضتهم مع أهل الحل والعقد بها، حتى خيل لنا أنهم أحدثوا لأنفسهم حكومة صغيرة حذو حكومة الحماية، فردّدت جرائدهم المنتسبة إليهم، هنا وبالخارج، صدى أحاديثهم، وبالغت في ذلك المبالغة التي يدحضها حتى الصبيان، مؤملين بذلك الانتقال من المهم إلى الأهم، فيما يستقبل من التنظيمات والتراتيب الجديدة، بما لهم من حق المشورة في نوادي الجمعية الشورية التي تقرر أخيرا اتساع نطاقها، وهي أي الجمعية الشورية، وإن كانت عديمة التنفيذ إلا أن قراراتها في غالب المسائل التي تطرح للنظر لديها تبرز إثر ذلك رسميا للخارج بأوامر دولية، تجري أحكامها على الأهالي،

(1) يقصد المقيم العام روني ميي المقيم الخامس بتونس(1894 – 1900)

(2) انظر تفاصيل القوانين الخاصة بالتنبر والتسجيل في صحيفة الحاضرة في افتتاحية لعلي بوشوشة ع 381 بتاريخ 14 جانفي 1896

ولو في الأمور التي هي مختصة بالتونسيين، كالمجابي وغيرها، مع أن العنصر الأهلي ليس له نائب طبيعي من جنسه، يدافع عنه فيما يتعلق به.

نعم إنه إلى حد الآن لم تحدث، ولله الحمد،أضرار بالتونسيين، ولكن الفضل في ذلك عائد لعمدة الدولة الجمهورية وأعوانه رؤساء الإدارات، ومع ما لنا من الثقة بهم والإقرار بالفضل، وترداد عبارات الشكر عن عملهم، لا نجزم بأن ذلك كافل بالمحافظة والمدافعة عن الأهالي، فيما يستقبل من الأزمان، سيما وأن هنالك من النزلاء [1] الذين لهم نواب بالجمعية الشورية من ينظر إلى الجنس العربي بعين المسكنة والاحتقار.

وعليه فمن الإنصاف أن من أوكل الله إليهم مصلحة جمهور التونسيين أن يسعوا في تحديد نفوذ نواب النزلاء، بأن يكونوا مقتصرين في مشاوراتهم على النظر في المسائل التي تهم صالحهم، لا التداخل حتى في التي لا تعني إلا المسلمين، وهي عين السياسة التي صرح بها جناب المقيم في خطابه، بمناسبة رأس العام، حيث أنكر على البعض سعيهم للتداخل في الأمور التي لا تعنيهم، ولا مشاركة لهم في مسبباتها، وإن كانت الأخرى فمن الواجب شرعا أن لا يحرم الأهلي من المشاركة بالنظر فيما يسمى مصالح بني جنسه، وإلا فلا إنصاف ولا اعتدال، فإن قيل أن التونسي لم تؤهله تجاربه ولا معارفه، بل ولم يرضع لبان التربية

---

(1) النزلاء جميع نزيل، والنزيل هو المعمر عند جماعة الحاضرة، وزعيمهم دوكرنيار، كما ذكرنا أعلاه.

الأروباوية التي تكفيه للمجادلة في مجلس أروباوي، فالجواب أن التونسي، وإن لم يخترع إلى الآن آلة كهربائية، أو يَطِرْ بالمنطاد في قمة الفلك، أو يفهم السر المكتوم في مناجم الفسطاط، إلا أن عنده من بني جلدته من لم يعدم فهم وإدراك مصالحه الضرورية، بلغت ما بلغت.

وبالجملة، ومهما كانت الحال،لا نبتغي تبديلا في منهاج السياسة المستقيم الذي اختطته حكومة الجمهورية، منذ خمسة عشر عاما، بما زاد في نفوذها، وارتاحت القلوب بسببه لأعمال وزرائها، وعلى الأخص وزيرها الحالي، الذي تمحضت آراؤه خيرا، واهتدى بنفسه بالمعاينة، وليس الخبر كالعيان، لإدراك حقيقة التونسيين، من أميرهم المحبوب ورؤسائهم الدينيين والسياسيين إلى أحقر حقيرهم بأحسن أسلوب.

وإن من أكبر المضرات الموهنات لشوكة الإدارة تداخل أناس، لا علاقة رسمية لهم في المصالح التي تخص الأهلي الذي عقد الرجاء في ناصية من تأكدت عنده ثقته من أهل العفة والإنصاف، وهذا من أسرار معنى العمران، ومن أحسن وجوه العدالة التي تخدم النفوذ الفرنسوي، ولا نظن أن منصفا يحيد عن اقتسام هذه الأفكار إلينا: إذ نرى من مصادقتنا للحكومة الحامية بسط هاته الأفكار لدى أصحاب الأنظار من أهل الاعتبار:

كُلٌّ يَجُرُّ النَّارَ نَحْوَ قُرْصِهِ

أَيْ يَطْلُبُ الخَيْرَ لأَجْلِ حِرْصِهِ [1].

---

(1) الحاضرة ع 385 بتاريخ 11 فيفري 1896.

مـراكــش :

بشرتنا أخبار المغرب الأقصى، باستتباب الراحة بسائر أرجائها، ما عدى حدوث بعض حوادث تافهة، كادت أن لا تذكر، وذلك بما صرفت الحضرة الشريفة السلطانية [1] من الهمة في إسداء العدل، وتمهيد السبل، وقمع جماح المفسدين، ومراقبتها بواسطة وزيرها النصوح الغيور لأعمال العمال والمتولين، وتسديد سيفها الصقيل لقطع دابر أهل الغي والفساد، من القبائل التي كانت شقت عصا الطاعة في وجه الحكومة بدسائس، يعلم الله مصدرها والراسخون في العلم، بحيث ان الأمنية أصبحت اليوم ضاربة أطنابها، ويد الحضرة السلطانية تعلو أعالي البلاد، على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم، بما لم يبق معه للمرجفين من أهل الأطماع التي طالما خابت مساعيهم وسيلة يشوشون بها في التاريخ على رجال الحكومة المراكشية، وإذا منّ الله بدوام هاته الحال فالبشرى البشرى للذين مدوا يد الإسعاف لخدمة وطنهم، والمحافظة على قطرهم المحروس.

فَبَشَّرْتُ آمَالِي بِمَلْكٍ هُوَ الوَرَى

وَدارٍ هِيَ الدُنْيَا وَيَومٍ هُوَ الدَّهْرُ

ومعلوم أننا على بعد الدار لا نضيع فرصة أبدا لاستطلاع أحوال تلك البلاد المحمدية، خدمة لله خالصة للمسلمين، لا نبتغي عليها جزاء ولا شكورا، وهي أحلى عندنا من المن والسلوى، لا يردنا راد عن مسلكها القويم، ولا يصدنا أحد عن اتباع منهجها المستقيم، إذ هي سجية غريزية، يضعها

---

(1) حكم المغرب في هذه الفترة مولاي عبد العزيز من 1894 حتى 1908

الله في رأس المسلم، من يوم نزوله من ظهر أبيهن إلى أن يركب ظهر النعش، وتبقى في عقبه إلى أبد الآبدين.

إذا تقرر ذلك لاغرو أن عدنا اليوم للكلام على مملكة مراكش، بما وقفنا عليه في صحفها الواردة مع البريد الأخير: إذ هي كلها تحوم حول دسائس الانكليز لمقاصد معروفة، فمنها، أن أعوان السوء بطنجة من هذا الجنس الذي أبقى أسوأ ذكر، حيث حل، يتهافتون من الصباح إلى المساء على اختلاق الأراجيف، ويطيرونها كالبرق الخاطف إلى جرائدهم، فتذيعها وتشيعها بين سكان المعمورة، لتضليل الأفهام، واليك راموزا من ذلك، مصدره من جبل طارق، ومؤداه: أن الأحوال بالمغرب أمست مضطربة، إذ أن جميع الرعايا شقوا عصا الطاعة في وجه حكومة الحضرة السلطانية، وان الجند ثار لعدم اتصاله بمعاشه، بحيث أن كل المملكة في هيجان عظيم، وهذا خبر لا أصل له البتة، ولم يحدث منه، ولله الحمد، ولو جزء يسير، لما أن الراحة سائدة، كما قدمنا بسائر أنحاء البلاد، ولا قصد من ذلك إلا التمويه على العموم بأوروبا، وبانكلتيرة خاصة، فتنادت عند ذلك جرائد لندره بالويل وبالثبور، وتطلب قذف الأساطيل الضخمة، كما صار لمدة شهرين، فتسير الدوارع والبوارج الانكليزية ماخرة خضم الطم، وترسى لدى طنجة متهددة لمملكة كاملة، متهمة إياها بالظلم والاعتداء، ناظرة للقذا الذي بعينها، غير حاسّة بالعامود الذي بجفنها هي، فتخشى إذ ذاك بقية الدول، على علمها، من تلك الدسيسة، لأن تتداخل انكلترا في أمور المغرب تداخلا لا يعنيها، فترسل هي أيضا أساطيلها، ولا ينتهي ذلك الحادث الذي مبناه الأغراض إلا بعد أن يصير الولدان شيبا.

ولن يتنامى هذا الخبر الذي كذب، ومزقت صحائفه كل ممزق حتى استنبط الانكليز خبرا أشوم منه، وهو ظهور داء الكوليرا بالمغرب، مع أنه اكتشف لدى البحث أن الوفيات المشكوك فيها كانت أمراضا شاذة، ليست من نوع الكوليرة أصلا، وانظر ما ستجود به قرائحهم من الأخبار المقلقة، بعد ذلك إذ الانكليز كما لايخفي لا يملون من السعي، ولا يرون في الهدوء راحة، ولا يقول أحدهم إنني كبرت عن عمل شيء، فلا يزالون دائبين كالنمل مادامت فيهم نسمة تتحرك.

ولم نختم تحرير هذا الفصل حتى وقفنا بعدد 644 من جريدة (الرفاي دوماروك)[1] على واقعة حدثت في أيام المولد الشريف، ملخصها أن الحضرة الشريفة السلطانية جلب لديها ثلاثة من رؤساء الفتنة التي كان التهب سعيرها بمساعيهم الضالة في فريق الرحامنة، فأمرت بسجنهم إلى أن تحيلهم على مجالس الحكم، ولكن توصل أحد أولئك الضالين إلى الفرار من محبسه، والتجأ لدار يهودي محتمى انكليزيا، فأخذه اليهودي عنده، ورفض تسليمه لأعوان الحكومة، إلى أن افتكوه من حرمه غصبا، وأعادوه للسجن، فلا يبعد والحالة ما ذكر أن هذا الحادث الطفيف يهتز له سفير انكلترا بالمغرب، ويسجل على الحكومة المراكشية، بدعوى انتهاكها لحرم أحد أعيان الرعايا الانكليز، بان يقول لها قد غاض بحر الكرم، ودكت أركان المعالي، وفرت أزهار الفضائل، وأفل نجم الهدى، وخسف بدر المجد، وكسفت شمس الفضل للتعدي الذي أصاب ذلك اليهودي ... المحترم، ثم لا يزال يطلع حتى يصل إلى

---

(1) Le réveil du Maroc

الفلك الأثير، فيعدد جميع ما هنالك من النجوم، ويسلخ منها مدرعة، يرسلها لحماية... المسكين، الذي رأى نفسه أعدل وأحب في الإنسانية من الحكومة المراكشية، حتى يتنازل، لأن يسلم لها أحد رعاياها المسلمين، ولو جئت أيها الهش البش الطلق المحيا الباسم الضاحك لأن تقنع انكلترا بأن اليهودي هو المعتدي في هاته النازلة، وليست الحكومة المغربية، لما أقنعته بمثل هذا، استكبارا وعنادا، مترقيا إلى أن تلك الفعلة مخالفة لأصول وقواعد الإنسانية، التي سلم الله راية حمايتها بيد انكلترا[1]، ولو فرضنا أنه بينما يدجل عليك بتلك التمويهات الشفقية تمر به امرأة فقيرة حافية، تحمل رضيعين، وعلى وجوه جميعهم سمة الذل والجوع، لم يختلج قلبه رأفة، لأن يجود عليها بثمن رغيف، حيث يعلم أن المرأة لا جرنال لها، تكتب فيه اسمه، وتنشره بين العالمين [2]

أخبار الجن بأوروبا :

قد كنا سمعنا في السنة الفارطة بأخبار وجود الجن في باريز، وبتنكيده صفو عيش بعض سكانها فأضربنا صفحا عن نقلها لحضرات القراء، حيث لم نعرها إذ ذاك جانبا من الأهمية، لعدم وثوقنا بصحة روايتها، واليوم وافتنا أخبار قطعية من ذلك القبيل من بعض ثقات الفرنسيين، بل وفي

---

(1) كثيرا ما ينتقد جماعة الحاضرة سياسة الحكومة الانجليزية انتقادا لاذعا، وذلك لأنها سياسة مخادعة وماكرة كما يرون، وخاصة من حيث اخلافها للوعد، فقد وعدت بالخروج من مصر، ولم تفعل.

(2) الحاضرة ع 365 بتاريخ 24 سبتمبر 1895.

بعض الصحف المعتبرة أيضا كالماتان [1] وغيره، فأحببنا عقد مقالة في هذا الأسبوع الذي لم نر فيه أخبارا مهمة للجرنالات، حيث إن معظم ما فيها هو تكرار لما أسلفنا نشره، وإن كان هو مهما في أصله، فإعادة ترجمته إلى هاته اللغة المبنية على الاختصار يعد من الإسهاب الذي لا فائدة فيه.

ولذلك نقول إن غالب الإفرنج، وإن كانوا بلغوا الدرجة القصوى في كثير من المصالح الدنياوية بشدة حزمهم وممارستهم للعلوم، فأقبلوا على الصنائع حتى أتقنوا جميعها، فلان لهم الحديد، وسائر ما صلب من جواهر الأرض، وأتقنوا النجارة والخياطة والصبغ والتصوير والنقش العجيب الذي كان من خصائص العرب، وكل ما يمكن للإنسان أن يتعاطاه من أسباب المعاش كالحراثة والزراعة والتجارة ونحوها، حتى أنهم ليبرزون النحاس في بهجة الذهب، والقصدير في رونق الفضة، إلا أنهم أنكروا، بسبب إقبالهم خاصة على تلك الظواهر الدنياوية توابع العقائد الدينية، كوجود الملائكة والجن والشياطين، مع أنها مذكورة في كتب العهد القديم والعهد الجديد، قبل نزول القرآن بأحقاب بعيدة.

واستمروا على إنكارهم هذا، مع كون علمائهم تكلموا عليها ببعض مصنفاتهم، فلو فتحنا مثلا جزءا من دائرة المعارف للطبيعي شفروي [2] العالم الفرنسي نجد بباب (السين) فصلا طويل الذيل في هذا الموضوع حكى فيه المؤلف حقيقة الروحانية

---

(1) من الصحف المشهورة في فرنسا في ذلك العهد.

(2) اوجين شفروي (1786 – 1889) عالم فرنسي في الطبيعيات وحرف السين يعني أول الكلمة باللسان الفرنسي Spiritualisme

في نظره، ثم شرحها فقال: إنها أمور تشبه السحر، ولها أثر في التواريخ العتيقة، وأول من اشتغل بها في أوروبا الفيلسوف كلانويل [1] الانجليزي الذي جاء بالعجب العجاب في أصناف السحريات والخنقطرات أواسط المائة السابعة عشرة للميلاد، كما كتب فيها أيضا غيره.

لكن بقي الناس فيها بين مصدق ومكذب إلى أن ظهر ببلاد السويد راهب يدعى سويدنبورغ الفيلسوف فزاد في شرحها، وزعم للناس أنه يتكلم مع الملائكة، ويعلم الغيب إلى غير ذلك مما لا قدرة للبشر عليه، وتوفي هذا الرجل بعاصمة لندرة سنة 1772 وبقي أمر الجن بعده عند الفرنج مسكوتا عليه إلى سنة 1828.

ففي ليلة 24 مارس من تلك السنة بينما كان فوكس الأمريكاني وأهله وبنيه يتجاذبون أطراف الحديث: إذ سمعوا بإحدى قاعات بيتهم حركات قرع مهول، لها دوي كالرعد القاصف، لا يقدر على فعلها الجمع العظيم من الرجال، فانذهلوا واندهشوا رعبا، ولما توجهوا في غدهم لمعاينة محل الواقعة لم يجدوا به شيئا زائدا على العادة، واستمر جنّيهم أو جنونهم على تعاهدهم بمثل تلك الأعمال المفزعة الى أن عيل صبر فوكس وأهله، وبارحوا الأوطان قاصدين السكنى ببلاد منشستر بجزيرة انكلترا، ولأول ليلة باتوا فيها سمعوا أيضا حركات رفقائهم الذين لا يرونهم، فأيقنوا أنهم جاؤوا معهم إلى وطنهم الجديد.

وبقي فوكس حيران أسفا، ولما عاد بعض أهله لأمريكا في

---

(1) كلانويل : فيلسوف انجليزي (لم نعثر على ترجمته).

سنة 1850 اشتهر خبرهم، وتناقلته الصحف إلى أوروبا، فأخذ العلماء عندئذ في ضبط حقيقة الجن، وفي أوائل العام الفارط كثر الكلام على ظهور الجان بباريز، واستغاث المصابون بالبوليس، فلم يجدهم نفعا، وفي هذا العام تفاقم أيضا أمره حتى أن أعوان الضبط صاروا يهربون ممن يأتيهم شاكيا تعدي الجن.

واليك تلخيص ما جاء في هذا الغرض بصحيفة الماتان في الأسبوع الفارط، قال الراوي: إن الدار التي عددها 20 نهج لاسورديار في باريز صارت مأوى للجنون، فلن ترى فيها سوى القدور تلعب وحدها بالمطبخ، وتسير ذات اليمين وذات الشمال، والمصباح يدور فيعمل شوطا محكما، يبقى أثره ظاهرا بالزيت فوق المائدة وهلم جرا.

ولذلك فقد توجهنا لسؤال المسيو ليماري بمحله، وهو رجل يشتغل بعلم الروحانية، فاطلعنا على صور أناس أقدمين، زعم أنه يكلمها وتكلمه، منها المسيح، والبنت جان دارك [1] وغيرهما، ثم قال لنا: إنه من المقطوع به أن الدور التي نقلتم لي ما حل بها يوجد بها الجن، وبينما نحن في أثناء الكلام معه حتى سمعنا الجنون تتكلم، وتقول : أنتم لا تصدقون بوجودنا فهلا ترون أعمالنا، وما راعنا إلا أن نظرنا منهم العجب برقص الفوانيس، ونزول المعلقات من الجدران، وما شاكل ذلك.

ولهذا فقد تعين علينا أن نعترف بوجود أشخاص مجردة بين

(1) جان دارك (1412 – 1431) فتاة فرنسية اشتهرت بوطنبتها، حاربت لتحرير بلادها من الانجليز، قبض عليها، واحرقت في روان

عالم الأرواح والأجساد البشرية، سيما وأن هاته الروحانيات صارت كثيرة الظهور، فوجودها اليوم صار يقبله العقل، وخصوصا أننّا نجد لها أثرا بالكتب العتيقة، فمن أدلة وجودها الحالي ما علمناه قريبا، من أن دارا بمقاطعة السين بفرنسا كانت ترمى بأنواع الحجارة والفحم الأرضي مدة سائر أيام شهر ديسمبر عام 1890 ولم يقدر البوليس على اكتشاف الفاعلين، وأنه بينما كانت امرأة من تلك الدار بيدها قطعة من الصابون إذ انتشرت تلك القطعة من بين يديها، وسارت نحو شباك البيت، فدخلت منه، ثم خرجت من بابه، ثم عادت إلى الشباك، ثم إلى باب البيت، وكررت تلك العملية مرارا، حتى بقيت المرأة المسكينة مندهشة، خوفا ورعبا، وكانت مغارف الدور في موضعها، فلما جاء أهل البيت للبحث عنها وجدوها قطعا حديدية لتنعيل الدواب، وكانت مواعين المطبخ تتكسر وحدها شيئا فشيئا إلى أن بقي منها وعاء واحد اختطفته الجنون آخر الأمر قسرا من يد ربة البيت، وكان أهل الحومة يشتمون في طريقهم، ويضربون، ولا يجدون غرماءهم.

وفي بلد كمبير تمكنت الجنون من راعي غنم، وأوسعته ضربا مبرحا، فكلف كبير الجندرمة بالبلد بإجراء بحث في نازلة المسكين، فجاء للجندرمي وكسر له غليونه في نصفين جزاء له، وعمد إلى معينه في البحث فلطمه، حتى بقي على وجهه أثر اللطم.

ومع وجود هذه العمليات عند الإفرنج فإنهم يؤولون بأن الفاعلين لها هم روحانيات القوم، أو آثار عمليات مغنطيسية، ويحتجون على ذلك بوقائع أخرى غريبة، كخروج أحد الضباط الذين ماتوا بالطونكين يوما لزوجته في بيتها بفرنسا،

وكان لابسا ثيابه التي يحملها في المواسم، ووقف لديها، ولما كلمته غاب عنها.

ومما زاد الباريسيين تحييرا انتصاب امرأة من أهل الفن للإتيان إلى نفس بيتها، فعين أشخاص مشاهير الرجال الذين ماتوا من منذ زمن بعيد، فقد ثبت بالنقل الصحيح أنها عزمت ذات ليلة بمحضر أناس نبهاء، فما راعهم إلاّ أن انشق جدار البيت، وخرج منه رأس الطبيعي فولتير الفرنسي الذي مات من نحو مائتين وخمسين سنة، فتبسم في وجوه الحاضرين، ثم غاب عن الأبصار، فبقي القوم بين مستعجب ومستغرب.

وقد ناسب أن نذكر هنا مسألة أخرى، وهي تأثير العين، فلو نقلنا مثلا لأروباوي ما حكاه العمدة القرافي [1] في الفرق242 من فروقه من أن بالهند جماعة إذا وجهوا أنفسهم لقتل شخص مات، ويشق صدره فلا يوجد فيه قلبه بل انتزعوه من صدره بالهمة والعزم وقوة النفس، ويجربون بالرمان، فيجمعون عليه هممهم، فلا توجد فيه حبة، كما نقل أيضا أن هنالك من يصيد بعينه الطير في الهواء، ويقلع الشجر العظيم من الثرى، لما اعتقد ذلك، هذا ما سنح لنا نقله لحضرات القراء في هذا الموضوع الذي اتجهت إليه اليوم بباريز الآذان والعيون، منتظرين ما يفد علينا مستقبلا من أحاديث الجنون[2].

---

(1) شهاب الدين أحمد القرافي الصنهاجي فقيه مالكي مشهور، توفي بالقاهرة 1285/684 من كتبه (أنواع البروق في أنواء الفروق) في أصول الفقه ط تونس 1884

(2) الحاضرة ع 226 بتاريخ 20 ديسمبر 1892.

صناعة الشاشية :

نشرت (الحاضرة) في عدد 362 [1] فصلا مسهبا بخصوص المعاهدات التجارية بني تحريره على مستندات تاريخية، وملاحظات جدية كان لها، ولله الحمد،أحسن تأثير في الدوائر العالية الرسمية، وكان من جملة المعروضات التي استلفتنا إليها نظر أولياء الأمور مسألة الشاشية الأهلية التي أخنى عليها الدهر، بسبب مزاحمة نظيرتها الأجنبية التي تتقاطر علينا تقاطر الذباب على الشراب من يوم أمضيت المعاهدة النمساوية التي تكرم بها رجال الحكومة التونسية في عام 1272 للهجرة [2] على دولة إمبراطور النمسا والمجر.

وحيث إن نقض تلك المعاهدة، وإن كان هو من الأمور التي في استطاعة الدولة الفخيمة الجمهورية لا يسوغ في الأوقات الحاضرة لأسباب سياسية جديرة بالاعتبار، استصوبنا مداركتها لما لدينا في ذلك من المعلومات الخاصة، فقد تعاطينا امتحان مسألة الشاشية، وعرضها على محك النقد من جهتها الاقتصادية الداخلية، جريا وراء مقاومة بعض الداء بالعقاقير الناجعة النافعة التي وفق الله لمناولتها إيانا رجال حكومتنا المحروسة، وهي وسائل سيكون لها بإعانة الله أعظم نفع في معالجة الحالة الراهنة، خصوصا مع

---

(1) يقصد مقالة (المعاهدات التونسية) الحاضرة ع362 بتاريخ 27 أوت 1895.

(2) 1272 هـ/1855م.

ما للشاشية التونسية من الشهرة القديمة التي لم يزل يتضوع شذا صداها منذ أحقاب، بغالب أطراف المعمور الإسلامي.

وقد طلبنا من بعض الذوات الذين لهم اعتناء زائد بهاته المسألة، مع ماله فيها من الصوت الراجح، أن يشرح لنا فكره في هذا الخصوص، فتفضل علينا بجواب مقنع جاء جامعا لأشتات هاته النازلة، وللوسائط الحسنة التي في نظر الدولة إبرازها لوقاية صناعة الشاشية التونسية، وإنقاذ أهلها من ربقة السقوط.

قال جنابه بعبارات نفيسة: إن صناعة الشاشية من أهم الصنائع، وهي الآن محط أنظار الدولة، لما لها من مزيد الاعتناء، بإحيائها من دون أن تغير أساليب صنعها المعروفة، حيث إن تلك الأساليب هي التي خولت للشاشية التونسية شهرتها المعروفة، وجعلتها أحسن من نظائرها الأجنبية، وإنما الإصلاح المقصود إجراؤه ينحصر في آلات الصنع ومستتبعاتها، لما أن الآلات العتيقة الموجودة الآن بالباطان غير صالحة، خصوصا وأن كيفية انتصابها لا خير فيه، لما أنها تستدعي لدورانها في الصيف كمية من الماء أكثر من التي توجد بوادي مجردة عند اشتداد الحر، وفي الشتاء يطغى عليها الماء، فيهلك جانبا منها، بما ينشأ عليه دائما إصلاحات مستمرة، ومصاريف باهظة، وإضاعة وقت نفيس.

هذا وقد ظهر من الفائدة للدولة المحروسة أن تصلح تلك الآلات، وتوابعها من صناديق ومطارق إصلاحا نهائيا، ولكن بما أن ذلك الإصلاح يستدعي زمنا طويلا، وينشأ عنه ضرر يسبب توقيف أعمال الباطان، فإن إدارة المال بهمة

جناب مديرها الحازم تكرمت بنصب آلة تدور بالبخار في إحدى محلات كمرك الدخان، ليتعاطى بها الشواشية تحضير شاشيتهم على الأسلوب المعروف، فاشمأز لذلك أصحاب الشاشية بادئ بدء، لأوهام باطلة خامرت أذهانهم، ولم يقع إلا إقبال زهيد على ذلك من لدن الذين رجحت موازين عقولهم، ولكن لم يلبث الجميع حتى انبلج في وجوههم صبح النية الطيبة التي لاحت للدولة، وذلك لما رأوا من الآثار الحسنة السريعة الفائدة في صنع الشاشية بذلك المعمل البخاري، الذي يصنع في أسبوع أضعاف ما يصنع الباطان في المدة نفسها، وعندئذ نبذوا أفكارهم الأولى ظهريا، وجاؤوا يطلبون نصب آلات أخرى بخارية حذو الأولى، والمظنون أن الدولة ستتفضل عليهم بذلك.

أما معمل الباطان فستجري به الإصلاحات اللازمة، ليمكن بعد ذلك إشغاله بصفة مستمرة في سائر فصول السنة، من دون أن يقع فيه أدنى أضرار، أو يستدعي أي خسارة كانت، وبذلك يمكن للشاشية الأهلية في المستقبل، مع ما لها من الشهرة التاريخية، أن تجاري الشاشية الأجنبية التي نسبتها من نظيرتها التونسية كنسبة واحد من عشرة.

وقد أعرب جناب المكلف بمصالح فرنسا في تونس عما له من الاهتمام بهاته المسألة، فتوجه بنفسه صحبة جناب مدير المال، وجناب المراقب المدني النائب المفوض بالكتابة العامة، إلى سوق الشواشية، وزار بعض دكاكينهم، واستفسر أهل الصناعة عن تفاصيل صناعة الشاشية من يوم اشتراء صوفها إلى صيرورتها تباع للعموم، فأعطوه في ذلك الإفادات التامة، حتى ازداد جنابه بذلك رغبة في تعاطي

أسباب ملافاة هاته الصناعة الشريفة من وهدة السقوط، وترجيعها إلى أوجها القديم.

هذا ما أمكننا جمعه من الإفادات التي لا نشك في إدخالها سرورا زائدا على صانعي الشاشية، والمرجو منهم أن يعينوا بما في وسعهم رجال الدولة على المقاصد الطيبة التي تختلج نحوهم بأفئدتهم : إذ بذلك يبينون عن تقدم أفكارهم، وسعيهم في سبيل الإصلاح التدريجي الذي يمهد لهم للمستقبل طريقا رحبا، يخول لهم حق الخروج من منطقة السكون والرضاء بالقليل، إلى طور الحركة النافعة الموصلة لكل أثر جميل، وعليهم المسعى والله نعْم الوكيل[1].

كتاب جامع في أحوال تونس 1 :

كنا اخبرنا بإجمال في احد أعدادنا الفارطة عند عقد المؤتمر العلمي بتونس خلال شهر أبريل الفارط [2] بأن جناب العالم النقادة، طويل الباع في فنون المعقول والمنقول، المسيو ميلي سفير فرنسا بتونس، وضع كتابا، أعانه على جمعه رؤساء الإدارات، وأهل الخبرة من كل فن، أتى فيه على تفصيل أحوال المملكة التونسية، ولم يسعفنا الحظ بالإطلاع على ذلك التأليف الجامع الذي أهداه إلينا اليوم بعض المتوددين إلى الإسلام، والساعين في تدعيم أركان الوفاق المتين، الذي أصبح جامعا للجانبين،

---

(1) الحاضرة ع 364 بتاريخ 17 سبتمبر 1895.

(2) شهر أفريل 1896

ولذلك رأينا من تمام الفائدة أن لا نضيع هاته الفرصة الثمينة، ونأتي على هذا التعريف بهذا التأليف الذي هو من الإفادة بمكان، سيما وأنه جاء جامعا لكثير من النوادر التاريخية، والأخبار التونسية من غابر الأزمان إلى منتهى سنة1313 الفارطة [1].

افتتح المؤلف كتابه بخطاب جمع بين بلاغة قوله المعروف، وبين الحكمة التي ينعت بها أمثاله، بيّن فيه أسباب ترقيات المملكة، ثم قال: وقد وقع التحفظ على احترام حقوق الملك بتونس، مع بقاء الامتياز الاستقلالي للبلاد، بمشاركة أهاليها في المصالح العامة، بما يقتضيه قانون المجازاة والمسؤولية، وقال بعد ذلك: وقد أبقينا النظامات التونسية، بل وأعنّا على تحسينها، فجعلنا الأهالي لنظر كبرائهم، تحت حكم حكامهم، يتلقون العلم من أفواه مدرسيهم، وزيادة على ذلك وسعنا لهم مجالا في ميدان الحياة العمومية، بتشريكهم في الدفاع عن حوزتنا، وعاملناهم معاملة تحالفية، لا معاملة غالبية.

ثم بعد أن بين المؤلف وجوه تقدم هاته البلاد شرع في التعريف بجغرافيتها، ثم بالبحث عن تربتها ومعادنها وكنوزها وحيواناتها ونباتها وهوائها وتاريخها وآثارها وقبائلها وعوائدها وشريعتها، كل ذلك مضمن بأفصح عبارة، مع إيجاز في القول مفيد، حواه الجزء الأول من الكتاب، وأتى في الجزء الثاني على نظامات المملكة التونسية، فبين أسباب الحماية الفرنسوية ومنافعها، وما نشأ عنها من نصب كتابة عامة، تكون هي الواسطة الفعلية بين السفير والإدارة الأهلية، مع ما لها من

---

(1) 1895/1313

حقوق المراقبة وتقرير وجه النصح، والمدافعة عن حوزة الأهالي، والنظر العام على سائر المصالح التونسية.

ثم تكلم على إدارة الأحباس، وأصل الوقف في الإسلام، مؤيدا كلامه بسرد الأحاديث الشريفة التي وردت في هذا الشأن، مع بيان فروع جمعية الأوقاف، وما كان أفتى به علماء الإسلام في تونس من تخصيص فواضل الحبس المثري، ليستعمل في مصلحة الحبس الفقير، ذاكرا لأصحاب تلك الفتاوى، مترجما عن طول باعهم في الفقه، وهم المفتون، مشائخ الإسلام : أبو عبد الله محمد بيرم الرابع [1]، وأبو عبد الله محمد ابن الخوجة، نور الله أضرحتهم.

ثم تكلم عن حال الأوقاف لهذا العهد، مقدما عاطر الثناء على همة وحزم الوزير المرحوم خير الدين، ثم أتى في الباب الخامس عشر من الكتاب على التعريف بالمحاكم الإسلامية من شرعية وسياسية وعرفية وتجارية، وبعد أن عرف بالشرع العزيز، وتركيب محكمته من مجلسين حنفي ومالكي، واستفرغ الكلام بخصوص بقية المحاكم الأخرى،قال في آخر هذا الباب: إن الدولة الحامية قدمت عربون الاحترام لهاته المحاكم، مع مراعاة حالة تحسينها، وزيادة تنظيم هيئتها، بدون أن تغير صدور أهلها، ثم دحض دحضا جديا ما يزعمه الأورباويون من أن شريعة الإسلام عقيمة (معاذ الله).

---

(1) بيرم الرابع توفي1278/1861 فقيه ومحدث وأديب تونسي أول من لقب بشيخ الاسلام

وجاء بكلام يدل على مزية إنصاف المؤلف وتضلعه في الأمور الإسلامية، رادا الأوهام، وأباطيل المغرضين بكلام نسبه لخاتمة المحققين، فقيد العلم والوطن مولانا شيخ الإسلام أبو العباس أحمد ابن الخوجة [1] قدس الله روحه.

ثم خصص الباب السادس عشر من الكتاب لترتيب العساكر النظامية من عهد المقدس مصطفى باي سنة 1252 [2] وما كان لابنه المرحوم أحمد باشا من الشهامة والشغف بالأمور العسكرية، حتى أنه سافر بنفسه لمطالعة نظامها بفرنسا، وترجم بعض كتبها المؤلفة بالفرنسوي، ثم ابتدع نيشان الافتخار، ليتحف به رؤساء عساكره، لتنشيط عزائمهم، وأسس مكتب الحرب بباردو، ومرسى حربي بغار الملح، وترسخانة بحلق الوادي، وقصورًا شامخة بالمحمدية، إلى غير ذلك من حالة العسكرية التونسية في القديم وفي الحديث.

وبعد ذلك شرح أصل تأسيس المحاكم الفرنسوية بتونس، وما كان قبل الحماية من الأمور العائقة التي يلتجئ إليها الأناس الذين لا خلاف لهم مع الأجانب، ممن لا طائلة للحكومة التونسية عليهم.

ثم تكلم على مداخيل الدولة، ونظاماتها الجديدة التي تضاعفت بها الموارد المالية منذ الاحتلال الفرنسوي، ثم عرف بمصلحة الأشغال العامة، وما قامت به من الخدمات

---

(1) شيخ الاسلام بتونس توفي 1892

(2) مصطفى باي تاسع بايات تونس الحسينيين، حكم من سنة 1835 حتى وفاته 1252/1837

النافعة للعموم، إلى أن أصبحت بلدان المملكة مرتبطة ارتباطا محكما، وسهلت أسباب المواصلات بنصب الجسور، ومد الطرقات، وبناء السكك الحديدية، وتأسيس المراسي، وتشييد الناظورات، وبناء المعالم، وكثير من الآثار النافعة التي لا ينكرها إلا مكابر معاند.

وخصص المؤلف الباب العشرين من كتابه للتعريف بحالة التعليم العربي، وبجامع الزيتونة عمّره الله، وبإدارة المعارف، والمدارس الفرنسوية، مع تضلع في معرفة ذلك المعرفة الكافية، الدالة على اهتمامه بالأمور الإسلامية، كنفس الأمور الأوروباوية بين جدران هذه الديار، فعرف بترتيب النظارة العلمية بالجامع الأعظم، وبحالة الدروس والمدرسين، والكتب المدرسة هناك، مع تفاصيل أخرى بشأن بيت مال المسلمين، وبالزوايا والمساجد، وبالمكتبة الصادقية، وبخزانة الكتب بجامع الزيتونة، ثم أعقب ذلك بكلام مفيد على إدارة المعارف، وما قامت به من الخدمات الوطنية، من بث الفنون الرياضية، واللغة الفرنسوية لتثقيف عقول الشبان على اختلاف أجناسهم ومذاهبهم وأطوارهم، وقال في خاتمة كلامه على الجامع الأعظم ما معناه : قد اتضح لدى القارئ أن بجامع الزيتونة ملكة علمية وثيقة، من واجبنا أن نمدها بالمساعدة والتنشيط، مع مراعاة مراقبة درجة المدرسين في العلم، وسيرة المتعلمين، وكيفية وقوع الامتحان، حتى لا يتخللها حيف، ولكن من واجبنا أيضا أن لا نتداخل في أساليب التدريس، ولا في برنامج علومها، حتى لا نوغر صدورا غرس بها مشروع عزيز عند أهله، مستمد من القرآن المجيد الذي لا يجوز أن يمس ببنت شفة.

ثم تكلم بعد هذا على الجمعيات الفرنسوية لتقدم العلوم والألحان، وتقوية الأعصاب البدنية بالرياضة الجسمانية، وضمن ذلك كلاما بليغا بخصوص مشيخة قرطاجنة العلمية، التي طالما نوهنا بشأنها في أعمدة هذه الجريدة.

وتكلم بعد ذلك على مصلحة الانتكاخانة، وما كان للوزير خير الدين من الاعتناء بالآثار العتيقة، والرسوم التاريخية التي أقام لها متحفا خصوصيا، بمنتزهه بمنوبة، ثم جيء بها للمتحف العلوي بباردو، مع ما جمع قبل ذلك بهمة سفارة فرنسا بتونس، وجناب مسيو روا، إذ كان قنصلا بالكاف، وشركة بون قالمة الحديدية، إلى أن صار متحف باردو في هذا اليوم من أجمل وأعجب المتاحف التاريخية.

وختم المؤلف الجزء الثاني من كتابه بكلام طويل الذيل على مصلحة البوسطة والتلغراف التي أصبحت محيطة بالمملكة إحاطة السوار المرصع باليد الجميلة، وسنأتي في عدد قادم إن شاء الله على تتمة شرح هذا الكتاب بالكلام على الجزأين الثالث والرابع، ونعود للجزء الأول لاقتطاف جمل مفيدة من خاتمته، تقع لا محالة موقع الاستحسان من قرائنا الكرام، لما احتوت عليه من غزارة الإطلاع لدى صاحب هذا التأليف، وإحاطته علما بالمسائل التونسية التي بيده مقاليدها، مع ميلانه للإنصاف وانتمائه للحق، وان كره المبطلون[1].

---

(1) الحاضرة ع 410 بتاريخ 11 أوت 1896.

كتاب جامــع في أحــوال تونس 2 :

جئنا في العدد الماضي بتلخيص، إن لم نقل، بزبدة ما في الجزأين الأولين من الكتاب الذي وضعه جناب سفير فرنسا بمشاركة أعوانه في أحوال المملكة التونسية، ووعدنا بإتمام الترجمة عما احتوى عليه هذا التصنيف الجزيل الفائدة، خدمة لحضرة القراء، ولمن يهمهم معرفة مكنونات هذه البلاد، سيما بالطريقة التي كشف عنها المؤلف النقاب، إذ هو اختصر في تأليفه تاريخ البلاد من قبل الميلاد إلى هذا العهد اختصارا مفصلا جاء في كل باب منه بغرض مستقل، كما بسطنا ذلك في مقالتنا الأولى التي ختمناها بتمام السفر الثاني من الكتاب.

وأما الجزء الثالث فقد قال مؤلفه في مقدمته بمعرض الثناء على خصابة تربة بلادنا ما معناه : بعد تكرر مصائب، تشيب لها نواصي الولدان، وحدوث معامع أظلم بها غير مرة جو البلاد التونسية، أمكن لها بالعيان اجتياز تلك العقبات والبروز في ثوب شبيبة جديدة، وما ذلك إلا لخصابة تربتها، ونقاوة هوائها، وتوزيع آلاء العدل في عرصاتها، كما أعربت عن ذلك في هاته الكرة الأخيرة دولة الحماية الفرنسوية التي قررت سلطة بنيها على أساس متين، بما كتبت على نفسها من احترام الشعائر والحقوق والعوائد والديانة بما كان له في قلوب الأهالي المكانة المكينة، ثم شرع بعد ذلك في الكلام بنشر مرتب على تربة البلاد وطقسها بتفاصيل جاءت بمنتهى الإفادة، ثم تكلم على ملك العقار فقال : إن الفرنسويين لما قدموا لتونس لم يجدوا بها تلك الأرض البكر الشاسعة الأرجاء التي يجدها المهاجرون بأمريكا وجزر الاقيانوس،

بل هم وجدوا جميع الأرض القابلة للحرث مشغولة بزرع ومواشي أناس لهم مدن حضرية، تدل عليها وفرة العمران في كثير من الجهات، كالساحل الذي يتجاوز فيه عدد الأنفس مائتي نفر لكل ميل مربع، ثم عرفنا بحقوق ملك العقار على عهد الرومان، وفي دولة الإسلام، مذيلا ذلك بكلام طويل في قواعد الفلاحة العربية، بما يدل على سعة اطلاعه، ثم تكلم على أنواع المغارسة، والانتفاع بالشجر المثمر، وخدمة الأرض، وزرع الحنطة والشعير ومتوسط مداخيل الفلاحين.

وجاء في الباب السادس من الجزء الثالث الكلام على تربية الحيوان ممتدحا لجنس الخيل العربي، والخيل في نواصيها الخير، كما تكلم أيضا كلاما وافيا على البقر والغنم وغيرها من الحيوانات الأهلية، وكيفية تربيتها عند الأهالي، وأفادنا في هذا الباب بأن عدد الخيول في هاته الديار بلغ في1323/ 1894الى 62771 رأسا، كما أفاد أيضا بأن عدد الابل يبلغ 130308 بعير.

وخصص الباب الثامن للكلام على الأشجار والنبات، ناقلا بما حكاه مؤرخو الإسلام في كتبهم من أنّ أفريقية كانت أشجارها مدهامة في القديم، بحيث إن ظلالها كانت ممتدة من ضواحي طرابلس إلى سور طنجة، غالبها من نوع الزيتونة التي يكاد زيتها يضئ قائلا : إن عددها يبلغ الآن إلى أحد عشر مليونا ومائتي ألف ونيف، منها أربعة ملايين عود في عمل سوسة وحدها، وذكر بعد هذا أن الفخر في تأسيس إدارة لغابة الزيتون يعود إلى المقدس حسين بن علي [1] مؤسس

(1) حسين بن علي أول البايات الحسينيين، مؤسس الدولة الحسينية.

بيت الملك التونسي، خلد الله بقاءه، وكان له مزيد اهتمام بضبط أمورها،لتوفير مداخيلها توفيرا ضمن سعادة رعاياه، وجاء على قدمه الوزير خير الدين فلم شعثها في سنة 1287 [1] بما أبقى لها أسا متينا، دام لهذا العهد، وزادت إدارة الفلاحة الحالية في تنظيم إدارة الغابة تنظيما يكفل بنجاحها.

أما الباب التاسع من الكتاب فقد خصصه المؤلف للكلام على العنب التونسي، وما هي حالته قبل الحماية وبعدها، وجاء فيه بتفاصيل مهمة على ما لكروم العنب من التأثير في نقاوة الهواء، وأعلمنا في هذا الباب بأن المساحة المغروسة بها في السنة انفارطة على ملك النزلاء الفرنسويين تتجاوز الستمائة ماشيا.

ثم تكلم في الباب العاشر على المقاتي بأنواعها، متعجبا من مهارة الأهالي في كيفية ري مغارسهم بالطريقة المعروفة بآبار (الغرغاز) [2] وحكى في الباب بعده على أصول الفلاحة الأوروباوية بتونس من عهد الحماية، وامتداد نطاقها، وارتفاع أسعار الأرض، وخصص الباب الثاني عشر للكلام على الأرض الموات التي تدخل فيها الغيب [3] الغير المثمرة بنص الشرع الإسلامي، متمما لذلك بالكلام على ما حصل بها من الضبط من منذ انتصاب إدارة خصوصية لها، حتى

باي تونس من سنة1705 إلى سنة 1835

(1) 1287/1870

(2) الغرغاز: آ نية من الجلد يستخرج بها الماء من البئر.

(3) الغيب هي الغابة

أن كمية الخفاف المستخرج من الغيب الشمالية صارت تبلغ ثلاثين ألف قنطار في السنة.

بعد أن استفرغ المؤلف الكلام على الأمور الطبيعية بالبلاد التونسية انتقل منها للأمور الصناعية، فابتدأ بالكلام على الصنائع الأهلية، ملاحظا أن من حسن السياسة تداركها، حتى لا تذهب في مهواة الاضمحلال، ثم عرف بتلك الصنائع، فابتدأ بالشاشية، وما كان لها من العز في القديم، وما آلت إليه اليوم حتى صار متجرها اليوم لا يتجاوز الأربعمائة ألف فرنك في السنة، غالبها يذهب للخارج، كالجزائر ومالطة واليونان والممالك العثمانية ومصر وطرابلس الغرب.

ثم تكلم على بسط (زرابي) القيروان، وما لها من الشهرة في البلاد الأوروباوية التي تشتري منها بأكثر من مائتين وخمسين ألف فرنك في السنة، ثم تكلم على سفاسر الجريد وجربة، وعلى بقية المنسوجات التي هي المورد الأعظم لكثير من الأهالي، حتى أن بلاد الجريد تصنع منها وحدها نحو الثمانية آلاف قطعة في السنة، وتكلم على صناعة الحرير والحياكة بالحاضرة، وعلى الصياغة، وعلى صناعة الفخار النفيسة المستمدة من لدن المئين الأولى، كما يشهد بذلك التاريخ الروماني، وتكلم بعدها على بقية الصنائع،وأطنب بالخصوص في الكلام على صناعة العطور والطيب والمستقطرات ذات الروائح اللطيفة المنعشة للنفس، وختم هذا الباب بالكلام على استخراج زيت الزيتون.

ثم خصص الباب بعده بالكلام على القوة الصناعية الأوروباوية، وما آلت إليه من التدرج في عالم الترقيات

التجارية الوقتية قائلا إن مناخ ذلك أصبح اليوم ببرج السدرية، ثم أطنب في الكلام في الباب الخامس عشر من هذا الجزء على صناعة الصيد في البحر، ومالها من الأهمية في غالب الشطوط التونسية، لما هنالك من أنواع الحيتان العجيبة التي خصّها الله بمياه بلادنا، مع وفرة عددها، حتى أن أرباح الحوت المعروف بالسردينة الذي يؤخذ من مياه طبرقة، يتجاوز النصف مليون في متوسط السنين، ثم تكلم على (طنارة) سيدي داود، وفرعها برأس الجبل، التي أخذ منحتها أحد أعيان الطليان من المرحوم أحمد باشا، وهي منحة ينتهي أجلها في سنة 1262 [1] ثم عرف ببقية الشطوط المشهورة بصيد الحوت، وتكلم بعدها على صناعة النشاف بمياه صفاقس وغيرها التي بلغ ثمنها في سنة 1894 مليون ومائة ألف وستين ألف فرنك.

ثم تكلم في الباب السادس عشر على أنواع المقاطع المعدنية التي بالمملكة، وبالخصوص على التي وقع الانتفاع بها باستخراج كنوزها، وختمها بكلام مفيد على مناجم الفسفاط (غبار ترابي) وبعد ذلك أنهى المؤلف الجزء الثالث من الكتاب.

أما الجزء الرابع فابتدأه صاحبه بالتعريف بحالة المملكة الاقتصادية، وبرهن على تقدم ذلك في ظل الدولة الحامية، حيث سهلت المواصلات، وربطت أشهر المدن التونسية بالخطوط الحديدية التي تنمو يوما فيوما، ومدت الطرق، ومهدت السبل، وأمنت المسالك، وذللت الوعور، وعمرت الفجوج.

---

(1) 1262/ 1845

ثم تكلم على الحالة التجارية العمومية، ثم على حركتها مع الخارج من عهد المقدس حسين باشا باي، وما كان لوزيره الماهر شاكير صاحب الطابع [1] من قوة العزم في هذا الميدان، وإن كان اجتهاده سببا في إهلاكه، يوم دبت في فراشه عقارب السعاية (1254) [2] وجاء بعده من تملك الحرث والنسل، وأثقل كاهل الحكومة بالديون، وإن كانت إثر ذلك للمقدس محمد باشا أياد بيضاء في الأخذ بناصر الفلاحين والتجار، إلا أن مدته كانت قصيرة، فلبى داعي ربه وخلفه في ملك البلاد أخوه المقدس محمد الصادق باشا [3] طاب ثراه، فافتتح ملكه بعدة إصلاحات جديدة، وإن كانت الدسائس الوزيرية تهدم ما بناه، وأعان على أسباب الانحطاط أمور أخرى، كالثورة العامة، والوباء الجارف الذي أتلف ثلث السكان، وازدادت الحالة ارتباكا بتضاعف الديون، فأصبحت البلاد مغلولة اليد، حتى أن فرنسا لما تعهدت بتحويل الدين التونسي كان مبلغه إذ ذاك يزيد عن مائة واثنين وأربعين مليونا من الفرنكات، وأصل الدين الذي تركه المرحوم أحمد باشا كان دون الاثني عشر مليونا، فتم ذلك التحويل بعناية الدولة الجمهورية، وبتنظيم الأمور المالية وتأسيسها على قواعد متينة، يعلمها اليوم الخاص والعام، وصارت ميزانية الدولة معتدلة الكفة والمداخيل العامة، كافية للقيام بسائر المصالح الدولية المركبة من إدارة المال، ومن إدارة البوسطة والتلغراف، ومن الإدارة العامة، ومن إدارة الزراعة والتجارة، ومن ادارة المعارف،

---

(1) الوزير شاكير صاحب الطابع، كان حازما، ومخلصا لسيده، مات مخنوقا 1837 راجع ابن ابي الضياف، اتحاف لأهل الزمان ج8 ص28 وما بعدها

(2) 1254/1838

(3) هو باي تونس الثاني عشر من سنة 1859 الى وفاته 1882 برز خلال حكمه عهد الأمان الذي ينص على تحقيق العدل بين الرعية، ويؤكد على حقوق الأجانب

ومن الإدارة العسكرية، ومن إدارة الأشغال العامة، ولا حاجة للتعريف بمتفرعات هاته الإدارات المتكفلة بنظام الدولة المحوط بها سياج متين من القوانين التي تفضلت الحضرة العلية [1] بتخويلها إياها، ويكفي لمعرفة جزئياتها مطالعة ميزانية السنة الجارية، التي تشهد تقدم مالية الحكومة التونسية، إذ هي بلغت في التقويمات الرسمية نحو ثلاثة وعشرين مليونا من الفرنكات، عدا مال الاحتياط الذي سدد به كثير من الخدمات النافعة، وختم المؤلف هذا الجزء بالكلام على تعديل السكة التونسية، وإدخالها في حيز قيمة أمثالها عند دول الاتحاد اللاتيني، وكان مبلغ ما ضرب من السكة التونسية الجديدة لمنتهى شهر أغشت الفارط يتجاوز ستة وثلاثين مليونا من الفرنكات.

إلى هنا انتهى هذا التأليف الذي هو جدير بأن يعنون بالخزينة التاريخية في الأحوال التونسية، وقد كنا وعدنا في الفصل قبله أن نلم بشيء من خاتمة الجزء الأول، حيث خصصها المؤلف للتعريف بالمسلمين، وانجازا للوعد نلم بشيء من ذلك فنقول: إن جناب المؤلف عرف القارئ أولا بأن الإحاطة علما بعوائد المسلمين وشعائرهم لا يكفي للقيام بها إلا تأليف على حدة، ثم قال باختصار: إن الديانة الإسلامية هي المتغلبة على سكان تونس، وجميع الأهالي شديدو الاعتقاد، ممتثلون لما تأمرهم به شريعتهم، وينقسمون إلى مذهبين حنفي ومالكي، أصلهما واحد، ولا خلاف بينهم إلا في الفروع، كما أن التونسيين يلوذون بأولياء لله، كسيدي

(1) يقصد علي باي المتقدم ذكره تولى الحكم الصوري من سنة 1882 حتى وفاته 1902

عبد القادر [1] وتسمى هاته العصبة (قادريه) وكسيدي عبد السلام [2] وتسمى هاته العصبة (سُلاميّة) وكسيدي أحمد التيجاني [3] وتسمى هاته العصبة (تيجانية) وكسيدي محمد بن عيسى [4] وتسمى هاته العصبة (عيسوية) إلى غير ذلك من طرق الأولياء، رضوان الله عليهم، ثم قال: وبالرغم عن اختلاف الأنظار بين المسلمين، فكلهم يجمعهم دين واحد، ألا وهو القرآن المقدس الذي يدينون به، وهو الجامع لشعثهم بحبل متين، فيما بين المشرق والمغرب.

ثم عرف بأركان الإسلام تعريفا كافيا، لمن يجهل تفاصيل ذلك من الأورباويين، وتكلم على المواسم الشرعية، وعلى النكاح عند المسلمين، وحقوق الزوج على الزوجة والعكس، وعلى سنة الختان، وعلى المواسم عند البدو، وعلى عدة تفاصيل أخرى، كتدبير المنزل والمطبخ.

ثم ختم كلامه بقوله: إن التونسي المهذب جامع لكافة خصال الرجل اللبيب، وزيادة على ذلك فهو حلو المذاق، لطيف الطبع، به كياسة، صاحب تورية في كلامه، تدل

---

(1) الشيخ عبد القادر الجيلاني أو الجيلي متصوف مشهور، وفقيه حنبلي، يوصف بتاج العارفين، إليه تنسب الطريقة القادرية الصوفية، توفي ببغداد وبها زاوية له سنة561/ 1165 من مؤلفاته الفتح الرباني

(2) عبد السلام الأسمر، من فقهاء المالكية، له منهج في التصوف مشهور، أغلب مؤلفاته في التصوف توفي بليبيا سنة981/ 1573

(3) أحمد التيجاني المتصوف القطب، انتشرت طريقته في المغرب الاسلامي توفي سنة1218/ 1803

(4) محمد بن عيسى متصوف مغربي، طريقته مشهورة بأمداحها بصوت عال، مع استعمال الموسيقى في تلك الأمداح توفي 933/ 1524

على ذوقه ولبه، أما الكرم عند التونسي فقد تجاوز الحد، ولو فرضنا أنك كنت في ضيافته، فلا تسمع منه إلا (أهلا ومرحبا) و(قدومك مبارك) و(المحل محلك) و(قد شرفت منزلنا) إلى غير ذلك من عبارات الملاطفة التي جرت منا معشر التونسيين مجرى الدم ولله الحمد.

ثم امتدح آداب الأكل عندنا، وأنهى كلامه بقوله : وبالجملة فإن التونسي صاحب عقل وقاد، وذكاء حاد، وفهم مصيب، وهو قابل لتلقي سائر التثقيفات الفكرية، بما لَهُ من الشغف بالمطالعة، وحب الأخبار.

هذا ما احتوى عليه الكتاب الذي لخصنا أبوابه في هذا الفصل، والفصل قبله، وإن كان ما كتبنا هو نسبة قليل من كثير، ولا يسعنا تلقاء هاته التصريحات المسطرة في كتاب قدمه معتمد فرنسا بتونس تقديما رسميا للمؤتمر العلمي إلا الإصداع بالشكر الواجب بلسان سائر التونسيين الذين أطنب المؤلف في التعريف بفضائلهم، وببلادهم التي كانت مجهولة الحال عند الأوروباويين.

أفمن ينكر الجميل الذي لا يطلب عليه صاحبه جزاء ولا شكورا؟ كلا، هذا شكر علنا نرفعه بلسان العموم لحضرة المؤلف المشهود له بطول الباع، وسعة الإطلاع، ونرجو من مجادته، وهمة كاهيته وأعوانه رؤساء الإدارات التونسية أن ينسجوا كلهم على منوال واحد، كما فعلوا في الماضي في الأخذ بناصر التونسيين، ودفع اليد العادية عنهم، وتوسيع نطاق دائرة الاسترزاق بتنشيط عزائم أهل الصنائع، والنظر فيما يؤول بالنفع على الهيئة الحاكمة التونسية، بتخويلها دستورا جامعا، يتكفل بصيانة الحقوق، ومد المحاكم الشرعية بالنفوذ اللازم، ودفع مكائد المغرضين عنها،

وزيادة إحكام السياج المحيط بسائر النظامات الدينية التي هي الركن الأعظم عندنا، كما شهد به المؤلف نفسه. وبعد هذا وذاك فلا يسعنا إلا تسجيل هاته المنقبة الجديدة التي جاءت بها دولة الحماية، ومن الله نطلب الرعاية في البداية والنهاية [1].

مقدمـــة الحـــرس :

كان للمقالة التي نشرناها بالحاضرة، وتكلمنا فيها على جمعية الاتحاد الفرنسوي العربي بالجزائر هزة ويالها من هزة بالمحافل الجزائرية، حتى أن رئيس تلك الجمعية الكمندان المستعرب مسيو فسيار كاتب حضرة مدير هاته الجريدة بدون علمه عضوا شرفيا في سلك أعضائها،وبعث لإدارة هاته الصحيفة التي ما برحت، ولن تبرح، خادمة بصدق للملة والجنس بمكتوب لطيف، نأتي إثر هذه المقدمة على تعريبه، ثم نلحقه بما عنّ لنا من الأفكار بهذا الخصوص، مما نؤمل وقوعه، بل ونحث عليه من طلب الالتئام والاتحاد بين العنصرين اللذين أصبحا بطبيعة الجوار، واشتراك المصالح محتاجين أحدهما للآخر، لمقاومة نوائب الزمان، ومصادمة قوارع الحوادث، ونعني بهما العنصر الإسلامي الجليل الشأن المالك لهاته الديار منذ بزغت شمس الإسلام على أنحاء المعمورة، والعنصر الفرنسوي النبيل الذي جعل مهجته بالبلاد الإفريقية من نحو مائة عام.

قال حضرة الكمندان فسيار الذي عرف السياسة القويمة المنجحة لمقاصد فرنسا ما نصه :

---

(1) الحاضرة ع 411 بتاريخ 18 أوت 1896.

الجزائر في 4 مارس 1896

سيدي المدير

إني أشكركم، حيث تفضلتم بالإعراب لحضرة الحكيم محمد بن العربي عما لكم من الابتهاج بجمعيتنا الفرنسوية العربية المسماة (مقدمة الحرس) [1].

ونحن نكون سعيدي الحظ برسم اسمكم في سجل أعضائنا الشرفيين، ونقدم لكم فوق ذلك خالص الثناء عن مساعدتكم القليلة النظير، وما أجمل عمل البر، وزرع الخيرات التي كادت أن تكون مقدسة بخدمتها للحق والعدل، ولكن دون ذلك صعوبات لا تذلل نواصيها إلا عن طول، سيما لإقناع المترددين والضعفاء، والذين لا همة لهم في شيء، ولذلك ترانا متمسكين بدون ضعف، بل بعزم وجد بحبل صنيعنا هذا، عالمين بأنه صنيع تمهيد (لخدمة الحرس) ولمصلحة الوطن، وغايته استجلاب خواطر المسلمين واستمالتهم إلينا، بمساعدتنا إياهم، ومد يد الأخوة إليهم، لهدم جدار التقاطع بين عنصرين كادا أن يكونا من وطن واحد، وهذا التعاضد بين الفرنسويين والأهليين سوف ينقذنا جميعا ممن لا وطنية لهم، أعني بهم أولئك الذين غرسوا عروقهم بهاته البلاد بنوايا خبيثة، ولم يشاركوا في مصالحها بدانق، أو بإهراق قطرة من دمهم، بحيث إن اتحادنا هذا سيشفي البلاد من عاهة الجذام التي اعتل جسمها، ونجعل فرنسا للفرنسويين وحدهم وللذين يخدمونها، وتفضل أيها السيد المدير بقبول شعار أعظم اعتباري (كتبه الكمندان فسيار).

---

(1) لعلها ترجمة حرفية عن الفرنسية Avant- garde

فأنت ترى أن هذه الجمعية التي أسست تحت عنوان (مقدمة الحرس) هي في الظاهر جمعية لا علاقة لها بالسياسة، بل هي كما في برنامج تأسيسها رياضية بدنية، ولكن من تأمل في بنود قوانينها الذي هو الآن نصب أعيننا، ومن نظر بين سطور الأخبار الخصوصية المتعلقة بها التي تفضل بتوجيهها إلينا حضرة الحكيم النطاسي محمد بن العربي الأندلسي، ومن دقق النظر في جواب الكمندان فسيار يرى أن هذا الاتحاد الذي رغب فيه نخبة من أعيان الجزائريين من فرنساويين ومسلمين، هو مجرد وسيلة للدفاع، إن لم نقل جمعية تعاضد وتعاون أنشئت لحماية البلاد الجزائرية وأهلها من مكر المخادعين، وترهات المدلسين، وأباطيل المفترين، كما يشهد بذلك عنوان الجمعية نفسه.

ومن علم ما عليه البلاد الجزائرية من شؤم الحال، وتعسر الأمور، ونظر إلى وجوه أهاليها التي عليها سيمات الضنك والشقاوة، مما حل بهم من ظلم المحتكرين، وخزعبلات المرابين الدخيلين في البلاد، حتى تنفس الفرنسويون أنفسهم الصعداء من ذلك، فهم بسهولة سبب ائتلاف (مقدمة الحرس) التي يرجع الفضل في بروزها لعالم الوجدان لجناب السياسي مسيو كمبون حكمدار الجزائر.

وكانت هذه الجمعية فيما يرى العاقل تدل على نهضة جديدة، ونفثة انبعثت من أقصى صدور نخبة من الجزائريين والفرنسويين الذين أعياهم وقر الشدة، لاستدراك ما أخسرتهم الأيام مدى ستين سنة، كانت كلها كسني يوسف، وكان فيها العنصران ينظران لبعضهما بعين السخط، ذلك ينتقم بالبندقية والسيف، وهذا ينتقم بالقتل والنهب.

ومن تابع حركات البلاد الجزائرية من يوم كشف السياسي الشهير مسيو فري عن أسرار مكنوناتها علم أن الحكومة الفرنسوية قفلت دفعة واحدة من الطريق الذي انتهجه نوابها منذ زمن بعيد بتلك المستعمرة الضاربة من ضفاف بحر الروم إلى تخوم الصحراء، وتتبعت مسلكا حسنا جديدا يدل عليه نفس تسليم مقاليد الأمور لمثل واليها الحالي، فإن أحوال تلك البلاد الإسلامية جارة قطرنا المحروس أصبحت مبشرة بتدرجها نوعا ما في سبل الخيرات، بما ابتدر به جناب واليها من تسديد مهامه لقمع غوائل أهل الشر الذين يودون أن لا تخمد نار الفتنة في سائر مقاطعاتها لحظة واحدة.

على أن من الأمور التي تؤيد أيضا جنوح الدولة الفرنسوية لجبر خواطر المسلمين واتكالها على سياسة سلمية معهم انصياع رجالها في نفس باريس، وفي عواصم مستعمراتها والبلاد المحتمية بها إلى معاملة المسلمين بالإحسان والمعروف، مثل تأسيس مسجد ومشيخة للعلوم الإسلامية في قاعدة الديار الفرنساوية، وفتح مدارس لتعليم اللغة العربية، وتدريس العلوم الدينية بدواخل السودان والكونغو، وليقس ما لم يقل.

ولا يجدر بنا أن نختتم هذه الملاحظات من دون أن نعرج على سياسة فرنسا بتونس، مسقط الرأس، فإن آثارها تدل عليها:

هَذي آثارُنَا تدلُّ علينا *** فانظروا مِثْلَنَا إلى الآثارِ

وأعظم دليل على حسن مقاصد الدولة الجمهورية بين جدران هذه الديار العبارات التي فاه بها في خطابه الأخير جناب الوزير الخطير مسيو ملي معتمد فرنسا بتونس، حيث قال عند كلامه على مشروع نمو العمران، وتوسيع نطاق الثروة العامة: إنه لمشروع جليل يستدعي غاية اهتمامنا،

خليق لان تبذل فيه جميع مساعينا، حيث كان الغرض منه الأخذ هنا في أسباب التحالف مع العالم الإسلامي، والتوصل بذلك التحالف الغزير الفائدة إلى تمهيد سبل الأمن بالأقطار السودانية، وبكل صقع خفق فيه العلم المثلث، وأيضا إقامة البرهان على ما لفرنسا من المقدرة على العمران، والاستطاعة على توسيع نطاق ممالكها، وبذلك تحقق للأجيال القابلة عيشا أرغد، ورزقا أوسع، مما سينالونه بأم الوطن.

فأين هذا مما يفعله الانكليز بالهند من تحجير صيام رمضان على المساجين، ومن تداخلهم بجزيرة سيلان في أمور النكاح والطلاق، ومنعهم المسلمين بأن يتخذوا لأنفسهم أكثر من زوجة واحدة، ومن معاملتهم القاسية لتلاميذ المدارس المصرية، وأضراب هذه المنكرات الفظيعة، مما لم نسمع به في إفريقيا الشمالية، يوجد بكثرة في المستعمرات الانكليزية.

وإن صح ما نؤمله من رغبة فرنسا في الاتحاد مع المسلمين[1]، كما أخذت في إظهاره بالقول والعمل في وجه هذا الجيل الرابع عشر فإن آثاره ستظهر لأجل قريب، ويعظم بسببه نفوذ فرنسا ومجدها في مشارق الأرض ومغاربها[2].

---

(1) هذه المقالة وغيرها مثل (التقرب والتشيع للاسلام) الآتي ذكرها، تندرج ضمن البحث عن نطاق اشتراك بين الفرنسيين والمسلمين، لأن المسلمين في القطر التونسي، وخاصة في الجزائر، أحسوا بالحيف والحرمان، وهم في بلدانهم، وستنوه الحاضرة فيما بعد بظهور رجال لهم كلمتهم، إن في البرلمان الفرنسي أو في الصحافة الفرنسية، ينادون بانصاف المسلمين، وإعطائهم حقوقهم ما داموا يقومون هم بواجباتهم نحو الحكومة، وسيقوى هذا التيار من الاحرار الفرنسيين، وسيعتمد عليه دعاة الاستقلال كالزعيمين الثعالبي وبورقيبة للمطالبة باستقلال تونس.

(2) الحاضرة ع 390 بتاريخ 24 مارس 1896.

دخول فرنسا عنوة لعاصمة مدغشكر :

ما كنا نشك قط بأن الدولة العظمى الفرنسوية، صاحبة السطوة واليد الطولى، والمجد الشامخ، تعجز عن افتتاح جزيرة مدغشكر، أكبر جزائر القارة الإفريقية، وقد كان سبق لنا كلام بشأن توغل العساكر الجمهورية بالجزيرة، أرجينا فيه إعلام حضرة القراء بنتيجة الحركات الحربية إلى يوم تلقي الحرب أوزارها، وتخضد فيه شوكة الهوفاس، الذين هم أشراف الجزيرة المدغشكرية.

وحيث إن التلغراف أنبأنا من صبيحة الجمعة بتبوء جيش الاحتلال الفرنسوي لمدينة طنانريف عاصمة الجزيرة، بما يشعر بقرب انتهاء هاته الحملة البعيدة، كما سنرى تفصيل ذلك فيما بعد، أحببنا في هاته المرة إجابة لمرغوب بعض القراء أن نبسط لهم الكلام بخصوص مدينة مدغشكر، وما ستؤول إليه بعد غرس العلم المثلث على أعاليها، ولم نقصد من هذا انتهاز فرصة لإعطاء فكر خصوصي في المسألة، جريا وراء الاستظهار برأي سياسي، ربما لم يصادف محله، سيما وأن من كل هاته المسألة لا يهمنا إلا أمر وحيد، وهو انتصار المدنية على الهمجية، بقطع النظر عما ستبديه الأيام من نتائج هذا العصر الجديد، الذي فتح في وجه الدولة الجمهورية، وما سينجم لها عنه من توسع نطاق دائرة تجارتها بالمدغشكر، وما والاها من بلاد المحيط الهندي البعيدة بآلاف من الفراسخ عن البلاد الفرنسوية.

ومعلوم أن هاته الدولة العظمى استنفدت بفتحها للجزيرة آخر مملكة مستقلة بإفريقيا الشرقية، ولا يبعد فيما تعلق بخلدنا

أن يكون نجاح فرنسا في هاته الحرب التي طالما ارتجى منها الانكليز خلاف ما آلت إليه سببا لظهور مدارك جديدة، ينبلج عنها صبح السياسة الأوروياوية، لما أن التسهيلات الظاهرية التي أعربت عنها بعض الدول الأوروياوية، قبل أن يستقر خيال الحرب بمخيلة الدولة الفرنسوية، هو محض غدر وخداع، قصد به أهله توريط الحكومة الجمهورية في حرب بعيدة، مع أمة ذات همجية وتوحش على رؤوس الربى، مستعصمة بقمم الجبال الشوامخ،حارت في تخضيد شوكتها الدولة البريطانية من نحو قرن، وتنفست منها الصعداء لما جرى لها من الفتك بسياسييها المترهبنين بأنحاء الجزيرة، الذين طالما دسوا السم في الدسم، بداعي بث النصرانية، وهي سياسة بسمركية [1] قصد بها مختلقها منذ معاهدة برلين (سنة1878) صرف وجهة الحكومة الجمهورية نحو ارتكاب الحروب، وفتح البلاد الإفريقية، رائما بذلك توهين قواها، وإشغالها عن التفكر بأخذ الثأر الذي تؤمله فرنسا قاطبة منذ ربع قرن.

ولكن أبى الله إلا أن تكون فرنسا آخذة في سبيل التقدم كل يوم، شأن الأمم الحية العالمة بأن الحقوق نيطت اليوم بحد الحسام، لا بتعريف الكلام، وأعانها على ذلك وفرة غناها، وشدة عزمها، مع طول باع رجالها في السياسة، حتى تشخص منها الآن المحور الذي تدور عليه رحى سياسة البلاد القاصية والدانية.

---

(1) نسبة الى أوتو فون بسمارك، موحد ألمانيا ومؤسس امبراطوريتها ومستشارها القوي، مات سنة 1898.

وانظر إلى جرائد الانكليز كيف استبشرت، وطفقت تصفق باليمين وبالشمال، ولسان حالها ينادي بتهنئة فرنسا عن هذا الفتح المبين، وفي الحقيقة هي تأسف لذلك،وتتمنى أن تكون انكلتيرا مكان فرنسا بمدغشكر، أو أن ترثها منها، كما كانت خادعتها في الجزائر الأخرى المجاورة لها التي انتزعتها من يدها في أول هذا القرن المسيحي، بل وكما فعلت بمدغشكر نفسها من دس الدسائس لملكها (ردمه) الأول، لإبعاد الفرنسويين عن الجزيرة، عندما كان لهم قدم راسخ بها، وقد فعل ذلك حسيا.

وهنا لا بأس أن نلمح بشيء من تاريخ الجزيرة، فهي كما تقدم واقعة بالمحيط الهندي، ومساحتها تبلغ خمسمائة وثمانين ألف ميل مربعا، أي أوسع من فرنسا نفسها بخمسين ميلا، أو أكبر من المملكة التونسية بست مرات، وعدد أهاليها لا يتجاوز الخمسة ملايين، بعضهم على الديانة النصرانية التي أدخلها فيهم الانكليز سنة1845 والبعض الآخر، وهو السواد الأعظم، لم يزل على الوثنية، ويكره اعتناق الملة المسيحية، بل ويحقد على من يدين بها، ويضمر إليه شرا، كما فعلوا في سنة 1863 عندما قتلوا الملك (ردمه الثاني) الذي تنصر على يد أحد رهبان الانكليز: إذ هم عدوه على حد السيف، وكذا سائر وزرائه.

هذا ولا حاجة لأن نقول إن سائر الأهالي يخوضون عباب الفوضى، والهمجية ضاربة أطنابها بأرجاء البلاد، وليل الجهل أرخى عليهم سدوله، وإذا أضفنا لذلك أن ليس لهم من وازع ديني يهديهم إلى سبيل الرشاد، قلنا إنهم على تلك الصورة أشبه شيء بالحمر المستنفرة، وأقرب إلى الحيوانية منها بالإنسان.

على أن الذين تمذهبوا بالنصرانية، ولم يزل عددهم ينمو يوما فيوما، قد خرجوا من ربقة الجهالة، وصاروا هم أشد مصادمة وأخطر معارضة للنفوذ الأوروباوي بالجزيرة، وإليك منهم راموزا، وهو وزيرهم الأكبر الحالي، فإنه شيخ طاعن في السن، ولكنه أحيل من ثعالة، طالما نشأت عن دسائسه مشاكل ذات بال مع فرنسا وانكلترا، والمشار إليه هو بعل الملكة الحالية، ومن عجيب عادتهم أن متولي الملك يعهد بالولاية لخلفه من حياته، ولا فرق في ذلك بين الذكر والأنثى، وإذا فرضنا أن الملك الهالك عهد بالولاية لزوجته، فإن وزيرها من بعده يكون لها زوجا بالأصالة، ويكون في الحقيقة هو الملك المطلق التصرف في رقاب السكان، ومن عادتهم أيضا أن رتب الشرف تنحصر عندهم في ثلاثة عشر رتبة، تبتدئ بواحدة، وهي السفلى، وتنتهي بالثالثة عشر، وهي العليا، فالأميرالاي بالجند مثلا درجته في الشرف تاسعة، والجنرال حادية عشرة، وهلم جرا.

وقد رأينا في بعض الكتب أن الجهة الشرقية بالجزيرة يعمرها أناس من نسل العرب، ولكنهم اختلطوا بالجنس الأهلي، حتى اضمحلت عربيتهم، لما مر عليهم من السنين، ولم نقف على ما يؤيد ذلك بالكتب الإسلامية، وعلى فرض صحة هذا الخبر الذي هو قريب الاحتمال، فلا يخلو من شيئين، فإما أن العرب قبل الإسلام دخلوا الجزيرة في عدد قليل، وبقي لهم أثر هنالك، وإما أن البلاد كان لها في القديم روابط تجارية مع البلاد العربية الإسلامية التي بالبحر الهندي، لأن الديانة المحمدية التي هي كثيرة الانتشار بتلك الجهات على مذهب الشيعة، لم يعرف أنها دخلت للجزيرة، إذ لو كان قدر الله دخولها لبقيت خالدة فيها إلى ابد الآبدين.

وكانت الكتابة والقراءة مجهولة عند الهوفاس، ولم يعرف تدوين الكتب بصقعهم إلا بعناية ملكهم (ردمه الثاني)، فإنه بإشارة رهبان الانكليز وضع حروف هجاء بلغتهم، ثم ترجم إليها التوراة، وطبعها، ولكن عندما خلفته امرأته في الملك أحرقتها، وصارت تعاقب من يحُسن القراءة والكتابة، كمرتكب إثم جسيم، ولم تمتد شوكة فرنسا بالجزيرة إلا من عهد الملكة (رينا فلونه الثانية) لأنها قربت منها الأوروباويين، وكانت رشيدة التصرف، إذ هي فتحت مدارس للقراءة، وأجبرت الناس على التعلم، ثم أعقبتها في الولاية حفيدتها (رينا فلونه الثالثة) الملكة الحالية التي ما برحت علائقها تتعكر يوما فيوما مع فرنسا منذ سنة 1883 وهي عبدة زنجية، عرفت بسوء التصرف، وشراسة الأخلاق، وحب الاستبداد، ولذلك كانت تخبط في سياستها خبط عشواء إلى أن جاءها النذير، وأنزلها من فوق عرش همجيتها، بعد مكافحة دامت نحو ستة أشهر بينها وبين جنود النظام الفرنساوي، الذين دخلوا دار ملكها يجرون ذيول النصر والظفر، في موفى ثلاثين من الشهر الفارط، كما ستطلع على ذلك من فحوى التلغراف الرسمي الذي وجهه وزير الحرب من باريس إلى الجنرال دوكين، قائد جيش الاحتلال بالمدغشكر، واليك نصه :

إن الدولة الجمهورية، بالنيابة عن الملة الفرنساوية تثني عليكم، وعلى الضباط والعساكر البرية والبحرية الذين هم تحت قيادتكم، وما أبداه هؤلاء، وعلى الأخص الطائفة التي دخلت مدينة طنانريف من البسالة، وما قام به أندادهم من المدافعة عن مراكز المواصلات التي افتتحوها بعد عناء شديد، يستحق أن ينعت بالغيرة، ويجازى بالوطنية، ولذا

فإن فرنسا تشكركم أيها القائد على الجميل الذي أتيتم به في مصلحة الوطن، وعلى ما أظهرتم من صفات الكمال في خطتكم، حيث أقمتم البرهان البليغ على أن الصعوبات والأخطار، وإن بلغت ما بلغت، لا بد أن تخضع، وأن تتضاءل لدى قانون النظام والبسالة والصبر، فالدولة رقّتكم إلى أول صنف من وسام الشرف، وتطلب منكم أن توجهوا لها معروضا في الجوائز التي تطلبونها لرؤساء جيشكم، كما أنها ستعرض على البرلمان بدع نيشان تذكاري، لفتح مدغشكر، تحمله سائر أفراد عساكركم البواسل.

فضرب خبر فتح مدغشكر بأطراف المعمورة، كصدى المدافع، ولم ينتطح في أمرها عنزان، ولاقى قبولا حسنا بسائر المحافل السياسية، وجاءت التهاني تترى لحكومة الجمهورية، وأقلام رجال الدولة الأفراح، وابتهجوا النجاح حكومتهم في هاته الاكلاف البعيدة التي نشأ عنها أخيرا قال وقيل، كاد أن يرجع بضده على الدولة، لو لم تتداركه بحزمها الصارم، وأصبحت اليوم عموم الجرائد الفرنسوية تتنغم بمغاني الطرب، وتنفخ في بوق السرور، ولم يظهر ما سيستقر عليه رأي الدولة الجمهورية من جعل مدغشكر مستعمرة، يرجع نظرها رأسا لباريس، أو تدخل في زمرة ممالك الحماية، مع نصب وزير مقيم بها، وفي كلتا الحالتين فإن قائد العساكر الفرنسوية وقع بيوم دخوله لمدينة طنانريف على معاهدة مع الملكة في إنهاء الحرب، وفي التزام الدولة الجمهورية بإبقاء تلك الملكة على منصبها، وكذا وزيرها الأكبر، ما لم يظهر منه معارضة فيما بعد.

وترى غالب الجرائد المعتبرة كالطان والديبا أن نصب

الحماية على مدغشكر أوفق للمصلحة الفرنسوية، وأعود نفعا من جعلها مستعمرة محضة، لما أن الفوائد التي نجمت عن بلدان الحماية بينت عدم صلوحية التصرف الاستعماري البحت، واستدلت على ذلك بسعادة القطر التونسي، وما سيؤول إليه من السلوك في سبيل الخيرات، تحت ظل بيته الحسيني، وترؤس الحماية الفرنسوية [1].

السواحون بالبقاع المقدسة :

طالما نشرت هاته الصحيفة خادمة الملة والدين الفصول الضافية بخصوص أحوال الحجاز وحالته، تحت تصرف أميره دولتلو الشريف عون الرفيق باشا، منذ امتطى صهوة إمارته من يوم عيد النحر سنة 1299 [2] اثر خلع السلطة السنية لعمه الشريف عبد المطلب، ولم تتأخر هاته الجريدة منذ ظهوره بعالم الوجدان عن استلفات أنظار أولي الحل والعقد بدار الخلافة، لما يحدث بتلك الأصقاع المعظمة، والبقاع المكرمة من الأمور المخالفة لأصول العدالة والنظام، وإحياء العمران بتلك الديار، بل ولم تتلعثم مرة قط في شرح تلك المخالفات، وتبيينها الواحدة بعد الأخرى، راجية بذلك ثوابا عند الله، وقاصدة به خدمة الأمة الإسلامية التي تتوج زمرة واحدة،

---

(1) الحاضرة ع 368 بتاريخ 5 أكتوبر 1895.

(2) عون الرفيق شريف مكة وحاكمها من سنة 1301/ 1883 حتى وفاته سنة 1905 وكانت الأراضي المقدسة في عهده في حالة فوضى، وقد اهتمت الحاضرة بهذا الموضوع انظر: الاحوال بالحجاز ع 48 بتاريخ 25 جوان 1889 الخ...و 1299/ والصواب ما ذكرنا.

كالشخص الواحد، بل كالعضو الواحد، لما يطرأ بتلك الديار من سوء إدارة متوليها، وسلب الأمن من أرجائها، وقذف الرعب بين سكانها، وهي أمور صادرة فيما تحققناه بطريق التواتر القطعي عن سوء تدبير دائرة الشريف الحالي، سعيا وراء منافع ذاتية، وأغراض شخصية، وحيث إنا اتخذنا هذا الطريق مسلكا لنا فيما يخص الأنظار الحجازية المباركة، تطلبا لإدخال روح النظام إليها، وإفادة لكل من يهمه الإطلاع على ما في غضونها، أحببنا أيضا هاته المرة أن نفيد حضرة القراء بخبر عجيب، اتصل بنا على طريق جرائد باريس، منبعثه من مكة المكرمة، وحدوثه فيما قيل زمن موسم الحج الفارط، وهو اجتماع المستشرق كرتلمون الجزائري الفرنساوي بحضرة شريف مكة دولتلو عون الرقيق باشا، لتبليغه مأمورية سرية من لدن جناب حكومة الجزائر، وقبل أن نخوض عباب هاته المسألة، لإعطاء فكرنا القاصر فيها نقدم لحضرة القراء مقدمة تفيدهم لما يأتي من تفاصيل هاته المأمورية الغريبة، وصورة ذلك أن مكة المكرمة، كما لا يخفى، كانت محجوبة برداء من القدرة، عن عيون الأوروبيين، ولم يطأ أرضها قدم أوروباوي قط قبل سنة 1221هجرية [1].

في ذلك التاريخ ظهر بالمشرق رجل اسبانيولي، يدّعي الإسلام، ويسمى بعلي بك، وكان اسمه الحقيقي دومينكو باديا، قضى نحو السنتين بمراكش، ثم قصد جزيرة العرب، فوصلها على ما في بعض التآليف الإفرنجية، ودخل مكة، واستطلع أحوالها، وأوضاع أهاليها، وألف في ذلك أول

---

(1) 1221/ 1806

كتاب عرف، بين الأوروباويين في خصوص الحج الشريف، ثم توجه لده ثق الشام سنة 1224 [1] فمات هنالك، فيكون هذا المعروف بـ علي بك أول أوروباوي دخل أرضا ضمت أعظم من خلق الكون لأجله، وبعده شمّر الانكليزي بورخاردت عن ساعد جدّه، وقصد البقاع المقدسة في عام 1229 [2] أي في السنة التي مات فيها بتونس الأمير العادل حمودة باشا الحسيني [3] نهض المشار إليه، وقصد جزيرة العرب، بعد أن اخترق صحاري مصر والحبشة، وتحمل الأتعاب، كما ورد ذلك في قصة عجيبة، رواها الرحالة جول فيرن [4] دلت على ما لذلك السواح الانكليزي من قوة العزيمة، وتكبد المشاق، وركب البحر من سواكن في 19 رجب من السنة، فوصل جدة، ومنها توجه لبلد الطائف في صورة رجل مسلم، يعرف بالشيخ إبراهيم، يحسن العربية، بل ويحفظ شيئا من القرآن، تعلم جميع ذلك بالشام، إلا أن إقامته بالطائف حفتها أخطار، كان المحيص منها في المبادرة بالرحيل عنها، فبارحها قاصدا مكة المكرمة، لاثنتين وعشرين ليلة خلت من رمضان.

لما دخلها زعم أنه أدى فريضة الحج مع المسلمين،

---

(1) 1809/1224

(2) 1813/ 1229

(3) حمودة باشا بن علي، الباي الخامس في الدولة الحسينية تولى الحكم من 1782 حتى وفاته 1814 انظر عنه رشاد الامام:سياسة حمودة باشا في تونس ط تونس 1980

(4) جول فارن رحالة فرنسي، ومؤسس أدب الخيال العلمي، من مؤلفاته (باريس في القرن العشرين) نشرت سنة1994 أي بعد وفاته بحوالي قرن، توفي 1925

وتوجه بعد ذلك للمدينة المنورة، ثم بعد أن بارح جزيرة العرب رجع لمصر، فمات بالقاهرة، وأبقى تأليفا بخصوص بلدان الإسلام دام نفعها بأوروبا إلى عهد قريب.

وفي عام1257 [1] تكلف الفرنسي ليون روش [2] وهو من عائلة نبيلة، بالقيام بمأمورية جليلة، مؤداها الحصول على فتوى في غرض سياسي من المجلس الشرعي بالقيروان، وكان يومئذ لرئاسة العلامة أبي عبد الله محمد بن أبي بكر [3] صدام، فقدم مدينة أبي زمعة البلوي في غرة رجب من السنة، وسعى في الفتوى المشار إليها، بواسطة من أعانه في ذلك من مشائخ الطريقة التيجانية، كما بسط تفصيل ذلك بكتاب سماه (اثنان وثلاثون عاما في غضون البلاد الإسلامية) ثم لما حصل على ذلك قصد قاهرة مصر، واستعمل أيضا هنالك الوسائل اللازمة، لأخذ موافقة علماء الأزهر على الفتوى الصادرة له من القيروان، فنجح ثانيا في مسعاه، ومن هنالك عزم على الرحيل لمكة، لعرض فتواه على شريفها، وكان يومئذ أبو عبد الله محمد بن عون، فتوجه إليها، بعد أن زار المدينة المنورة، فيما ادعى، وتوجه للطائف حيث اجتمع بالشريف المشار إليه، ثم عاد لمكة، كل ذلك وهو مظهر للإسلام، وحضر مشهد

---

(1) 1257/1841

(2) ليون روش سياسي فرنسي لعب دورا كبيرا في تهيئة تونس للاحتلال الفرنسي، وقربه الباي إليه، وكان مستشاره الخاص، سمى نفسه الحاج عمر، ترجمت له الحاضرة ترجمة وافية عند مماته سنة 1900

(3) محمد بن أبي بكر صدام عالم القيروان، وباش مفتيها ترجم له محمد السنوسي في الرياض الناضرة بتحقيقنا ص 126 كانت وفاته سنة 1888

عرفات، إلا أنه يقول هنا في تأليفه المشار إليه: إن بعض الجزائريين الذين جاؤوا للحج في تلك السنة بثوا خبر وجوده بالموقف الشريف، فهتف الناس بالنداء على الفتك به، وأوجعوه ضربا حتى أغمي عليه، ولم يفز بالنجاة إلا بواسطة من أنقذه من ذلك المركز الحرج، وطير بشخصه إلى مكان بعيد، فيكون هذا الرجل الجسور، وهو ثالث أوروباوي دخل في صفة مسلم الى جزيرة العرب، وذلك بعد أن أقام السنين الطويلة بين أظهر المسلمين ببلاد الجزائر، وأسلم وحسن إسلامه، واختتن، ودخل في دائرة الأمير عبد القادر الجسيني، ونال منه حظوة حتى صار كاتب أسراره، وزوّجه بنتا تدعى خديجة، من أهل حاشيته، وهو مع ذلك يبطن النصرانية، ويخدم حكومته سريا عن طريق البطل الشهير الماريشال بيجو، والي عمالة الجزائر لذلك العهد، إلى أن عثر على مكاتيب له، كشفت عما في سريرته، فأوجس خيفة، ونهض بنفسه، وفر من زمالة الأمير، متسترا بجناح الليل، إلى أن بلغ الجزائر، وأظهر إذ ذاك ما كان يخفي من مزيد صداقته لدولته وجنسه، فأعجب به من سياسي ركض في كل ميدان، وهب مع كل ريح، وشهرته بالحاج عمر في الحاضرة التونسية تغني عن مزيد التعريف به، ولذلك نرجع للمقصود، فنقول إن رابع أوروباوي دخل مكة المكرمة هو القبطان بورطون الانكليزي، وذلك في عام 1268 [1] بعد أن جاب البلاد، وتعلم لغات القبائل على اختلافها بالبلدان الإسلامية، حتى يقال إنه حفظ أكثر من ثلاثين لسانا، ولم نقف على تفاصيل سياحته، سوى ما أشير إليه، غير أن

(1) 1268/1851

المذكور بعد أن بارح جزيرة العرب دخل في خدمة الدولة العلية، فعينته رئيسا على عساكر الباش بوزوق، أثناء حرب القرم، وله عدة تآليف بخصوص سياحاته بالبلاد الشرقية، ترجمت من الانكليزية لغالب اللغات الأوروباوية، ولم يزل كسالفه بقيد الحياة.

قام بعده بعشر سنين سائح ألماني يدعى ملطزان، وقصد البقاع المكرمة، وفيما يقال إنه دخلها في سنة 1278 [1] إلا أني لم أقف على شيء من أخباره، سوى أنه اجتاز بتونس ومصر والشام، وله تآليف في ذلك معروفة، ترجمت أيضا إلى الفرنسوية.

بعد هذا السائح عمد خمسة أنفار آخرين للحصول أيضا على الغاية المعلومة إلا أنه حيل بينهم، وبين ما يشتهون، سوى واحد منهم، وهو فرنسوي الجنسية، إلا أن قلة شهرته، وعدم الوقوف على خبر له، تسوغ لنا أن نضرب عنه صفحا، ونشتغل بالكلام على غيره الذي هو بيت القصيد من هذه المقالة، وقبل أن نخوض عباب ذلك، نقول: إنه زيادة على الأنفار المتقدمين توجه أناس آخرون لزيارة الحجاز، إلا أنهم لم يرجعوا لبيوتهم، وذلك مما يقوي الظن في إتلافهم، فكانوا كالباحث عن حتفه بظلفه، وآخرون خابت مساعيهم، فعادوا من سفراتهم بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها.

بقي الآن الكلام على الخبر الذي روته جرائد باريس، وهو الذي أشرنا إليه أعلاه، ومفاده باختصار على ما روته

---

(1) 1278/1861

جريدة(الطان) وغيرها من الجرائد المعتبرة: أن المسيو كرتلمون الفرنسوي المستشرق [1] توجه للقيام بمأمورية سرية مهمة من طرف حكومته، لدى حضرة الشريف عون الرقيق، وأنه قام بإتمام تلك المأمورية أحسن قيام، بما بعث الحكومة الجمهورية على تقليده وسام اللجيون دونور، وهتفت الجرائد كبيرها وصغيرها بذكر سياحته، والبعض منها نقل الخطب التي ألقاها المشار إليه، بخصوص سياحته، لما رجع من أداء فريضة الحج، فيما زعم، في شهر ذي الحجة من السنة الفارطة، ولولا خوف الإطالة لنشرنا تفاصيل ذلك، إلا أن المقام لا يقتضي الإطناب.

قال مسيو كرتلمون: إنه استصحب معه في سياحته رجلا جزائريا، يسمى الحاج العقلي القبائلي، وهو رجل فيما يروي مسيو كرتلمون المذكور مصادق لفرنسا، ويقول: إنه لما وصل مع (هذا الحاج الأبر) لجدة أدرك عليه الولاة العثمانيون أنه أجنبي عن الديانة الإسلامية، وأوقفه البوليس، ووقع استنطاقه بما آل لطلق سبيله، بإعانة رفيقه المشار إليه، وبقي تحت المراقبة السرية، فهذا كلام لا يسعنا إلا ضرب الحائط به، لأنه مردود، ولا يقبله العقل أصلا، بدليل أن الترك هم مسلمون كغيرهم، ولا يكتفون

---

(1) لم أعثر على كل من برطون وكرتلمون في المراجع المتوفرة لدي، ونشير الى أن الكثير من العلماء والادباء وغيرهم من الأوروبيين كثر ترحالهم الى البلاد العربية والاسلامية، وخاصة مجاهل افريقيا، وذلك قصد الاكتشاف، والتعرف إلى البلدان التي بها موارد اقتصادية هامة، قصد احتلالها من قبل دولهم، والكثير منهم لم يعد الى بلاده، وكوفئوا على ذلك بنصب تماثيل لهم تخلد ذكراهم، وخدماتهم الوطنية.

بمراقبة أجنبي عن الديانة المحمدية، يريد الحرم المطهر، على أنه كان في الأقل يمكنهم منعه رأسا من بلوغ مراده، وعلى فرض أن المسيو كرتلمون أمكنه الخروج من ورطته فلا يصح أن نعتقد أن خبر حضوره بتلك الأصقاع لم يعلمه بعض الخواص، ومنهم يسري إلى العوام، ومن ثم نعلم الخطر الذي كان لا بد وأن حل به، سيما وأنه يزعم أنه تداخل في الأمور السياسية هنالك،وسعى بكل جهده في إقناع أولياء الأمر هنالك، وأعيان البلد الأمين بأن أهالي الجزائر يرفلون في حلل النعم في ظل الحماية الفرنسوية، فنفس هاته الرواية تضحك لها الثكلى، حيث إن ذلك مما يستدعي ريبة قوية لمسيو كرتلمون في مكان هو به غريب، فتكون والحالة تلك عاقبة أمره وخيمة، إلى غير ذلك من الحجج الدامغة التي تصير دعوى المسيو كرتلمون أوهى من بيت العنكبوت.

أما الآن، وقد أحطنا بالمسألة، فيمكننا أن ندفع أصالة بلوغ هذا المستشرق إلى البيت الحرام، ولقائل أن يقول: كيف تشك في دخول المشار إليه إلى البيت المعمور، وقد جاءنا برسومات مكة ومعالمها، وبأخبار موكب الحج وغيره؟ فنجيب عنه بأن تلك الرسومات متعارفة اليوم بكثرة في سائر البلاد، والأشخاص الذين أخذوها عن أعيانها معروفون إلى التاريخ، وهم ضباط وأطباء مسلمون بالجيش المصري، على أن اختلاط المسلمين بالمسيحيين في هذا العصر، وإقبال هؤلاء على استطلاع ما في بطون التصانيف العربية يسول لهم أن يكتبوا مجلدا ضخما في الحج والعمرة والطواف والوقوف بعرفة، والحلق بمنى، ورمي الجمار(والسعي) بين

الصفا والمروة، وأنهما من شعائر الله، إلى غير ذلك مما نعرفه نحن بكتب الفقه الإسلامي، وعند ذكر كل موضع من تلك البقاع يدلي إليك بصورته وهلم جرا.

نعم إنهم يحرفون أحيانا بعض الألفاظ ويسري ذلك الغلط إلى أقلام كل من يكتب منهم في هذا الغرض، كقول مسيو روش (الأرحام) ويعني به (الإحرام) وقوله أيضا (المطوف) بفتح الميم وضم الطاء، يعني المطوف، ونقل عليه ذلك بحروفه مسيو كرتلمون، مما يؤيد تشككا في حضوره موسم الحج: إذ لو حضر ذلك، مع ما يزعم من معرفته للعربية، لاهتدى لهذا الخطأ الذي ارتكبه من قبله.

ومهما يكن من الأمر فإنا نشكر هذا السائح على اهتمامه بالجنس العربي، وإظهار فضائله ومكارمه في الخطب التي ألقاها أخيرا بفرنسا، ونستبقي لنا الحق في عدم القطع بدخوله أم القرى، إلى أن يقيم لنا دليلا دامغا، وبرهانا قاطعا على صحة دعواه، أو يأتينا خبر في صحة ذلك من أرض الحجاز، فنعتقد إذاك الجواز، ونشهر اسمه على ما نال من الامتياز، بل ونعد سياحته ضربا من الإعجاز، والله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور [1].

التقرب والتشيع للإسلام :

قام الحقوقي فيلمينو الوكيل المحامي لدى محاكم الجزائر، وهو من مشاهير البلغاء بها، ينادي بصوت جهوري: تعالوا

(1) الحاضرة ع 338 بتاريخ 5 مارس 1895.

إلى معرفة الأسباب الخلافية بينكم وبين المسلمين، لتسعوا في إزالتها، وتكونوا قد قمتم بخدمة التمدن والإنسانية، فلبى نداءه كثير من الأعيان والعلماء، وقام خطيبا بينهم يشرح بلسان فصيح إمكانية استمالة المسلمين استمالة ودية خالصة، كما تهللت اليوم طلعتها في تونس بمعاملتهم بمثل ما جاء في شريعتهم الجامعة لكل المصالح، يعني أن تكون الأحكام الفرنسوية الجارية عليهم محاذية للشرع الإسلامي محاذاة تناسب أخلاقهم وطبائعهم وعوائدهم، كما كان انتبه لذلك الإمبراطور الطائر الصيت نابليون بونابرت الذي أداه حب الاستعراب والتخلق بأخلاق المسلمين، منذ كان نزيل الديار المصرية، إلى خلع الثوب الأوروباوي، والتزيي باللباس المصري، ومخالطة العلماء الإسلاميين، بما بقي له أوقع أثر في التاريخ.

وانظر إلى الحكومة الروسية كيف انتبهت لهاته الغاية السياسية المهمة التي نتيجتها ملاك القلوب بحسن التدبير، فإنها كلما زادت تقدما في البلاد الشاسعة الإسلامية بآسيا إلا ونحتت من قوانينها دستورا، يقتدى به في المعاملات من عين شريعة البلاد، بل زاد الروس ترقيا ورغبة في مودة المسلمين الذين لحكمهم، فجعلوا يسهلون لهم سائر ضرورياتهم الدينية التي هي الركن الأعظم عندنا، فصنعوا لهم حوافل حديدية، بها بيوت للصلاة، عندما يكون المسلم مسافرا في الرتل، ولا يعهد أن مسلما مس في شعائره من يوم أدركت الروسيا سر هذه السياسة الغامضة التي استمالت بها قلوب رعاياها المسلمين.

ونرى اليوم بكل ابتهاج ما توفق إليه أفراد من الجنس

الفرنسوي الذين قاموا ينادون باستمالة المسلمين الإفريقيين، ومنهم السياسي الشهير مسيو جول كامبون، حكمدار الجزائر، الذي هو أخ السفير الفرنسوي بالآستانة، المعروف بقوة ميلانه للعنصر الإسلامي ميلانا كان له في نجاح مقاصده السياسية حظ وافر: إذ هو فهم أن السيادة بالرفق واللين أرسخ وأوفق منها بالشدة والعنف.

ولا أحد يجهل أن المسلمين مجبولون بالطبع على حب من أحسن إليهم، بقطع النظر عن ملته وجنسيته، ولذلك نرى منهم بسائر المعمور هزة فرح، لكل ما يبلغهم من خبر، حل ببني جلدتهم، انظر إلى الأثر الجميل الذي تناقلت صداه كثير من الجرائد العربية، بخصوص الجمعية التي تأسست في الجزائر، بهمة الحكيم النطاسي ابن العربي، تحت عنوان الاتحاد الفرنساوي العربي، وما كان لها من الرنة عند المسلمين العقلاء، الذين يبحثون عن أقرب الوجوه الموصلة لمعرفة أفاضل الفرنساويين، وتعريفهم بأنفسهم، حتى تنشأ عن ذلك بينهم روابط ودادية، يكون لها شأن في تحسين حالة الاستقبال بالبلاد الجزائرية، التي كثيرا ما سمع أنينها وتوجعها توجعا اهتز له أهل الإنصاف من الفرنسيس، وسعوا في إزالته، ومنهم واليها الحالي، الذي لولاه ما تم انعقاد الجمعية المشار إليها.

ومن أجل ذلك قال الخطيب فيلمينو في كلامه: إن المسلمين ليسوا بأعداء للتمدن والتقدم، بل أن شريعتهم صالحة بكل زمان ومكان، وطالما رأينا منهم بالجزائر وتونس إقبالا على الاقتداء بالفرنسويين في كثير من الضروريات الحياتية، ولا شيء أشد على المسلم كإخراجه من تحت راية شرعه السماوي،

الذي جاء به القرآن، لتجرى عليه أحكام دونتها أقلام العلماء الأوروباويين، ويزيده ذلك انقباضا عندما يعرف أن شريعة القرآن جاءت جامعة لكل المصالح، ومن يزعم أن شرع الإسلام عقيم، بمعنى أنه لا يلائم الأمور الحياتية فقد زاغ عن منهج الصواب، وجهل الأثر الإسلامي، (لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه) من أنه تحدث للناس أقضية، وطالما رأينا حدوث أمور في كثير من البلاد الإسلامية، وعلى الأخص في ممالك الدولة العثمانية مخالفة لعوائد المسلمين في صدر دولتهم، وقد وجد علماء المسلمين لذلك نصوصا فقهية ذللوا بها تلك الصعوبات، وهذا دليل واضح على سعيهم في إدخال ما يلائم الوقت من محاسن التمدن الأوروباوي، فيستنتج من هذا أن الشرع الإسلامي متكفل بجميع المصالح، ولذلك ترى من التبصر أن تتخذ من أحكامنا دستورا، تعرضه على ما في القرآن، لتحلتي به شرع المسلمين، وتجعله قانونا عاما لمسلمي الجزائر.

وهذا نفس ما فعله السلطان محمود خان [21] لما أذن بتدوين مجلة الأحكام المعروفة (بقانون نامه) فإنه اقتبس أحكامها من الشريعة، مع مراعاة ضروريات الوقت، وعلى ذلك المنهج استمر تدوين الأحكام بدار الخلافة الإسلامية، وهذا الأمر، وإن كان صعب التطبيق بالجزائر، إلا أن وجود مثله بتونس أقام دليلا للدولة الفرنسوية على حسن صنيعها هنا، وعلى صعوبة

---

(21) محمود خان السلطان الثلاثون للدولة العثمانية، قام بإصلاحات واسعة، قضى على الانكشارية، انهكته الحروب مع الروسيا، وكذلك حروبه مع محمد علي حاكم مصر الذي أراد أن يستولي على بلاد الشام، توفي سنة 1839.

مأموريتها بالجزائر صعوبة حالت دون جميع الآمال، سيما من تاريخ الأمر الذي أصدره الوزير كريميو [1] الذي جعل به العنصر الإسرائيلي بالجزائر ممتازا في كثير من الأمور، على نحو أربعة ملايين من المسلمين، وإلا فلا أحد ينكر انصياع القبائل، سيما في الجهات الشمالية إلى المسالمة والهدوء، حتى كان من عزم نابليون الثالث أن يفصل حكومة الجزائر عن فرنسا، ويجعلها مملكة عربية ذات أحكام وتراتيب ونظامات مختصة بها، ويملك عليها ابنه، حتى أن عساكر الزواف المتقيفين بلباس قسم من العساكر العثمانية(باش بوزوق) كان في جعلهم على تلك الصفة سر استمدته الحكومة الفرنسوية من سياسة نابليون الأول: أعني تشبيههم بالمسلمين، لكي تحصل بهم الألفة في البلاد الجزائرية ونحن طالما نوهنا بشأن سياسة التقرب بين العنصر الإسلامي والعنصر الفرنسوي، ولم ندع فرصة تمر من دون أن نحرص على ذلك، وكل يتذكر ما كتبنا بشأن السياسة التي انتهجها القس لوازون الخطيب اللاهوتي المشهور، وهي سياسة تشمل الغرض الذي شرحناه في هذا الفصل، وليس مرادنا اليوم الكلام على خاطب ود الإسلام فإننا فاعلوه، بعد أن نتصل بنص الخطاب الذي ألقاه حضرة القس بمصر، وطار بخبره البرق إلينا، وإنما نقتصر الآن على ذكر هذه الأريحية المحمودة العاقبة التي نرى

---

(1) قانون كريميو: أصدرت حكومة الدفاع الوطني في 24 أكتوبر 1870 المجتمعة بمدينة تور الفرنسية قرارا هذا نصه: « إن حكومة الدفاع الوطني، تقرر بأن جميع الإسرائيليين الأهالي في عمالات الجزائر قد أصبحوا مواطنين فرنسيين، وسوف ينتظم قانونهم الحقيقي والشخصي ابتداء من إصدار هذا القانون الفرنسي.وسوف يحتفظون بجميع الحقوق التي أكتسبوها. إن كل التشريعات وكل القوانين الصادرة عن مجلس الشيوخ والأوامر أو القوانين المخالفة لهذا القرار تعتبر لا غية».

بكل سرور امتداد حركتها بغالب إفريقيا الشمالية، ونشكر الدولة الفرنسوية على سياسة التقريب بين الإسلام والفرنسويين التي قام بها نخبة من أبنائها من مشاهير هذا العصر الجديد، وهي مقدمة نعتبرها كعربون صداقة بين تلك الدولة، وبين الأقوام التي ساقتهم الأقدار للعيش تحت سلطانها، بما سيبقى لها في بطون تواريخ العمران أجل صحيفة تنقلها ألسن الشكر والثناء جيلا بعد جيل [1]

التعريف بسيدي محرز بن خلف رضي الله عنه :

هو الشيخ المربي الصالح الفقيه العابد محرز بن خلف بن رزين بن يربوع بن حنظلة بن إسماعيل بن عبد الرحمان بن سيدنا ابي بكر الصديق رضي الله عنه، توفي سنة 413 [2] عن نحو73 سنة، ودفن بداره التي هي زاويته المعروفة، وبها يقرئ الصبيان بعد أن درس تعليم القرآن بأريانة والمرسى [3] ومنه يفهم أن هذين البلدين كانا موجودين في المائة الرابعة، وكان الشيخ محرز صاحب مناقب مذكورة، وكرامات مشهورة، له مواقف حفظها له

---

(1) الحاضرة ع 388 بتاريخ 3 مارس 1896.

(2) 413/ 1022

(3) كانوا يسمونها في القديم مرسى ابن عبدون، ثم غلب عليها في الدولة الحفصية اسم مرسى جراح، وجراح هذا من رجال المائة السابعة، واسمه جراح العربي، كان من الصالحين الأخيار، ومن معاصري الشيخ عبد العزيز المهدوي صاحب الضريح المعروف، ونسبت المرسى للشيخ جراح، لأنه كان يرابط بها للاحتراس عليها من مراكب العدو، وزمنه يوافق عصر الحروب الصليبية(التعليق لابن الخوجة).

التاريخ، مع المعز بن باديس [1] من أمراء صنهاجة، ترجم له القاضي عياض [2] في كتاب المدارك، وخصه الشيخ أبو الطاهر محمد بن الحسن الفارسي [3] بكتاب استوعب فيه ذكر فضائله وأدعيته وسيرته وأحواله وأخباره، كان معاصرا لجماعة من أهل العلم والصلاح، منهم قريبه الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي زيد صاحب الرسالة [4] والشيخ أبو الحسن القابسي [5] وهبة الله بن عقبة [6] وغيرهم من رجال المائة الرابعة، قال في المؤنس [7] إن الأسبانيول،

---

(1) المعز بن باديس من امراء الدولة الصنهاجية، كان جريئا في علاقته مع الدولة الفاطمية الى درجة التحدي، وهو الذي أعلن رفضه للمذهب الشيعي، والتمسك بمذهب أهل السنة، حكم فترة طويلة، وذلك بين سنتي406/ 1015 حتى 463/ 1061

(2) أبو الفضل عياض بن موسى من قضاة المالكية، من مؤلفاته الشهيرة (الشفاء بتعريف حقوق المصطفى) في الحديث، وهو يقرن عادة بصحيح البخاري على الأقل على لسان نساء تونس العاصمة، فهن يحلفن به قائلات: «والشفاء والبخاري» توفي 544/ 1149

(3) لم اعثر على ترجمته

(4) هو عبد الله بن عبد الرحمان القيرواني، من اعلام المذهب المالكي بتونس، أهم كتبه في الفقه (الرسالة) توفي386/ 996

(5) ابو الحسن القابسي من علماء المالكية بتونس، له مؤلفات منها (كتاب الاعتقادات) وأشهرها (الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين) نشرها عبد العزيز الأهواني، كما حققها أحمد خالد، توفي بالقيروان سنة403/ 1012

(6) لم أجد له ترجمة

(7) (المؤنس في أخبار افريقية وتونس) لأبي عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، وهو كتاب في تاريخ تونس في القرن السابع عشر الذي عاش فيه المؤلف، فقد توفي نحو 1110/ 1698

لما غزوا تونس دخلوا بخيول لجامع الزيتونة، ومزقوا ما به من الكتب، ثم نبشوا قبر الشيخ سيدي محرز بن خلف، فلم يجدوا به غير التراب. اهـ

وأما زاويته الموجودة، وبسقيفها مقابر جماعة من سلاطين الدولة الحفصية وآلهم، فقد تناولها التجديد مرارا في القرون الماضية، ففي المائة التاسعة جدد بناءها السلطان محمد المنتصر بن المنصور بن أبي فارس الحفصي، ولما دخل الأتراك لتونس، وأطردوا منها الأسانيول، الذين عاثوا فيها بالفساد، أعادوا بناء ضريح الشيخ الذي نبشه أولئك الحيوانات العجم، وفي صدر الدولة الحسينية بنى المولى حسين بن علي قباب الزاوية، وآخر تجديد لعمارتها كان في عهد المشير محمد الصادق باي، كان المباشر لهندسة بنائها، والناظر على أشغالها الأمير الاي حسونة بن مصطفى من ضباط الدولة التونسية الذين زاولوا العلوم الرياشية بمكتب الحرب بباردو، وقد تم سقيفها وبابها في سنة 1279 [1] وتمت عمارة الضريح وقبّته وملحقاته في سنة 1285 [2] وفي ذلك يقول شاعر تونس الشريف المفتي الشيخ أبو الثناء محمود قابادو [3]:

ذَا مَقَامٍ لِلْمِحْرِزِ الصَّدِيقِ مِحْرَزُ
الحَصْـــلِ وَالكَمَــالِ الحَقِيقِي

---

(1) 1862/1279

(2) 1868/1285

(3) محمود بن محمد قابادو من أشهر شعراء تونس في القرن التاسع عشر، رحل إلى طرابلس الغرب، ثم اسطنبول، ودرس العربية في مدرسة باردو الحربية، وله ديوان شعر مطبوع، توفي 1871.

قِفْ بِهِ سَائِلاً وَأَعْظِمْ وَأَيْقِنْ بِبُلُوغِ المُنَى وفَسْحِ المَضيقِ

وقد تضمن ديوان الكاتب الأديب المؤرخ الشيخ الباجي المسعودي [1] قصيدة فاخرة، ضمنها تاريخ بناء باب الزازية المحرزية، مطلعها:

هَذَا مَقَامٌ عَظِيمُ القَدْرِ فَاسْعَ وَطُفْ
وَلُذْ بِأَبْوَابِهِ واسْأَلْ هُنَاكَ وَقِفْ

وبيت التاريخ

وَذِي كَرَامَتُهُ لاَحَتْ بَشَائِرُهَا
وَجَاءَ تَارِيخُهَا أَكْرِمْ مِحْرِزَ بْنَ خَلَفْ 1279

ومما اشتملت عليه هذه العمارة تجديد تابوت القبر، وجعلوه في طبقتين، مع تحويطه بقفص من الفولاذ، حوله سياج من جهاته الأربع، وقد أعجب الناس بهذا التابوت، وسار خبره في البلدان، لا سيما المنتسبين لأهل الطريق، ومنهم تلاميذ الطريقة التيجانية، فصنعوا تابوتا مثله بتونس على يد المعلم أحمد الغربي النجار، وأهدوه لضريح الشيخ سيدي.أحمد التيجاني بفاس، وقد أتيح لي رؤيته هنالك في صائفة 1317 [2] ويتضح مما تقدم أن تجديد عمارة الزاوية المحرزية في أواخر القرن الماضي كتبت يد الأقدار حسنتها

---

(1) هو محمد الباجي بن محمد المسعودي، شاعر ومؤرخ تونسي، عاش في القرن التاسع عشر، عاصر أغلب بايات الدولة الحسينية من حسين باي الثاني إلى الصادق باي، صاحب كتاب (الخلاصة النقية في أمراء إفريقية) توفي المسعودي سنة 1880

(2) 1902/1317

في صحيفة المشير محمد الصادق باي، ولا عجب في ذلك فإن هذا الأمير، طاب ثراه، كان صميم العقيدة، والانتماء للشيخ محرز الصديقي، ناهيك أنه أوصى بدفنه جوار قبر هذا الولي، وإن لم تسعف الأقدار بانجاز ذلك بعد وفاته، مراعاة للقاعدة المسنونة من دفن الملوك الحسينيين بالمقبرة الملكية الخاصة بهم، خلفا عن سلف، وكان هذا الباي لا يتخلف عن ضريح الشيخ في المواسم، وعند الأزمات، ومن اسمه اقتبس اسم الطابق العلوي المسمى بالمحرزية في سراية القصر السعيد، وإليه ترجع مزية تحبيس ذلك المصحف الكريم، الموقوف على الزاوية، وهذا المصحف نسخه الشيخ حمودة قميحة، أشهر الخطاطين بتونس في زمنه.

هذا وقد كان، ولم يزل للزاوية المحرزية بين اهل تونس منزلة محفوفة بالإجلال والاحترام، ناهيك أنهم يسمون الشيخ محرز بسلطان المدينة، وكان المضطرون يلتجؤون لمنيع حماه، وعلى قياسهم أصحاب الجرائم المثقلة ظهورهم بالديون، فيجدون هنالك مأمنا ومهربا من الحكام [1].

---

(1) سئل الشيخ الجد من طرف المشير احمد باي :هل يجوزغصب الأثيم الملتجئ لزاوية سيدي محْرز بن خلف على الخروج للحضور بين يدي القضاء، فأجاب بأن النصوص الفقهية تقتضي ذلك، ولكنه لا يفتي به في زمنه، لأن من يلتجئ لدار أحد القناصل يكون في منعة من الحكم، وإذا كان ذلك كذلك فالأحرى والأحق مراعاة حرمة الزاوية المحرزية ا.هـ وبالتالي تنوسي التجاء الجناة للاحتماء بحرم الزاوية بسبب انتشار سلطان العدالة بين الخاصة والعامة، ورسوخ قدم القانون، وبسط جناحه على كافة السكان، بحيث إن الالتجاء لأضرحة الصالحين صار غير معروف عند أبناء الجيل الحاضر، وبقي بمحفوظي أن آخر جريمة لاذ صاحبها بضريح سيدي محرز بن خلف حدثت في سنة1316 اثر تاسيس المجالس العدلية، تولى الشيخ محمد العزيز بو عتور فصل نازلتها بإخراج الرجل المجرم من الزاوية المحرزية، ودفعه

وكان الشيخ محرز بن خلف ممن انتهى إليهم علم الفقه، ناهيك أنه نظر في مسائل الخلاف بين أصحاب الإمام مالك، وكان من أصحاب الرحلة في طلب العلم، نقل الفقيه أبو بكر الصقلي [1] أن الشيخ رضي الله عنه لما وصل إلى مصر أراد أخذ علم القراءات على الشيخ ابن الأذفر [2] أعلم علماء ذلك الفن في زمنه، فلما أتاه، واستفتح في القراءة جعل ابن الأذفر يتحدث مع رجل، كان لجانبه، فسكت الشيخ محرز فقال له معلمه اقرأ، فأجابه بقوله: وحي الله والحديث لا يجتمعان، قال له شيخه قد صدقت، وقطع الحديث، وقال أبو القاسم النحوي [3] ما رأيت أبا محفوظ (محرز بن خلف) لحن في

لمجلس الحكم، فكانت هي آخر عهد بالتجاء المجرمين لزوايا الصالحين بتونس. وتلك الزوايا هي زاوية سيدي محرز بن خلف، والزاوية القادرية بالديوان، والزاوية البكرية ،وزاوية سيدي أحمد بن عروس، وزاوية سيدي إبراهيم الرياحي، وزاوية سيدي منصور بن جردان، وزاوية السيدة المنوبية، واسمها عائشة بنت أبي موسى عمران ابن الحاج سليمان المنوبي، وأمها فاطمة بنت عبد السميع، ومولدها بمنوبة، وزاوية سيدي فتح الله العجمي، والمقام الشاذلي، وزاوية سيدي علي بن زياد، يلتحق بها الاستشفاع بنعش صاحب كرسي تونس، وكانوا يعتقون عليه عبيده يوم مماته، ويكتبون لكل منهم براءة في عتقه من الرقية، فيجعلها في رأس قصبة، ويحملها في يده، وهكذا يمشون في مقدمة جنازة سيدهم إلى مواراته، قالوا إن أبي الثناء المولى محمود باي عند وفاته في سنة 1239 عتق عليه ابنه المولى حسين باي الثاني مائة من العبيد الزنوج بين ذكور وإناث، أدركت واحدة منهم(؟) في أرذل العمر، أطلت على ما وراء المائة، وسمعت منها ما يؤكد ذلك، بزيادة أنها احتفظت بصك عتقها، وأوصت بدفنه معها، لتكون عتيقة في الدنيا والآخرة (والأعمال بالنيات) التعليق لابن الخوجة

(1) أبو بكر محمد بن عبد الله بن يونس الصقلي نزيل المهدية فقيه وفرضي، ألف في الفرائض وكتابا جامعا للمدونة توفي 451،/1059

(2) ابن الأذفر لم اعثر على ترجمة له

(3) أبو القاسم النحوي : لم أعثر على ترجمة له.

شيء من كلامه قط، فلا يتكلم إلا كلام العرب، وكان مشهورا بالفقه والعبادة، وكان في شبيبته يعلم القرآن بأريانة، ثم انتقل لسكنى المرسى، وبعد ذلك اشترى دارا بناحية باب السواقين، وهي زاويته اليوم، وصار يقرئ بها القرآن والفقه والحديث.

وقال امام السنة الشيخ أبو بكر الباقلاني [1] وقد ذكر عنه يوما ببغداد: لو أدرك محرز السلف لكان خامس الأربعة، يعني الخلفاء الراشدين اهـ. هكذا وقفت عليه بخط بعض الأفاضل، ويلوح أن الأولى تفسير أولئك الأربعة بأئمة مذاهب السنة أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل [2] لا الخلفاء الراشدين الذين يتلوهم في مقدمة الصف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قبل أوليائه وأصفيائه.

ومن شعر سيدي محرز بن خلف في وصف الظلم والظالم، بنقلنا عن كتاب المنتخبات التونسية :

إِذَا ظَالِمٌ قَدْ عَاهَدَ الظُّلْمَ مَذْهَبًا
وَجَارَ غُلُوًّا فِي عُلُوِّ اكْتِسَابِهِ
فَكِلْهُ إِلَى رَيْبِ الزَّمَانِ وَجَوْرِهِ
سَيُبْدِي لَهُ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِهِ
فَكَمْ ذَا رَأَيْنَا ظَالِمًا مُتَجَبِّرًا
يَرَى النَّجْمَ تِيهًا تَحْتَ ظِلِّ رِكَابِهِ

(1) القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، من أكابر المذهب المالكي، من مؤلفاته اعجاز القرآن، والانصاف فيما يجب ولا يجوز فيه الخلاف، توفي 402/ 1013

(2) توفي أبو حنيفة سنة 150 ومالك سنة 179 والشافعي 204 وابن حنبل 241

فَلَمَّا تَمَادَى وَاسْتَطَالَ بِجَوْرِهِ
أَنَاخَتْ صُرُوفُ الحَادِثَاتِ بِبَابِهِ
وَعُوقِبَ بِالذَّنْبِ الذِي كَانَ يَجْتَنِي
وَصَبَّ الله عَلَيْهِ صَوْتَ عَذَابِهِ
فَلاَ فِضَّةَ تَحْمِيهِ عِنْدَ انْفِضَاضِهِ
وَلاَ ذَهَبٌ يُثْنِيهِ عِنْدَ ذَهَابِهِ

ومن شعره في وصف الدنيا وتقلباتها :

أَبْدَتْ لَنَا الدُّنْيَا زَخَارِفَ حُسْنِهَا
مَكْرًا بِنَا وَخَدِيعَةً مَا فَتَرَتْ
وَهْيَ الَّتِي لَمْ تَحْلُ قَطُّ لِذَائِقٍ
إِلاَّ تَكَدَّرَ طَعْمُهَا فَتَمَرَّرَتْ
خَدَّاعَةٌ بِجَمَالِهَا إِنْ أَقْبَلَتْ
فَجَّاعَةٌ بِزَوَالِهَا إِنْ أَدْبَرَتْ
رَهَابَةٌ سَلاَّبَةٌ لِهِبَاتِهَا
طَلاَّبَةٌ لِخَرَابِ مَا قَدْ عَمَّرَتْ
فَإِذَا بَنَتْ أَمْرًا وَتَمَّ بِنَاؤُهَا
نَصَبَتْ مَجَانِيقُهَا عَلَيْهِ فَدَمَّرَتْ
مَاذَا مِنَ الأُمَمِ السَّوالِفِ أَهْلَكَتْ
لَوْ أَنَّهَا نَطَقَتْ بِذَاكَ لأَخْبَرَتْ
طُلاَّبُهَا فِي غَفْلَةٍ مِنْ حُبِّهَا
عَلِقَتْ بِهَا أَلْبَابُهُمْ فَتَحَيَّرَتْ

أما مناقب الشيخ محرز وكراماته فحدث عن البحر ولا حرج، ومن الأسف أن أخباره بقيت حتى اليوم مشتتة بالدواوين والمجاميع والكناشات، ولم تبرز لعالم الظهور في

كتاب مستقل، لإظهار فضائله الدينية وحسناته الاجتماعية بين كافة الطبقات، لأنه كان من الرجال الصالحين، ومن كبار المصلحين، الذين كانت لهم يد عاملة في شؤون العمران بتونس، ناهيك أنه من حسناته في مقام المشاريع الإنسانية حماية أهل الذمة، بما جوزته الشريعة المطهرة، قالوا إنه هو الذي رخص لليهود السكنى في كنف رعايته، قريبا من داره بالحارة الإسرائيلية، التي تحولت لقصور في هذا الزمان، وكان اليهود في ذلك العهد لا يدخلون مدينة تونس إلا في النهار، وأما مبيتهم ومساكنهم فإنها كانت بالملاسين.

وفي الخلاصة النقية أن وفدا من اليهود دخلوا لإفريقية في أواسط المائة الرابعة، مما يدل وأن بني جلدتهم كانوا في عيش هنيء يومئذ بتونس، الأمر الذي مكن إخوانهم من يهود البلاد الخارجية أن يلتحقوا بيهود الديار التونسية، ومهاجرة اليهود من البلاد الأجنبية للبلاد التونسية تكررت مرارا في بحر القرون الوسطى، وفي القرون المتأخرة، وكانت وفود اليهود القادمين من اسبانيا لتونس متعاقبة، فيما بين القرن الثامن والقرن الحادي عشر، كلما قدم وفد من مسلمي الأندلس لشمال إفريقيا أعقبهم وفد من اليهود الاسبانيين، وآخر وفد من اليهود جاؤوا لتونس هم يهود نابلي من أعمال ايطاليا، حيث كانوا يسومونهم سوء العذاب في القرن السابع عشر للميلاد، وهاهم اليوم من جديد بحالة اضطهاد في أوروبا الوسطى،وفي ايطاليا، فقد صادروهم في أملاكهم، وحرموا عليهم الالتحاق بأبناء البلاد.

هذا وقد أثبت التاريخ أن الشيخ محرز بن خلف كانت له شهرة عالمية، ومما رأيت له في ذلك أن امرأة جاءته مستغيثة بجاهه، ليخلص ابنا لها سقط في أسر الروم، فقال لها الشيخ: إني لا أعرفهم، فألحت عليه في الطلب، فقال: باسم الله، وكتب مكتوبا لامبراطور القسنطينية العظمى في طلب تسريح ذلك الأسير، فلما وصل المكتوب للامبراطور أطلق ذلك الأسير، وأحسن إليه، وكان سلاطين آل عثمان يصدرون الفّرمانات لولاة تونس في الوصاية خيرا لآل الشيخ محرز بن خلف، ويأمرونَهم بإعفائهم وأتباعهم من الضرائب والمجابي، وهذه المراسيم السلطانية تقدمها صدور ظواهير كثيرة، بمعناها من الأمراء الحفصيين، ومن أمراء صنهاجة، منها ظهير أصدره المعز بن باديس في رعاية الشيخ واحترام جانبه، وتحرير أهله وأتباعه ومنسوبيه من الضرائب الدولية.

(ونذكر أنه) ورد على الشيخ أحد تلاميذه من طلبة العلم، مستجيرا به من مظلمة أصابته من باديس، فقال الشيخ: الله المستعان، وأخذ قرطاسا، وكتب :

من محرز بن خلف إلى باديس بن المعز، حقق الله الحق في قلوب المؤمنين من عباده، ونقل المذنبين إلى ما افترض عليهم من طاعته، أنا رجل عرف كثير من الناس اسمي، وهذا من البلاء، وأنا أسأل الله أن يتغمدني برحمته وفضله، وربما أتى المضطر يسأل الحاجة، فإن تأخرت خفت، وإن سارعت فهذا أشد، وقد ورد علي رجل يزعم أنه طلب في دراهم ظلما، وليست عنده، فاعمل على رضاء ما لا بد لك من لقائه، واستحي ممن بنعمته وجدت لذاذة العيش، ولا

يغرك توالي زخارف الدنيا عليك،ولا تعادي من أنت محتاج إليه،وحاذر بطانة السوء، فإنهم يأكلون دراهمك، ويقربون من النارلحمك ودمك، وشاور في أمرك من يتق الله، فهو حسبه «إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا» [1] خف من لا يحتاج إلى عون عليك، بل لو شاء اتلافك أخرجك عن نفسك حتى يكون هلاكك على يدك، سالم تسلم، أنت على رحيل، فخذ في الزاد، والسلام.

فلما وصل الكتاب إلى باديس قال: هذا كتاب صديق الله، وأمر بكتب سجل في تحريركافة طلبة العلم، ورفع المظالم عنهم، نقل ذلك القاضي عياض في المدارك.

واعلم أن لأهل تونس عقيدة صميمة في الشيخ محرز بن خلف، سواء في ذلك الرجال والنساء، ويكثرون التردد على مقامه للزيارة والدعاء، والدعاء جائز شرعا في مظنات الاجابة التي منها مقامات الصالحين، ومن شواهد تبرك أهل تونس بالشيخ محرز بن حلف أن الكثير من أهل البيوت الكبيرة إذا عقدوا لبناتهم يتوجهون بالعروسة لزيارة مقام الشيخ، قبل دخول زوجها عليها، وبمثل ذلك جرت عادتهم عند ختن الصبيان، فإنهم يتوجهون بالصبي المراد ختنه، ويسقونه غرفة ماء، ويغسلون وجهه من بئر الزاوية، وقد تضمن التاريخ التونسي حديثا لهذه البئر في واقعة تعرف بواقعة جماعة البقال، حدثت في دولة المرحوم الباشا مصطفى باي، وصورتها على ما نقله

---

(1) الطلاق :3

المؤرخ الوزير الشيخ أحمد ابن أبي الضياف [1] أن بعض أهل تونس لم يرضوا إذ ذاك بإحداث النظام العسكري الذي ابتدأه المرحوم حسين باي في أواخر دولته (1247) [2] واستمر أخوه مصطفى باي من بعده على إتمامه، فتوجهوا لزاوية سيدي محرز بن خلف، وتعاهدوا على مناصرة بعضهم بعضا، وكل من انضم لهم يقدم مثلهم للزاوية المذكورة، ويشرب من البقال المملوء من بئرها، كناية عن موافقته، ودخوله في الاعتصاب، وتمت النازلة بتشتيت أولئك الجماعة، مع تكسير البقال، ولله في خلقه شؤون [3].

مـــات ولم يمـــت :

نعت أخبار الإسكندرية وفاة الإمام مفتي الإسلام، وعلاّمة الأنام، نادرة الدهر الأستاذ الكبير، والنقادة الشهير، نسيج وحده، مولانا الشيخ محمد عبده، مفتي الديار المصرية رحمه الله.

كنا على وجل الإشفاق من أخبار صحته التي أخذت في الانحطاط، من نحو أربعة أشهر فارطة، واضطرته للانتقال من القاهرة للإسكندرية، بنية السفر لتغيير الهواء، خارج القطر المصري، فكنا نستطلع أحواله آنا فآنا، ونجدد معه

---

(1) أحمد بن أبي الضياف، مؤرخ تونس الكبير، ألف اتحاف أهل الزمان في ثمانية أجزاء، ومن مؤلفاته رسالة في المرأة نشرها المنصف الشنوفي. توفي 1874.

(2) 1247/1827

(3) محمد ابن الخوجة: تاريخ معالم التوحيد في القديم والجديد ط تونس1358/1939 ص120 (باختصار)

عهود المودة الوثيقة، ونستمد من أنوار علومه على بعد الدار، فكان الرشيد المرشد، لمن قرب أو نأى، وآخر العهد به ورود مكتوب منه على أحد أصحابنا [1] ممن لهم معه علاقة علمية، ورابطة وداد.

سمعنا منه أنه ولد رحمه الله في حجة 1266 [2] وذلك بمحلة نصر من أعمال البحيرة، ودخل الأزهر الشريف لتلقي العلوم متبعا للمذهب المالكي الزكي، فأخذ العلم عن أكابر الشيوخ، مثل شيخ الإسلام عليش [3] وكان يعده أنبغ تلامذته، ومثل الأستاذ الشيخ حسن الطويل [4] أنبغ أهل عصره، والشيخ البسيوني [5] اللذين كانا يشهدان له بسرعة البديهة، وتوقد الخاطر، وظل فقيد الإسلام يتفقه ويتعلم بالأزهر إلى أن وفد على القاهرة أواخر سنة 1286 [6] المرحوم فيلسوف الإسلام

---

(1) لعله البشير صفر رئيس الخلدونية، والذي كان من مراسلي مجلة المنار

(2) 1266 / 1849

(3) محمد عليش، فقيه من أعيان المالكية، من كتبه منح الجليل على مختصر خليل (4 أجزاء) وغيره توفي سنة 1882 وهو الذي جرت بينه وبين الشيخ محمد عبده مشادة كلامية، كادت أن تتحول إلى الضرب بالعصا، وملخصها أن الأستاذ عبده ترك التقليد، وأخذ بالدليل، واتهم الشيخ عليش، محمد عبده بعدم فهمه للعقائد النسفية، قائلا له: أو مثلك يفهم العقائد؟ ثم رجع الشيخ عبده لإلقاء درسه، ووضع بجانبه عصا لرد اعتداء الشيخ عليش الذي هدده بالضرب (راجع الأعمال الكاملة لمحمد عبده تحقيق محمد عمارة ج3 ص 192).

(4) حسن الطويل (1834 - 1899) تعلم بطنطا، ثم بالأزهر، واشتغل بالتدريس، ثم أصبح متفقدا في وزارة المعارف المصرية.

(5) محمد علي البسيوني البيباني، (تعلم بالأزهر، ودرس فيه، وعين مفتيا في عهد الخديوي توفيق توفي1892).

(6) 1286 / 1869

السيد جمال الدين الأفغاني [1] وانتصب للتدريس بالأزهر [2] فلازمه الفقيد ملازمة الظل، وكان يقول له: «إن الذكاء يتوقد في عينيك، والشهرة مرسومة في جبينك» وهو الذي كمل ترقية مواهبه الفطرية، ولما تخرج عليه في علوم المعقول أخذت النهضة الأدبية العصرية بمصر في الظهور أواخر دولة إسماعيل باشا [3]، وكان الوزير الخطير رياض باشا [4] من أعظم المساعدين لذلك، فعين الفقيد مدرسا للعربية بمدرسة الألسن، فجمع بينها وبين التدريس العلمي بالجامع الأزهر، لكن تلك النهضة لم ترق في عين الخديوي الجبار، فعزل رياض باشا من الوزارة، وأبعد جمال الدين عن مصر، وحكم برجوع الفقيد إلى مسقط رأسه، فمكث بمحلته إلى أن عاد رياض باشا للوزارة على عهد الخديوي توفيق باشا [5] وكانت فاتحة وزارته تعيين الشيخ محمد عبده محررا

---

(1) جمال الدين الأفغاني (1839 - 1897) من زعماء النهضة العربية الحديثة، ومن دعاة الوحدة الإسلامية، من كتبه (رسالة الرد على الدهريين) بالفارسية، وقد ترجمها محمد عبده إلى العربية

(2) الصواب خارج الأزهر، والتعليق للمنار

(3) تولى حكم مصر من سنة1863 حتى سنة عزله 1879 دشن قناة السويس(1869) بالغ في إسراف المال حتى أفلست خزانة الدولة، وازداد دين الأجانب، مما أدى إلى تدخل الدول الأوروبية، وإلى ثورة عرابي

(4) رياض باشا (1834–1900) وزير مصري عصامي، تدرج من كاتب بديوان المالية إلى رئيس للوزارة، وقد تولاها ثلاث مرات، واشتهر بمناصرته للصحافة

(5) توفيق باشا خديوي مصر حكم بين سنتي 1879 و1892 في عهده وقع الانتداب البريطاني، وتخلى عن سيادته على السودان

للوقائع المصرية [1] التي هي الجريدة الرسمية بمصر، ومن ذلك العهد أي من سنة 1297 [2] أخذ أمره في الاشتهار، وفضله في الانتشار، فأنشأ بالوقائع المصرية قسمها الأدبي الذي كان له في ذلك العهد ذكر ينقل، وحديث يسمع بين حملة الأقلام، فكان أبلغ البلغاء إذا كتب، وأفصح الفصحاء إذا خطب، وكان أقوى العلماء والأدباء بيانا، وأجودهم بالحكمة لسانا، وأوسعهم في معاريض الكلام باعا، وأوفرهم في مفاهيم العلوم اطلاعا، وأبعدهم مرمى، وأسدهم سهما، وكان عظيم الهمة كبير النفس، يغالب كرات الزمان بثبات عَزٍّ عن النظير، ويستصغر الكبائر، ويستسهل المصاعب، ويستهين بكل شيء اعترضه في مسيره، ومما يؤثر عنه في هذا المعنى قوله: «إنني لا أخشى شيئا سوى الموت، لأنه يقطع علي خط السير» وبالجملة فإن الشيخ محمد عبده كان رجلا «والرجال قليل» عند ظهور الحوادث العرابية [3] بمصر أثناء سنة 1299 [4] كان للفقيد يد عاملة في حركة

(1) الوقائع المصرية: في البداية كانت تسمى جورنال الخديوي (1827) ثم بعد سنة أصبحت تسمى (الوقائع المصرية) وجعلها محمد علي مؤسسها لسان حال الحكومة، وتعتبر الجريدة الرسمية للدولة، وهي أول صحيفة في العالم العربي

(2) 1297 / 1878

(3) نسبة إلى أحمد عرابي باشا (1841 – 1911) زعيم الحزب القومي المصري، ثار ضد الانجليز ليحرر بلاده من الاستعمار الأجنبي، وخاصة الانجليزي منه، فضربت الإسكندرية بالمدافع، وتم احتلال بريطانيا لمصر، ونفي أحمد عرابي إلى سرنديب

(4) 1299 / 1881

الأفكار، بما كان ينشره بالجرائد والمجلات، وكان يومئذ رئيسا على عموم المطبوعات، فعلت منزلته، حتى قيل إن العرابيين لايبرمون أمرا دون استشارته، ولدينا في الحوادث العرابية رسالة من إنشائه، كنا أخذناها منه عند زيارته الأولى لتونس [1] لكن نعلم علم اليقين أن المرحوم كان ينكر كثيرا من أعمال العرابيين، ولما احتل الانجليز وادي النيل قبضوا على الفقيد في جملة الرؤساء المقبوض عليهم، وأودعوه السجن إلى أن حوكم في ذي القعدة 1299 وكان وكيله المستر بروادلي المحامي الشهير الذي كان له ذكر بتونس على أول الاحتلال الفرنسي، فقضى عليه بالإبعاد مدة ثلاث سنوات، مع منعه من الرجوع لمصر، بدون إذن حكومتها، ومما نقموه عليه يومئذ ما قيل من أنه أفتى بخلع الخديوي توفيق باشا.

بعد الحكم عليه استوطن الفقيد ديار الشام، حيث انتصب للتدريس بين الناس، فالتف حوله أهل الأفكار السامية، وأخذ عنه خلق كثير، وانتفعوا بعلمه، وأجلوا مقامه، ثم في حدود سنة 1303 [2] التحق بالسيد جمال الدين الأفغاني، نزيل باريس، وأصدر هنالك جريدة العروة الوثقى [3] المشهورة،

---

(1) مر على تونس وهو عائد من باريس عام 1884

(2) 1303 / 1885

(3) العروة الوثقى صدرت في باريس عام 1884 من قبل الأفغاني ومحمد عبده، وكانت ترسل لمن يطلبها بدون مقابل، وقد ظهر منها ثمانية أعداد، وتباع اليوم في شكل كتاب، نشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان ط(3) 1403 / 1983 في 454 ص

التي لم يزل صداها بأسماع كتاب العالم الإسلامي قاطبة، وفي تلك الأثناء تعلم وأتقن اللسان الفرنسوي.

وفي سنة 1305 [1] عفا عنه الخديوي توفيق باشا، ورخص له بالرجوع لوطنه، وما أن استقر بمصر حتى سمته دولته قاضيا بمحكمة بنها، ومنها انتقل لمحكمة الزقازيق، فمحكمة مصر القاهرة.

وفي سنة 1308 [2] تَعيَّن مستشارا بمجلس الاستئناف، وبعد سبع سنوات ارتقى لخطة مفتي الديار المصرية المنحلة عن الاستاذ العلامة الشيخ حسونة النواوي [3] وظل متربعا على منصتها العالية إلى أن أدركته المنون.

هذا وللشيخ محمد عبده آثار علمية مذكورة، وفضائل مأثورة، منها ما وقفنا عليه، كتفسيره للقرآن الشريف، ورسائله العديدة في تطبيق العلم على الدين، وردوده على الدهريين [4] ورده على الوزير هانوتو [5] الذي تهجم على

---

(1) 1305/1887

(2) 1308/ 1890

(3) حسونة بن عبد الله النواوي (1840- 1925) فقيه مصري، تعلم بالأزهر، وتولى تدريس العلوم الشرعية في مدرسة الحقوق المصرية، وتنقل في مناصب القضاء، ثم ولي إفتاء الديار المصرية ومشيخة الجامع الأزهر مرتين، له (سلم المسترشدين في أحكام الفقه والدين)

(4) رسالة الرد على الدهريين هي كما ذكرنا سابقا من تأليف أستاذه جمال الدين الأفغاني

(5) صدر رد من الشيخ محمد عبده تحت عنوان (رسالة في الرد على مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا سابقا) ونسبت الرسالة لعظيم من

الإسلام، وتآليف أخرى تفوت الحصر، ربما نأتي على ذكرها في فرصة أخرى.

ومن حسناته مساعدته لمجلة المنار [1] التي لم ينسج الناسجون على مثلها في الأزمان الغابرة والحاضرة،وكان الفقيد رحمه الله عليما بدرجته، وبمقدار خدمته للإسلام، فكان يردد على فراش موته عبارات الأسف عن عدم بلوغه نهاية المشروع السامي الذي اختطه لنفسه في خدمة وإصلاح الأمة الإسلامية (...)

ويقال إن من آخر كلماته أيام مرضه قوله: «ما دخلت السياسة في شيء إلا أفسدته.» وكأنه أشار رحمه الله بذلك لحادثته الأخيرة مع سمو خديوي مصر.

لقد حل به الأجل المحتوم، وهو على عقيدة حب الخير للإسلام والمسلمين، فهو الفقيد الذي يرثيه العلم، وتبكيه الشورى، وتتوجع عليه الفتوى، وتندبه جمعيات البر، ويتحسر عليه الأزهر، وفي الحقيقة أن اسمه لم يمت، وإنما الميت هو شبحه الذي مات بموته خلق كثير، فقد كان، نعمه الله، أشفق أب لليتامى، وأحن أخ للبؤساء والمساكين، وكم من يد كانت تمد له في ظلام الليل، فيواسيها بالمعونة والإحسان، والله شهيد عليم.

عظماء الإسلام وإمام من أئمته الأعلام طبع مصر (د ت) ثم نشرت في الأعمال الكاملة لمحمد عبده تحقيق محمد عمارة

(1) صدرت بداية في شكل جريدة، ثم أصبحت مجلة، ويصدر المنار (1898 - 1935) الشيخ محمد رشيد رضا(1865 - 1935) وتعتبر مواصلة لمجلة العروة الوثقى، وتعد من أبرز المجلات الدينية في عصرها، وكان من أبرز مراسليها في تونس الشاذلي درغوث والبشير صفر

عندما أسلم الفقيد العزيز الروح لرب القلم واللوح، طير البريد خبر وفاته، لسائر الجهات، فكان لمنعاه أسوأ وقع في النفوس، وتقطبت الوجوه، وانقبضت النفوس، واندملت الأفئدة، لأن الموت إنما اغتال إماما مرشدا، وعالما جليلا، وأستاذا حكيما، وحبرا شهيرا، ملأ ذكره الخافقين، وأصدر قائمقام الخديوي أوامره بأن تتولى الدولة القيام بشؤون الجنازة، والاحتفال رسميا بها، إشعارا بما للفقيد من الجلال والعلم والفضل، فأجريت على جثته المكرمة الأعمال السنية، ثم أدرج في شال كشمير، وحمل نعشه من الدار التي مات بها بالإسكندرية، صبيحة غد وفاته، وسار موكب الجنازة في انتظام عجيب، يتقدمه فخامة القائمقام خديوي، ويتبعه أهل الحل والعقد، ورجال العلم، ونواب الدول، ورؤساء الملل، وطلبة العلم، وعامة الناس في عد الألوف، وقصدوا به محطة السكة الحديد، لنقله إلى القاهرة على قطار مخصوص، فوصلها بين مظاهر الحزن العمومي من كافة السكان، ولدى وصول القطار انتظم موكب الجنازة الرسمية، فكانت عساكر البوليس ركوبا وفرسانا، ورجال خفر السواحل، والألوف من تلامذة المدارس، يمشون حول نعشه، ووراءه من خاصة الناس وعامتهم ألوف تلو الألوف، ومهما مر موكب الجنازة بسوق أو شارع إلا وأقفلت أبوابه، إشعارا بالحداد، ولما بلغت الجنازة للأزهر للصلاة عليه، أذن المؤذنون من منائر مصر دفعة واحدة، تبريرا لروحه، فزاد الخشوع، وزادت العبرة، وما بقيت عين لم تمطر دمعا هطيلا، لتلك العظة الكبرى بموت فخر رجال العلم والإسلام، ثم سير من هنالك لقرافة المجاورين، حيث واروه مبكيا من الجميع.

ترك الفقيد ثروة متوسطة بالنسبة لسراة مصر، ومات عن دون عقب ذكر، وله من البنات الإناث أربع، ومن الإخوة الذكور ثلاثة، أشهرهم حضرة حموده عبده المحامي بمحاكم مصر، واعتنى في قائم حياته بتعمير محلة، تسمى عين شمس، أصبحت بفضل كده وعمله من أعمر جهات النزهة، حول القاهرة، نسأل الله أن يعزي الاسلام بمصابه العزاء الجميل، وأن يفرغ على جدثه وابلا من الرحمات، ويسكنه بفضله أعالي الجنات، إنه سميع الدعاء، مجيب الدعاء [1]

رسالة موجهة إلى مدير الجريدة

1 ـ من تونس إلى باريس

قد تكرمتم بسؤالنا، لأن نكتب لكم حديث ما شاهدناه من الأمور التي رأتها مجادتكم جديرة بإفادة قراء صحيفتكم، فأسرعنا بقبول طلبكم، واستعنا بالله على تحرير زبدة رحلتنا القريبة البداية، السريعة النهاية، وكان في الأول عزمنا تقديم العذر إليكم، إلا أن حسن ظنكم بنا حملنا على المبادرة بمساعفتكم، إذا رأيتم عملنا سينتج إفادة لأبناء وطننا العزيز، وإن كان قرّاء جريدتكم يعلمون اليوم من الإفادات

---

(1) الحاضرة ع 852 بتاريخ 25 جويلية 1905 ثم نشر هذا التأبين الشيخ محمد رشيد رضا في كتابه (تاريخ الأستاذ الإمام ط المنار شارع درب الجماميز القاهرة 1324 ج3 ص 119 – 123) تحت عنوان: أقوال الجرائد العربية، في تونس: «قالت جريدة الحاضرة الغراء التي يصدرها في مدينة تونس صاحبها السيد علي بوشوشة، وبلغنا أن التأبين بقلم الكاتب المفضال سيدي محمد أبن الخوجة الشهير مؤلف الروزنامة التونسية، ثم ذكرت التأبين

المتوالية التي هي صنيع صحيفتكم الكثير من أحوال الديار الأوروباوية عموما، وأخبار البلاد الفرنسوية خصوصا، وحينئذ، فكيف يجوز لنا بعد هذا التحاكك على باب تدوين الأسفار، ونحن لم نر من البلاد التي زرناها إلا مقدار ما يراه من اجتاز ببلد، فأقام بها يوما، أو بعض يوم، ثم ارتحل عنها لغيرها، وهلم جرا، قاصدا باستعجاله في ارتحاله إفادة نفسه، وتطبيقه أعيان أسماء على مسمياتها، لا حبّا في التبجح بشهرة ليس في محلها، أو بأوهام لم يزل محطها عالم الخيال، فتكون في البدء لطلاوتها الوقتية شيئا يعجب النظار، وبالتأمل يزول رونقها،وخيال بهجتها، فتصبح من الأمور السخيفة التي يخجل العاقل عند تقديمها لعموم تعود منكم للإفادة الصحيحة، والأخبار الوثيقة.

من أجل ذلك رأينا أنه لا بد لكتب رحلتنا من الاقتصار على بضع فصول لا غير، نلخص فيها جملة ما رأيناه، أو بقي بمحفوظنا من أخبار سفرنا، تاركين مراجعة التفاصيل، وأخذ الإفادات الشافية من الرحلات الجديرة بأن تنعت بهذا الاسم، لتضلع محرريها، وصحة مبانيها، كالكتاب المسمى (تخليص الإبريز إلى تلخيص باريز) تأليف العالم الشهير الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي، وكذلك (كشف المخبأ عن فنون أوروبا) للنقادة الإخباري الكبير أحمد فارس الشدياق، صاحب جريدة (الجوائب).

وإن ابتدرتمونا باعتراض حجتنا هذه، وقلتم إنما يوجد بالديار الأوروباوية في عصرنا، سيما بعد حدوث الاختراعات الغريبة، والمستجدات الحديثة لم يكن بعصر ذينك الشيخين

البازلين [1] فجوابنا سهل لرد هذه الأيام، ومؤداه أن الحضرية الأوروباوية، وبالأخص مدينة الأمة الفرنساوية، هي قديمة الوجدان، لم تغيرها العوامل التي دخلت عليها، كما تشهد بذلك آثارها الباقية أعيانها لهذا اليوم.

ويؤيد ذلك أن من رآها لخمسين سنة فارطة عرفها بمثل ما سنعرفها به نحن، بعد العيان، وما بعد العيان بيان،نعم أنه حدثت لعهدنا أمور أخرى كان منشأها ارتقاء العلوم الثابتة بين جدران القوم في تلك الديار، إلا أن هذا التقدم وأهمه في فنون الطبيعيات وتوابعها له عند القوم أساس متين، منذ زمن بعيد.

وبالتأمل يتبين للقارئ تباعا أن التمدن العصري الاوروباوي متين العرى بكثير السنين عليه، ومن شعباته الحضرية الفرنسوية ذات المآثر الظاهرة، والمحاسن الباهرة، وهنا يسوغ لنا أن نطلب من القارئ أن لا يحكم علينا جزافا قبل التأمل من أنقالنا وعرضها على محك النقد والاختبار : إذ ربما يسري من تطورات وعوائد وأخلاق البلاد الفرنسوية أمورا ينكرها ذوقه السليم بداهة، ثم يقبلها براجح فكره، ودقيق نظره.

بقي خبر المعرض العام هو بيت القصيد من رحلتنا، ولا شك أن أمره ذو شأن، ولكن لما كان لحديثه ذيول نؤخره لطول الكلام عليه.

ركبنا البحر يوم الاثنين عاشر شهر اشتنبر الفارط في

---

(1) [هكذا] ولعلّها البارزين.

عشي لاحت تباشيره، وانتشر سروره وفاح عبيره، وغرد طائر هنائه، وسرنا على متن الطائر الميمون، يمخر بنا خضم البحر، بحساب خمسة عشر ميلا في الساعة، وهو سير فوق الوسيط بالنسبة للسفن التجارية التي تقل الركاب بين الشرق والغرب، طردا وعكسا، وبارحنا مسقط الرأس الذي تسلينا إذ ذاك عن مغادرته بوجود نخبة من أبناء الوطن العزيز معنا، فتخيل لنا والتخيل مشتق من الخيال كأننا بين أهلنا وجيرتنا، وأتممنا مؤانستنا بين مساجلات أدبية، ونوادر تاريخية، قضينا معها أيضا جانبا من ليلتنا،وكان خلال ذلك محط أنظارنا شواطئ الخليج التونسي، فمن حلق الوادي إلى جبل المنار، ومن رادس إلى حمام الأنف، ثم بالتوغل في أغمار البحر شاهدنا على البعد بقية السواحل،فيميننا شبه جزيرة دخلة المعاوين، ويسارا المرسى وقمرت وغار الملح، وما والاها، ولم يؤثر فينا شيء بعد المبارحة أكثر من مشاهدتنا لبيوت بحر كرسي الصلاح، وشاطئ المرسى القائل فيه بعض الأدباء التونسيين :

يَا شَاطِئَ المَرْسَى السَّلاَ *** مْ عَلَيكَ يَا نُزْهَةَ العُيُونِ

ولما جن الليل، وأرخى سدوله، علينا كنا نهتدي لإرشادنا في الاكتشاف بنور ناظور سيدي أبي سعيد، ونردد مع القائل:

وبِالنَّـاظُورِ إِشْعَـارٌ بِجُـودٍ *** لأَنَّ بِهِ ضَرِيحَ أَبِي سَعِيدِ

وإذ قضينا ليلتنا مناما، ولكن منام الذي يقضي ليله فوق سطح الماء،أصبحنا ولم نر حولنا سوى أزرقين محيطين بنا، فسماء فوقنا، وبحر تحتنا، وأما الوطن فبعيد، وما برحنا مجدين في السير إلى أن كشف لنا في أواسط النهار،

وعلى تراب جزيرة سردانيا التي هي من متممات مملكة إيطاليا، وقضينا هكذا في محاذاتها بالسير بقية يومنا، وبعض ليلتنا الثانية، ولم نتمكن من مشاهدة جبال جزيرة كرسيكا الفرنسوية، حيث أرخى الليل جناحه على أبصارنا، ولما جاءت ساعة المنام توجهنا لمضاجعنا، وفارقناها بكرة اليوم الثاني، وصرنا ننتظر بفارغ صبر بلوغنا البلاد التي قصدنا زيارتها، فوصلناها قبيل الزوال، ونزلنا لمرساها التي هي مدينة مرسيليا، حيث قضينا بها بقية يومنا وليلة غد، وتفسحنا خلال مقامنا بها في أرجائها، وزرنا معالمها، وأشهرها دار الوالي، ودار البريد، وكنيسة نوتردام الملقبة بولية الحراسة عندهم، وقد كان تأسيسها على أطلال معبد قديم في سنة 1864 مسيحية، ولهذه البيعة عند القوم حديث مشهور، وذكر مأثور، وينقله الخلف عن السلف، وينذرون إليها النذور، ويستغيثون بها،ويلجؤون إليها في الأزمات واشتداد الكربات.

أما حركة هذا المرسى من جهة التجارة فإنه أول موانئ البحر المتوسط، وأما هيئة المدينة من حيث مبانيها فهي كبقية مدن فرنسا، سوى أنها من جهة سكانها أشبه شيء بالحارات ألاوروباوية المختصة بالإفرنج بكبار مدن البلاد الإسلامية، بحيث إنه لم نجد عظيم فرق بينها وبين حومة باب البحر بتونس: إذ هنا كهناك، يصادف المار قي طريقه، زيادة على العنصر الأوروباوي الذي هو السواد الأعظم، كثيرا من الناس بأشكال مختلفة، وزي غريب، ولغة غير اللغة الفرنسوية، ولا يغرب على القارئ، إذا قلنا إننا رأينا هناك أناسا من أهالي جزائر اليابان التي هي بالشرق

الأقصى، كما التقينا بعدد غير قليل من أهالي الشرق الأدنى، وغالبهم من البلاد المصرية.

وأما التونسيون، وكثير من إسرائيلي بلادنا فعددهم ربما يفوت الحصر، وكذا الجزائريون والمغاربة، وهلم جرا، بحيث إن مدينة مرسيليا التي يبلغ عدد ساكنيها أربعمائة ألف نسمة، بها زيادة على سكانها الأصليين من الغرباء والأخلاط ما الله به عليم، وكما أننا لن نجد عظيم فرق إلا في المرافق العامة والمباني، إذ هي بمرسيليا أوسع وأشمخ مما عندنا، كذلك لم نشعر بأن زيّنا ولساننا العربي استلفت هناك أنظار أحد من المارين إلينا، وهذا خلاف ما حصل لنا بباريس، كما ستأتي الإشارة إليه.

ومن حسن حظ الغريب بهذه المدينة أنه يجد نفاقا لسوق تجارته، مهما كانت بضاعته: أي سواء كان جرابه مملوءا بالغث أو بالسمين، فمن ذلك أنا بينما كنّا نتناول طعام العشاء على ساحل البحر مساء يوم وصولنا لمرسيليا إذ حضر المطعم الذي نتغذى به أناس من جنس الاسبانيول، وبيدهم آلات موسيقية، يعزفون بها الأناشيد والألحان الغرامية، لترويح الحاضرين، ثم يستعطفون مراحمهم في الآخر، ليجودوا عليهم، بما تسمح به هممهم، كل حسب كرامته وجوده، وينال بهذه الطريقة صدقات واسعة، تكفيهم لسد عوزهم،أو أكثر، وإذ فارقنا هذا الصنف الغريب من الشحاذين حضر بين أيدينا بعد حين شاب أسمر اللون متقيف بالزي الأوروباوي والقلنسوة، وأخذ يترنم شفاها بأناشيد فرنسوية، محسنا لحفظها وإلقائها، ثم قدم لنا في الختام قبعته لنتصدق عليه بدرهم، أو درهمين، فبيضنا كفه بنصف فرنك، رآه عطية جزيلة، وبالغ

في شكرنا باللسان الفرنسوي، ثم ختم قوله بلسان عربي مبين (الله يخلف عليكم يا إخواني) فاستغربنا أمره، وسألناه عن حاله، فأفادنا بأنه مسلم من أبناء وهران، جاء لتلك البلاد في طلب سعة من الرزق، وأن هذه الطريقة في الشحاذة تجلب له من الرزق تسع فرنكات في اليوم.

أما أخلاق أهل مرسيليا فهم كبقية الفرنساويين أهل جد وكد،إلا أنه تغلب عليهم المجاهرة بكل ما في ضمائرهم، حتى ما يخص أمور بيوتهم، كما تغلب عليهم الثرثرة في الكلام، وهي طبيعة عرفت بهم، كما عرفوا بها من قديم.

كما أنه يوجد بالبلد متاحف تاريخية، وبساتين عامة أنيقة، وحدائق خصوصية بديعة الإتقان، وحوافل تسير بالكهرباء، ليست كالتي بباريس، بل كالتي هي بصدد الانجاز بحاضرة تونس الآن، ولما انبلج صبح يوم الخميس تأهبنا للرحيل عن مرسيليا قاصدين مدينة باريس، فيممنا قطار الحديد الطيار(سريع جدا) وسار بنا نحو باريس البعيدة عنا، بثمانمائة كيلومتر قاطعا بنا طول تلك المسافة في أقل من ثلاثة عشر ساعة زمانية، مجتازا بنا بين تلول وأثقاب جبلية، وبساتين نضرة، وعمارات ومزارع بهية، وكروم وأشجار على مد البصر، لا يتخلل جميع.ذلك من البياض سوى طريق تمر به العجلات، أو نحو ذلك، بحيث إن الناظر يتخيل له، ولا مبالغة في هذا أنه إنما يسير بين مرسيليا وباريس في طريق صنع حوالي بساتين زاهرة، ورياض جميلة، وكان ممر القطار من مرسيليا إلى أن بلغ مدينة ليون الشهيرة برفعة المنسوجات الحريرية على ضفاف نهر الرون، وهو نهر مستبحر، ويسميه العرب في تواريخهم نهر دونة، وهو اسمه باللسان اللاتيني

الذي عرفوه به عند تبوئهم في العصور الخوالي لتلك الأصقاع، وعلى ذكر هذا النهر نقول: إن التاريخ الإسلامي حفظ لبعض البقاع الفرنساوية كثيرا من أسمائها على عهد السلطة العربية.

ومن ذلك مدينة افينيون، واسمها بالعربي صخرة أونون، وقد مررنا بها مر السحاب، فشاهدنا حواليها من المزارع والعمارات الحافلة ما شاهدنا أحسن منه عند حلولنا لمدينة مونتلمار، ذات المناظر البهية، ولا غرو فإن هذه المدينة تماثل في حضريتها وبهجتها وعماراتها غالب البلاد التي مررنا بها، إلا أنها تعلوها بحسن موقعها، وكثرة انتظام مزارعها، وبكونها مسقط رأس فخامة رئيس الجمهورية الفرنساوية الحالي.

هذا وما زال الطيار في سرعة عدوه إلى أن أوصلنا في عصاري النهار إلى مدينة ليون (ثانية المدن بعد باريس) حيث مصب وادي الصون، واختلاط مياهه بنهر دونة المتقدم، وبعد أن وقف القطار برهة استأنف سيره بين ظلال أشجار تلك البراري الواسعة المنتظمة، إلى أن بلغ بنا في حدود الغروب لمدينة ديجون التي لا تقل حسنا وبهجة عن سابقتها في الذكر، وبعد مفارقتنا أسبل علينا الليل ستره فلم نتمكن من تسريح الطرف في غياض بقية الطريق، وإن كنا قمنا بذلك في الإياب، كما ستراه بعد، وإذ بقي لنا من المسافة مسير بعض الساعة للوصول لباريس، شاهدنا من بعد بعيد في صعيد الجو أنوار هاته المدينة الكهربائية التي سنأتي على التعريف ببعض بدائعها في خلاصتي القابلة، ونجزم من الآن أن قلمي سيكون مقصرا في وصفها، إلا أني سأعدل الجهد لنقل أصح، وأكثر ما تعلق بعلمي من أخبار حضارتها إلى قرائكم الكرام.

هذا ولما حلت الساعة العاشرة ليلا انتهى بنا سير القطار الطيار، ولم نجد بأنفسنا من متاعب السفر البري ما حصل لنا من مشقة الرحيل على متن السفينة البحرية، وفي هذا المعنى يقول المرحوم الأمير عبد القادر الحسيني من قصيدة غراء طويلة :

سَفَائِنُ البَرِّ أَنْجَى لِرَاكِبِهَا
سَفَائِنُ البَحْرِ كَمْ فِيهَا مِنَ الخَطَرِ

وعلى ذكر هذا الأمير الجليل نقول: إنه من غريب الاتفاق أن السفينة التي حملتنا من تونس لمرسيليا اسمها (طفنة) نسبة لوادي (طفنة) الواقع ببلاد الجزائر الذي تم على ضفافه إمضاء المعاهدة الشهيرة باسمه المنعقدة في 30 ماي 1837 بين حكومة الجزائر والأمير المشار إليه.

ولما نزلنا من القطار، ووطأنا أرض حاضرة الحضارة البشرية وجدنا بانتظارنا بموقف الحديد خليلين، يسعد قلمي برسم اسميهما، وهما الفاضل الأعز الأحظى سيدي خليل بوحاجب، والوجيه الأعز الأمجد سيدي يونس حجوج، وكلاهما من أخلص الوطنيين، وقدماء الأحبة منذ عهد الصبا والتعليم، وتكرم أولهما باختيار وتحضير محل مناسب لنزلنا، وجاء بعد ذلك نحونا بأصناف من البر والإحسان، يتحاشى قلمي عن إغماض الطرف عنها، وإن لم تكن من موضوع هاته العجالة، ولذلك قياما بواجب الاعتراف بالجميل لأهله،كما سنعرض في الأثناء اقتضابا على ذكر بقية الفضلاء والأحباب الذين رافقونا في السياحة، أو تبادلوا معنا زيارات الوداد، وكل آت قريب [1].

---

(1) الحاضرة ع 617 بتاريخ 9 أكتوبر 1900.

رسالة موجهة لمدير الجريدة

(2) حاضرة الحضارة باريس

قد اجتزت بقرائكم شوطا فسيحا في رسالتي الأولى التي ضمنتها زبدة أخبار ارتحالي برفقة جمع من الفضلاء الوطنيين، إذ وضعت نصب أعينهم ملخص أدوار سفرنا من عاصمة تونس المحروسة إلى أن بلغنا لمهد العمران مدينة باريز التي هي جمة النساء، وبستان العالم، وجحيم الخيل، وختمت خلاصتي الاولى باستطراد ذكر اسم صديق الجميع وطنينا سيدي خليل بوحاجب، لما قام به نحونا من أنواع المجاملة والإكرام إلى الحد الذي ذكرنا في ذلك الكرم العربي الباقية أحاديثه على صفحات الدفاتر، ليتناقلها أبناء الإسلام جيلا بعد جيل.

وقد سبق لنا في الفصل الأول التنويهً بشأن عمارة الطريق، بين مرسيليا وباريز، وعبرنا عن ذلك بأنه يتخيل للمارة إنما يسير في سكة صنعت حوالي بساتين أنيقة، فوجد البعض من قرائكم مبالغة في ذلك، وخوفا من أن بعض الأفكار البسيطة ربما تنكر علينا ما سنحرره لكم بخصوص معالم باريس وحضريتها، ولا شك أنها أحسن وأبدع وأسمى بمراحل مما تقدم ذكره بالخلاصة الأولى، رأينا من الإفادة أن ننقل لهم هنا قبل الشروع في محادثتكم عن بقية رحلتنا جملة من تاريخ الوزير ابن أبي الضياف، وقد كان توجه لفرنسا مع مخدومه المقدس المشير الأول أحمد باشا، وشاهد إذ ذاك أي في سنة 1862 ما شاهدناه نحن، ونقلناه لقراء صحيفة (الحاضرة) الغراء.

قال مؤرخنا الشهير بالعلم والتهذيب «وشاهد أي أحمد

باشا رحمه الله، في طريقه معنى العمران، وأسباب التقدم في ميادين الحضارة، ونتيجة الأمن والأمان، لا تكاد تجد موضعا معطلا من نفع شجرة أو حرث، أوكلإٍ مستنبت، يبقى جميعها بغيوث العدل وسيوله المفعمة، يود السالك في تلك الطرق السهلة أن المسافة تطول، لما يشاهد من حسن الطريق، وما حف به من الأشجار والمراتع والأنهار، وكثرة المارين على اختلاف الأنواع».

وها أنا الآن نستأنف (؟) تلخيص أخبارنا، بما ربما لا يخلو من فائدة، لمن يريد تتبع كليات الحضارة الفرنسوية، فنقول إتماما لما قدمنا بالعدد الفارط إنه في صبيحة ليلة وصولنا لباريز خرجنا، ودليلنا في الاستطلاع وطنيُّنَا المذكور، وأخذنا نستوعب إجمالا أحوال تلك المدينة الطافحة بالعمران، تاركين التفاصيل للأيام التالية، فزرنا بعض المعالم المشهورة، وأكثر منها الشوارع العامة التي هي في نفسها جديرة بأن يقضي الغريب في الاكتشاف عليها المدة الطويلة لاحتوائها، فضلا عن انتظامها. وحسن انتساقها، على أكبر وأهم محلات الباعة والتجارة في البضاعة الثمينة من الحجارة الكريمة، والأقمشة السندسية، وما شاكلها، ولكونها أيضا المركز الجامع لأهم ملاهي وقهاوي العاصمة الباريسية، ومستودع المخترعات الحديثة التي لا يسع العاقل إلا الإعجاب بقوة عارضة صانعيها، وهاته الشوارع، وتسمى بالفرنسوية (البلفار) [1] عبارة عن طرق فسيحة جدا طويلة، تبلغ في امتدادها لعدة أميال، ومن أشهرها وأبهجها منظرا شارع (المادلين) نسبة

(1) Boulevard

للكنيسة المسماة (سانت مادلين) أي مريم المجدلانية، وهي كنيسة ضخمة، مقامة على أعمدة شاهقة تحاكي في هيئتها معابد الروم الأقدمين، وقد كان أمر بإنشائها الملك لويس الخامس عشر 1764 مسيحية، إلا أنها لم يتم بناؤها إلا في عهد لويس فليب عام 1842 وهو الذي قرر تخصيصها لأن تكون معبدا دينيا، بعد أن كان في عزم نابليون الأول جعلها هيكلا للفخر، يريد تزيين عرصاته بصور قواده المشهورين، ومحارباته وفتوحاته، ويوجد على واجهة هذه الكنيسة نقوش شخص بها صانعها يوم الهول الأكبر من حشر ونشر، كما توجد على واجهاتها الداخلية آيات من كتاب العهد القديم، مرسومة باللسان اللاتيني، وصور ذوات مشهورة، كرسم نابليون المتقدم في الذكر، وسانت لويز الذي غزا تونس على عهد المستنصر الحفصي، وبقي له ذكر ليومنا هذا بقرطاجنة، أمّا سقوفها فإنها محلاة بصور وهمية، يزعمون أنها صور الملائكة المقربين، وهذه الكنيسة من أشهر وأضخم كنائس باريس، وكانت العادة جرت من قديم بتخصيصها للاجتماعات الكبيرة الدينية : إذ هي كانت معدة لتتويج الملوك الفرنسويين، كما أنها بقيت لهذا اليوم معبدا لإقامة الشعائر والصلوات عند موت عظماء القوم، أو إشهار أنكحتهم، أو ما شابه ذلك.

ومن أشهر شوارع باريس (بلفار دي كابوسين) ومعناه بالعربية شارع العصيفرات، ويوجد به البنك العقاري الفرنسوي، وهو البنك الذي تستقرض منه الإدارة البلدية الأموال الطائلة، للقيام بالمشروعات الخطيرة، وعلى مقربة منه الملهى المسمى (تياترو دي، أوبيرا) وهو أعظم وأشهر ملهى بفرنسا، إن لم نقل بأوروبا أجمع، وقد دامت أشغال بنائه خمسة عشر عاما، وأنفق عليه 65 مليون فرنك، وبه

من عجائب النقوش، وثمين الكسو ما يحتار لرقة صنعه صاحب الذوق السليم، وقد رأت الدولة أن هذا الأثر الجميل والبناء المشمخر جدير بعنايتها، فخصصت له إعانة سنوية للقيام بشؤونه قدرها ثمانون ألف فرنك.

ويلي النهج المتقدم شارع الطليانيين، ولم تر عيني أبهج منه منظرا، وأكثر حركة، وفيه أثمن البضاعات، من حجارة كريمة، ولبس وقهاوي مضاءة ومضيئة بنور الكهرباء الذي صير بهجتها في الليل أحسن مما بالنهار.

ومن أشهر الشوارع أيضا شارع (مونمارتر) نسبة لبلاد قديمة، كانت بأحواز باريس، وعلى مقربة منه الملهى المسمى (تياترو دي فاريتي) أي ملهى التنوعات، كناية على أنه يقع به تشخيص الروايات المختلفة، من هزلية وجدية وحزنية وغيرها، كما يوجد بجواره دار (البورس) أي مجتمع التجار والمضاربين في إسهام البنوك، وقراطيس المالية، ولهذه الدار ونظائرها أهمية كبرى في البلاد الأوروباوية الواقعة في ميادين الثروة والرفاهية.

ويليها في القرب شارع (بواسونير) أي الحواتة، كما يليه شارع (بون نوفيل) أي البشارة، وعلى قربه كنيسة القديس (سان فانصان دي بولس) الذي كان فر من الأسر بتونس في عهد المشاحنات الدينية.

ومن الشوارع الجامعة طريق القديس (سان جرمان) القريب من شارع القديس (سان ميشال) وحواليه توجد مدارس التعليم التي يأهلها عشرات الألوف من التلاميذ، ويسمون هذه المحلة بالحارة اللاطينية، وحيث إني التزمت

طريقة الإيجاز في التحرير فنكتفي بهذا القدر اليسير من الكلام على ملاهي، وشوارع باريس، التي كان الفضل في تحسين غالبها على أنظم وأبدع وجه لحاكم المدينة (البارون هوسمان) على عهد الإمبراطور نابليون الثالث، ولهذا الحاكم شارع باسمه، أسس تشريفا له، وتخليدا لجميل ذكره.

هذا وبعد اكتشافنا في اليومين الأولين من وصولنا لباريس غالب الشوارع الجامعة، وتنزهنا في أرجائها حولنا وجهتنا لزيارة ما اشتهر ذكره في الخافقين من المعالم التاريخية، والآثار الصناعية، ذات البهجة والانتظام، فزرنا منها ما سمحت لنا به أويمات [1] مقامنا بحاضرة التمدن الفرنسوي.

فمن ذلك الكتبخانة العمومية، وبها من الكتب ما ينوف عن ثلاثة ملايين مجلد، ولها برنامج محكم الترتيب، يحتوي على عدة أجزاء، يختص كل قسم منها بأحد أقسام خزائن الكتب، وفيها من التآليف واللغات ما حفظه التاريخ من عهد تبلبل الألسن لوقتنا الحاضر، وبالبحث والتنقيب ساعفنا مدير نظامها على وضع بعض الكتب العربية نصب أعيينا، فشاهدنا من بين ذلك مصحفا من القرآن الكريم بالقلم الكوفي مكتوب على الرق، نسخ في عصر التابعين، رضوان الله عليهم أجمعين، وآخر في الرق أيضا، ولكنه أحدث من المتقدم عهدا، إلا أن أعيننا لم تر قط خطا أجمل وأرشق من خط اليد التي سعدت إلى الأبد بانتساخه،وثالثا بخط الغازي سنان باشا الوزير العثماني المشهور.

---

(1) الأيام القليلة

كما شاهدنا نسخة من التاريخ الكامل، للعلامة ابن الأثير، كتبت من إملاء المؤلف، ونسختين عتيقتين من مقامات الحريري، بهما زيادة على نص ما كتبه الحريري تشخيصات تصويرية بالدهن، لسائر الوقائع والروايات التي جادت بها قريحة ذلك الأديب الخالد الذكر، الذي ترجمت مقاماته لسائر اللغات المعروفة.

وبعد الإطلاع على جملة كتب وأوراق عربية لا يسعنا هنا إلا الاستغناء عن ذكرها مخافة التطويل نقول: إننا اطلعنا أيضا على كتب عتيقة بغير لغتنا، وشاهدنا بينها مجلدات، يغني حالها عن الاستفسار عن أقدميتها، ومنها نسخة من الإنجيل، كانت على ملك ملوك فرنسا الأقدمين قبل الهجرة النبوية، وأخرى محلاة بالذهب، وبالحجارة الكريمة، كان يقرأ بها الملك سان لويز، معاصر السلطان المستنصر الحفصي، المتقدم ذكره، كما اطلعنا عيانا على كتائب مضت عليها القرون العديدة من آثار الصينيين والهنود وغيرهم من الأمم القديمة.

وبعد اطلاعنا إجمالا على أقسام الكتب دخلنا لقسم النقوش التاريخية والإيقونات (مداليه) والتحائف الأثرية، وهو قسم لا يقل أهمية عن القسم السالف: إذ فيه من الودائع التاريخية ما يراه القوم، ويراه كل مولع بالاستكشاف جديرا بأن يرمق بعين الاعتبار، لاحتوائه على تجسيم الوقائع الشهيرة من حروب وصلح، ومبايعة ملكية، وإمضاء عهود، وتذكار فخر، وهلم جرا، وهنالك اطلعنا على تجسيم الإمبراطور الروماني أغسطوس الذي ولد على عهده المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وهو تجسيم بالنقش على حجارة، مما نسميه (اليماني) صنعت في حياة ذلك الإمبراطور العادل،

كما اطلعنا على وعاء مطرز بالذهب وبالحجارة الكريمة من نوع الزبرجد، كان أهداه الخليفة هارون الرشيد للإمبراطور شارلمان، مع رقعة شطرنج، بقيت منها بقية لهذا العهد.

وكما أنه يوجد بالكتبخانة غير ذلك من غريب الآثار، كذلك شاهدنا ما لم يقل أهمية عنها بالمتاحف التاريخية، التي لم نتخلف عن زيارتها، لأنها من أهم ما يراه الراؤون بباريس.

فمنها متحف اللوفر، وهو أشهرها، كان في القديم مقر ملوك فرنسا، ومبانيه مشمخرة مسامتة لبعضها، ومتماثلة في الشكل، وبوسطها بطحاء واسعة رصعت أعاليها بتماثيل عظماء الفرنساويين على اختلاف العصور، وهو ذو قاعات فسيحة، ومعارج كانوا عليها يظهرون،، وبداخله من غرائب الآثار، وآثار الثروة ما قام ببيانه التاريخ الفرنساوي، واشتهر بين الناس ذكره، قال صاحب كتاب (كشف المخبأ) وتفصيل ما فيه (أي متحف اللوفر) يغني عنه قولنا: إنه كان مقر سلاطين فرنسا، وفيه سرر مرفوعة، وأكواب موضوعة، ونمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، وقد وقفت في بعض الآثار الصحيحة على أن سبب الثروة التاريخية التي حصل عليها هذا المتحف الشهير بسائر بلدان العالم المتمدن كانت في سني الفتنة التي ظهرت بفرنسا أواخر القرن الثامن عشر، ومن سبايا الحروب التي نالها نابليون من ألمانيا وايطاليا.

كما توجد بباريس عدة متاحف أخرى غنية، بما اكتسبت من إتقان البناء والنقش والدهن وجميل الآثار، وهي وإن تكن في الشهرة دون متحف اللوفر إلا أنها ذات خصوصيات

انفردت بها عنه، ومنها متحف الآثار الحربية، الكائن حول ضريح نابليون الأتي ذكره، وفيه من ذخائر الحروب وآلاتها ما شاهده أهل العصور على كر الدهور.

ومن أنواع المتاحف قسم عصري يحتوي على اشهر الوقائع التاريخية الحديثة، ومن هذا القبيل المتحف المسمى (موزي غروفان) نسبة لمحدثه، وقد شاهدنا به عدة تماثيل، ووقائع تاريخية متأخرة، كحفلة تتويج الإمبراطور نيكولا الثاني قيصر الروسيا الحالي، وكالقرابين الآدمية التي كان يتقرب بتضحيتها رب التوحش والهمجية (بيهانزان) ملك الداهومي، الذي أنزلته حكومة فرنسا عن عرش ملكه، وأبعدته لإحدى جزائر الاقيانوس، وهذا القسم من المتاحف يتغير آنا فآنا، حسب مجاري السياسة، وتبدل الحوادث.

وهنالك قسم من المتاحف الأدبية، كآلات الموسيقى والألحان، ولا يقل إفادة وحسنا عن الأقسام المتقدمة.

ومن المعالم التي يتحتم على الغريب زيارتها بباريس مشهد (البانتيون) نسبة للهيكل المقام لجميع الآلهة برومة القديمة، وكان بناؤه على أطلال كنيسة عتيقة في عهد الملك لويز الخامس عشر، وجرى فيه بانيه مجرى التقليد على شكل الكنيسة العظمى برومة، وفي سنة 1781 اذن مجلس المشورة بتخصيصه لان يكون مدفنا لعظماء الأمة الفرنساوية، ويدل على ذلك العبارة الآتية المرسومة بواجهته الداخلية (إلى عظماء رجال يعترف لهم الوطن بالجميل) وفي هذا التركيب تقديم وتأخير، كما لا يخفى، إلا أن قواعد اللغة الفرنساوية تجوز ذلك ومن طالع ديوان

الشاعر المفلق (فيكتور هوغو) الفرنساوي يجد به من الشعر ما يدله على اعتبار ذلك المشهد، ورسوخ مكانته عند القوم.

أما ضريح نابليون الأول فموقعه بالموضع المسمى (ايسبلاناد ديزنفاليد) أي فسحة عواجز، ومتقاعدي الحروب، وكان بناؤه على عهد الملك لويز الرابع عشر، وهو الذي خصصه لسواقط الحروب، إلا أن الذي أحكم ترتيبه ونظامه هو نابليون الأول، ولشغفه بالعسكرية كان إقباره هنالك، عند رجوع عظامه من جزيرة (سانت هيلانه) التي توفي بها سنة 1821 ومعلوم أن هذا الإمبراطور العظيم دوخ بجسارته وجه العالم، ولاقى في آخر سني حياته من كيد أعدائه ما أفل عنه نجم عظمته، وإن لم يزده ذلك إلا شهرة وسؤددا عند بني جنسه، إذ هو بلا خلاف محيي مجد أمة الفرنسيس، ومنظم أحكامها، وناشر ألوية فخرها بين العالمين، ولذلك عملا بوصايته توسطت الحكومة الفرنساوية على عهد الملك لويز فيليب لدى حكومة الانكليز، ونقلت بقايا جثته بأبهة وإجلال في أواخر سنة 1840 ودفنته هنالك، حيث يوجد اليوم ضريحه، القاضي على زائره بالتفكر والاعتبار.

أما الضريح المذكور فهو عبارة عن حوض مستدير عميق، بوسطه قطعة من المرمر الأحمر قيمتها عدة ملايين، محاطة بسياج، وخلفها من أعلاها أربعة أعمدة من المرمر المجعب النادر الوجود، طول كل منها نحو العشرة أذرع، وبينها قاطع ومقطوع، أمامه عمود من رخام مكتوب عليه بالذهب العبارات الآتية، منسوبة لنابليون نفسه، وهي: (أروم

أن عظامي تدفن على ضفاف نهر السين بين ظهراني هذه الأمة التي طالما أقمت الدليل على حبها) ووراء الضريح المشار إليه كنيسة صغيرة الدائرة، غنية البناء والتنميق، محلاة بجميع ما غنمه نابليون من الألوية، والبنود في الحروب، أما قبة هذا المعلم المشيد، فهي عبارة عن قطعة من النحاس المذاب المستجمع من المدافع التي ظفر بحوزها ذلك القائد العظيم.

ومن الآثار الموجودة بباريس الصادعة بقوة نابليون الأول عمود (فندوم) المقام بالمحل الذي كان به بستان (الدوك فندوم) ابن الملك هانري الرابع، فاتح عصر التمدن الفرنساوي، وهذا العمود أسس وخرب مرارا، وآخر مرة دمره رجال (الكمون) أي أهل الثورة الداخلية، إثر الحرب السبعينية، إلا أن الجمهورية الحالية شيدت معالم مجده من جديد في سنة 1874 وجلدته بصفائح من نحاس أذيب من مدافع نابليون، التي غنمها في الحروب، وأمرت بأن تنقش عليه صور أشهر محارباته وانتصاراته.

وهذا العمود لا يضاهيه في ضخامة الصنع والتركيب إلا عمود يوليه الذي أقيم تذكارا لانتصار الحرية على الملك المطلق فوق أطلال سجـن (الباستـيل) أي القلعة، ولا يخفى أن هذا السجـن حفظ له التــاريخ أسوأ ذكر، حيث كان بيت العذاب الأليم، ومن ساقه سوء الطالع لداخله، لم يفرح بعد بالفرج أبدا، أما وجه نسبته لشهر يوليه [1] فلأن زوال السلطة المطلقة من فرنسا كان في

(1) ويكتب أيضا : يوليو / أي جويلية

الشهر المذكور، ومنه كان حدوث عيد 14 يوليه المعروف لهذا العهد.

. وعلى ذكر هذين العمودين نقول إنه يوجد عمود آخر بباريس، وهو عبارة عن مسلة مصرية، كان أهداها المرحوم محمد علي باشا للملك لويز فليب، فأمر بإقامته بوسط الساحة المسماة بطحاء الوفاق (لاكانكورد) التي هي من أجمل وأحسن بقاع باريس، والباريسيون يسمون هذا العمود (مسلة لكسور) ولا شك أنه محرف عن لفظ القصور، الذي هو اسم البلد الذي جلبت منه تلك المسلة، أما بطحاء الوفاق المذكورة فإنها عبارة عن فسحة فسيحة من الأرض، ذات نظام بديع، وفيها من الحياض والتماثيل والملاهي والصروح ما ينسي الغريب وطنه، وبهذه الساحة الرحبة يوجد قصر (البربون) الذي هو دار الندوة الفرنسوية: أي مجلس نواب الأمة، ولا يخفى أن هذا المجلس هو الذي يدبر بفرنسا مع مجلس الشيوخ (سينات) كل أمر ذي شأن، ولا نبالغ إذا قلنا إن بيده سعادة الأمة وشقاوتها، ولكن لما كانت أصول الجمهورية شوروية كانت أعمال النواب سائرة على صراط قويم.

وإذا تحولنا من هذا المكان لغيره يجدر بنا أن نتكلم على زيارتنا لدار السكة الكائنة بشارع (ريشليو) نسبة للكاردينال (ريشليو) [1] وزير لويز الثالث عشر، ومؤسس (الأكاديمية الفرنسوية) أي مشيخة العلوم واللغة، وقد قوبلنا في زيارتنا هذه كما في غيرها من الزيارات بمظاهر البشاشة والإكرام،

---

(1) الكاردينال دي ريشيليو من مشاهير رجال السياسة في فرنسا في القرن السابع عشر، وزير لويس الثالث عشر، مات سنة 1642

حسب ما اشتهر به جيل الفرنسيس من كرم الأخلاق، عندما يقدم عليهم الغريب، وأطلعنا وكيل الدار على سائر محلات الصنع، ومستودع الذخائر النقدية من نقر الفضة والذهب الوهاج بحالتيهما المعدنية، إلى انقلابهما لنقود ومسكوكات فرنسوية، وهنالك رأينا عدة إيقونات تذكارية لزيارة ذوات مشهورة في القديم وفي الحديث لهذا المحل، أما غنى هذه الدار، فيكفي عنه قولنا: إنها دار سكة فرنسا التي يبلغ دخلها الثلاثة آلاف وخمسمائة مليون في كل عام.

ولدار السكة هذه متحف تاريخي للنقود من سائر الأنواع واختلاف الأعصار، أما ما يفيد قراءكم من زيارتنا لهذا المتحف فنقول لهم: إنه يوجد به نقود ذهبية وفضية من سكة عمر بن عبد العزيز [1] والأمويين والحجاج [2] والي العراق، وكنا نظن قبل ذلك أنه لم يبلغ في ولايته بطريق النيابة مع الخطبة لعبد الملك بن مروان [3] إلى حد ضرب السكة باسمه، فحقق لنا العيان غير ما كان بظننا، أما مسكوكات العباسيين على اختلاف أنواعها فكثيرة، ومثلها سكة الحفصيين بتونس، وبني عبد المؤمن بالمغرب.

---

(1) عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي العادل، اشتهر بورعه وتقواه، كان متسامحا مع العلويين والنصارى وغيرهما، توفي سنة 102/720

(2) الحجاج بن يوسف من أكابر ولاة الامويين، وأشهر قوادهم العسكريين، وهو الذي وطد أركان الدولة الأموية، قام بالفتوح، وخطط المدن، عرف بظلمه وبطشه للمخالفين توفي سنة 95/913

(3) عبد الملك بن مروان خامس الخلفاء الأمويين، توسعت الدولة الأموية في عهده، وكانت دمشق عاصمة الدولة في زمانه منارة للعلم والادب، وقد حكم أكثر من عشرين عاما، توفي 86/705

ومن معالم باريس العظيمة قوس النصر الكائن ببطحاء النجم بأحد طرفي غيضة (شانزيليزي) الآتي ذكرها، وقد ابتدئ في تأسيسه على عهد نابليون الأول، إلا أنه لم يتم إلا في دولة لويز فليب، وهو عبارة عن بناء مشمخر ذي أربعة أقواس، شخصت بكل واجهة منه مواطن حرب ومواقع عسكرية قام بها نابليون الأول من عام 1792 إلى عام 1815، ولقد بلغت نفقات هذا الهيكل تسعة ملايين من الفرنكات، ولما قامت الثورة الداخلية على ساق في سنة 1870 رماه الثائرون أياما متوالية بنحو عشرين ألف قنبلة، ولم يتمكنوا من تدميره.

وحيث إن المقام ربما يضيق عن تضمين أخبار أخرى مما يتعلق بباريس، ويطول بعد ذلك الكلام بسبب ما سنلم به من أحوال المعرض العام، فإني أُأخِّر للعدد القابل إن شاء الله موافاتكم ببقية مآثر الحضارة بباريس من التعريف بمرافقها ومنتزهاتها وبساتينها وغياضها، ونبدأ منها بغيضة (شانزيليزي) أي روضة الأصفياء، ثم نستطرد الكلام على عموم أحوال وأخلاق وتمدن أهل باريس، وما اشتهروا به من العلم، وحسن الذوق والذكاء، كما نشير لغير ذلك من الأمور التي رأيناها مخالفة لعوائدنا وأخلاقنا، وننتقل بعد ذلك للترجمة عن المعرض العام الذي هو المقصد الأول من رحلتنا.

والآن نختم هاته العجالة التي طالت ذيولها، وإن أجهدت نفسي في اختصار مختصرها، حتى لا تفوت فائدة الانجاز والإيجاز الموعود بهما في الخلاصة الأولى، وموعدنا بإتمام البقية في العدد القابل، وفيه ننقل لكم

حديث اجتماعنا بالقس (لوازون) [1] خاطب ود الإسلام، وكل آت قريب [2].

رسالة موجهة لمدير الجريدة

3 - مرافق ومنازه وأخلاق أهل باريس

لا جناح علي إذا قلت إن ما تفضلتم بنشره من خلاصات رحلتي قد استجلب لي كثيرا من مظاهر التنشيط والوداد، ومن هذا القبيل الالتفات الزائد الذي حظيت به من طرف مولاي الأمير الجليل، عضد الملة، ويمين الملك، سمو ولي

---

(1) لم أعثر على ترجمة له في القواميس الفرنسية، كعادة هذه القواميس التي لا تهتم بمن ينصف العرب والمسلمين، مثل عالم الاجتماع الفرنسي غوستاف لوبون، يقول القس لوازون عن الرسول محمد (صلعم) في إحدى محاضراته: «ولد في مكة لعشر ليال مضت من أفريل 570 للميلاد، وكانت عائلته أشرف عائلة في قريش، وهي إحدى القبائل الشهيرة في بلاد العرب، وصاحب النسب المرتقي إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل، وقد كان جده متولياً سدانة الكعبة، وكانت دار حكومتهم، معبد ديانة العرب الوثنية، وتوفي والده عبد الله قبل ولادته، وتوفيت أمه وهو ابن ستة أعوام، وكان على أعظم ما يكون من كرم الطباع وشريف الأخلاق، ومنتهى الحياء، وشدة الإحساس، وقد كفله جده وهو ابن ست سنوات وأثناء كفالته بدأت تظهر من محمد علامات الذكاء ورجاحة العقل، ومر بصبيان يلعبون فدعوه للعب معهم، فأجابهم أن الإنسان خلق للأعمال الجليلة، والمقاصد الشريفة، لا للأعمال السافلة والأمور الباطلة، وكان على خلق عظيم، وشيم مرضية، شفوقاً على الأطفال، مطبوعاً على الإحسان، غير متشدق في نفسه، ولا صلف في معاملته مع الناس، وكان حائزاً قوة إدراك عجيبة، وذكاء مفرط، وعواطف رقيقة شريفة»

(2) الحاضرة ع 619 بتاريخ 23 أكتوبر 1900.

العهد الأفخم، إثر بروز مقالتي الثانية، وإن كنت تلقيت بعد نشر تلك المقالة ملاحظات رشيقة من بعض المستطلعين لأحوال باريس: إذ هم رأوا مني التقصير في التعريف بمعالم عاصمة التمدن الفرنسوي، حيث إني لم أذكر إلا ما اشتهر منها، وهو القليل، وضرورة أنه لا يخلو واحد من اعتراض في جميع الأغراض، تلقيت ملحوظاتهم بوجه طلق، وقلب سليم، وجئت مستمنحا منكم توسعة في المجال بهذا العدد، لكي أقوم نحو مخاطبي بتدارك ما رأوه مني تقصيرا، وإن لم أحط بكل شيء علما فأقول:

إنه من البناءات الشامخة التي ضمتها جدران باريس، ضم الحنين لحنينه دار الرصد، وكان تأسيسها على عهد لويس الرابع عشر، وبها من آلات الفلك والهيئة وعلوم السماء ما اقتضاه تقدم هاتيك الفنون في الأعصر الحالية، ومعلوم أن مرصد باريس معدود من أشهر نظائره بالدنيا، وهذه الدار يقتسمها خط الزوال الباريزي لنصفين اقتساما عليه المدار في سائر الاكتشافات والعمليات والتوقيتات الفلكية، وقد شاهدنا هنالك في دلوك النهار بالمرآة المكبرة الشهب الثواقب البعيدة عنا بأحقاب، والتي لا تراها عين الهدهد في ديجور الليل الحالك، أما القمر السابح في قبة الفلك فقد تسلط عليه سلطان العلم، وقربه منه نجيا: إذ هو أدناه لنحو عشرين ميلا من مرأى عين المرآة المكبرة، بعد أن كان لا يرى إلا في عنان السماء، وهذا الارتقاء الذي كاد أن يراه من لم يره ضرب من الزور والبهتان قد تم بلا خلاف بفضل التقدمات الرياضية والطبيعية التي كللت جبين هذا الجيل بفخر لا يبلى وذكر لا يفنى.

ولزيادة الإفادة نقول: إنه توجد بباريس مشيخة للعلوم، حسبما تقدمت الإشارة لذلك، وهذه المشيخة تنقسم لخمسة أقسام، أولها ما يسمونه (الأكدمية الفرنسوية) أي ديوان العلماء حفاظ اللغة الفرنسوية، ويتركب من أربعين عالما، مشهودا لهم بالأهلية بين بني جنسهم، ولهم بين الناس اعتبار زائد وحظ ورعاية،وهؤلاء وحدهم لهم الحق في تغيير، أو إدخال، أو حذف شيء من أصول أو متفرعات اللغة الفرنسوية، التي هم الحفظة عليها، ومن يلي منهم العضوية لا ينعزل عليها إلا بالموت.

والقسم الثاني ديوان النقوش والآداب، وبه أربعون عضوا كسابقه، ووظيفته النظر في الآثار العتيقة، والمعالم والهياكل والتاريخ والبديع وسائر اللغات القديمة من يونانية ولاطينية ومشرقية.

والقسم الثالث ديوان المعارف، وبه ستة وستون عضوا، ينظرون في كل ما يتعلق بالعلوم الثابتة من حساب وهندسة وجبر وحياة وفلك وطبيعة وكيمياء ونبات ومعادن وحيوان وطب وجراحة.

والقسم الرابع ديوان العلوم الأدبية والسياسية، وبه أربعون عضوا، وظيفتهم النظر في متعلقات الفلسفة والآداب والأخلاق والحقوق والفتوى والاقتصاد السياسي وفلسفة التاريخ.

والقسم الخامس ديوان الفنون المستظرفة، وبه اثنان وثلاثون عضوا، ينظرون في فنون التزويق والدهن والنقش بالتحفير والتصوير والألحان.

ومن هياكل باريس كنيسة (نوتردام) ومعناها بالعربية

(سيدتنا) نسبة للسيدة مريم عليها السلام، وهي أم الكنائس بباريس من جهة أقدميتها وعظمتها وموقعها بباريس القديمة: أي بالأرباض المتطرفة البعيدة عن الشوارع الفسيحة، والحارات الأنيقة، أما بناء هذا المعبد القديم فإنه من أفخر ما يسمونه (الكوتيك) أي البناء التتري، وكان ابتداء تأسيسها في المائة الثانية عشرة للميلاد، ودامت أشغال بنائها مائتي عام، وفيها من ذخائر الملتقطات الثمينة، والعطايا والهبات الدينية ما تغتبطها عليه بقية كنائس الدنيا (عدا الفاتيكان) أما منظرها الداخلي، وما احتوى عليه من قباب وأعمدة وفوانيس وتماثيل، فحرّي بأن يرمق بعين الإعجاب، وبخزينة ذخائر هاته الكنيسة يوجد المئزر الذي تآزره نابليون الأول يوم صعوده على عرش الإمبراطورية.

بعد هذا نستمنح من عواطف قرائكم، سيما الذين يقرؤون بين السطور، لاستخراج المجهولات، بأن يقنعوا بهذا النزر اليسير الذي نقلناه لإفادتهم ما سمحت لنا بجمعه أيام محدودات، إن لم نقل ساعات معدودة، ونشير عليهم، كما قدمت في الأول، لأن مطالعة تفاصيل ما بالديار الباريسية يجدونها أحسن من هذا بكتاب (كشف المخبأ عن فنون أوروبا) و(بتخليص الإبريز في تلخيص باريز) و(بصفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار) و(بالاستطلاعات الباريسية) وبالرحلة الحافلة التي سيقوم بها وبتدوينها حضرة الأديب الفاضل الشاعر المجيد الشيخ سيدي محمد الحشائشي، كما هم على علم من ذلك.

وبعد هذا الاعتذار نعدكم بأن قلمي سيسير مستقبلا في محاذاة قاعدة الإيجاز التي هي شرط تحرير هاته العجالة،

غير مشرئب للتطويل، ولا ملتفت للجزئيات، عدا ما تمس به الحاجة، أو يقتضيه اللزوم.

وإتماما لما بمنتهى خلاصتي الثانية نقول: إن اجتماعنا بالخطيب الواعظ القس (لوازون) خاطب ود الإسلام، كان على شوق لاستطلاع تلك الأفكار الغريبة التي كان قام بالإفصاح عنها في خطابه البليغ الذي ألقاه أواخر عام 1895 بتونس في السعي بالتقريب لا بالتوفيق بين من يعمر المساجد، ومن يعبد بالكنائس، ونفيدك الآن أن ذلك الخطيب المحنك قد زاد توسعا في مشروعه بإضافة أهل البيع للفريقين الأولين، بحيث أن في عزمه الخروج من فرنسا، قاصدا الديار الشرقية، التي هي مهد المعابد والأديان المختلفة ليقوم خطيبا، وساعيا في توادد الشعوب توادا أجاب عنه الكتاب الكريم بطي عما به «ولو شاء ربك لهدى الناس جميعا»

ولنرجع للكلام على باريس فنقول: إن من أعظم مرافقها عربانات النقل المختلفة الأشكال والأصناف، التي تبتدئ بالنوع المسمى بالكروسة، ذات أربعة دواليب (عجلة) ويجرها فرس واحد، وتنتهي بالنوع المسمى (أطوموبيل) أي الآلة المتحركة الواحدة السائرة بالكهربائية، أو البخار، وبالترمواي الكهربائي ذي روحين، وبقطار الحديد المسمى (ميتروبوليتان) الذي يطوي مائة ميل في الساعة، وهذا الصنف الأخير من الحوافل إنما يسير تحت الأرض في غِيران صناعية، لا فوقها،وليس له مزجية (ماكينة) تجره بقوة البخار، بل يجر نفسه بفضل الكهربائية بعنصريها المتضادين الموزعة خاصيتيهما بين دواليب القطار، وبين الخطوط الحديدية التي يسير عليهما، أما جنس الكروسات البسيطة فإنه يتجاوز الثلاثين ألف بين عربانات

العموم والخصوص، وليس هنالك منظر أجمل من مشاهدة عدة آلات من الكروسات، تسير في آن واحد بين ظلال بستان واحد، وفوقها بنات الجنس اللطيف متكئات، كأنما هن على نمارق وفرش، وعلامات الانبساط والتيه تتلألأ على وجوههن.

ومن أبهج بقاع النزهة وأجملها بباريس المكان المسمى روضة الأصفياء (شانزيلزي) الذي أشرنا إليه في العدد الفارط، وهو عبارة عن حديقة رحيبة في الطول والعرض ذات شطرين، كل منهما ذو مقاعد وكراسي وفوانيس كهربائية وأشجار، وأنوار محكمة الترصيع، وحواليه يمينا وشمالا محلات النزهة والملاهي، وحوانيت الباعة التي فيها من كل فاكهة زوجان، وأرضه مبلطة بالخشب الصقيل، كغالب شوارع باريس، بحيث إن مرور آلاف الكروسات المتجولة به من الصباح إلى الليل، ومن الليل إلى الصباح، لا ينشأ عنه عطب لآذان الغانيات الحسان، اللاتي تمرحن به في الطول والعرض.

وفي هذه الحديقة الجميلة يرى الناظر من كل شيء أحسنه، وبها من سائر الفكاهات والألعاب بين مزمر ومشعوذ ومغن وعازق وساحر وقصاص، أما منظرها في الليل حال انتشار الجنس اللطيف بجنيناتها فأمر مهول، وحديثه يطول، والكثير من هاته اللطيفات إنما تقدمن هنالك للملاهي(تياتر) ولمحلات النزهة، إما بصفة متفرجات أو لاعبات، ومن هذا القسم الثاني من تحصل ببراعتها في فنون الغناء والرقص على الأموال الطائلة، والسمعة الهائلة، ومن عادتهم أنه إذا أجادت إحداهن في تشخيص رواية أو رقص أو غناء نقطوها بالورود والزهور، وقد أبدع في المعنى ابن المعتز حيث قال في مليح جدر:

يَا مَلِيحُ جُدرِ لَمَّا اسْتَوَى *** فَزَادَهُ حُسْنًا فَزدْنَا هُمُــوم
كَأَنَّهُ غَنَّى لِشَمْس الضُّحَى *** فَنقطتْه طَـرَبًــا بالنُّجُوم

وليس بباريس أحفل ولا أجمل من هذا المكان إلا البستان العظيم المسمى (بوا دو بولونيو) أي غابة بولونيا، وهي عبارة عن ندحة من الأرض، واسعة ممتدة، كلها شجر وحياض ومماشي، وظلال تجري من تحتها الأنهار، وبه طرق فسيحة للعواجل، ومقاعد وشلالات، ينحدر منها الماء، وآجام ورياض وقهاوي وخانات وملاهي، وفيه من سائر نباتات الدنيا وحيواناتها وطيورها، ولكل قسم من النبات والحيوان والطيور عيش وهواء، وترتيب لائق بمزاجه، بحيث إن الحشائش المتولدة بالبلاد الحارة محتجبة في بيوت من البلور، لوقايتها من البرد، وتسقى بماء سخن، مع هواء له من الحرارة الدرجة المماثلة لطقس الأرض التي ينبت بها، وقس على ذلك تربية الحيوانات الضارية والأهلية، والطيور المستجمعة من كل فج عميق، ومكان سحيق، وفي نظري أنه لا يمكن أن يكون في العالم بستان أجمل ولا أبدع منه، وقد بالغ بعضهم في وصفه فقال: إنه راموز الجنة، وأنا اكتفي بقولي: إنه راموز نعيم الدنيا،وهذا البستان تنتابه الرجال، وأكثر منهم النساء، للتنزه به في الغدو والآصال، حيث يقدم الشقان في ألوف مؤلفة من العربات التي تجرها عتاق الخيل، أو تسير بها فاعلية الكهربائية من الصباح إلى المساء.

وهنالك بساتين أخرى دونه في الشهرة والاتساع، ومثله في التنميق والتنظيم، ومنها بستان النبات وغيضة (مونصو) وبستان (لكسنبورغ) الكائن حوالي مجلس الشيوخ، وبستان (التويلري) الذي أقيمت به مأدبة فاخرة، شملت أكثر من

عشرين ألف نفس من مشائخ المدن، استدعاهم جناب رئيس الجمهورية الفرنساوية للطعام بمناسبة زيارتهم للمعرض العام.

وكل هذه المنازه غاصة في كل حين بالمتفرجين، وحركة بعضها في الليل أكثر مما بالنهار، ولا تجد بها في وقت من الأوقات متنازعين، فضلا عن متشاجرين، مع شدة الازدحام عليها: إذ ليس فيها من يكدر راحتك بتجشئه، ولا بخلع نعله، ومد رجله في وجهك، أو ببذر غبار نشوقه في عينيك، بل كل عالم بما له وما عليه من حقوق المعاشرة والجوار.

رأي سيديو في الحضارة العربيّـة :

[تقدّم الفرنسيين وتمدّنهم ذكّر ابن الخوجة باعتناء العرب بالعلوم حتى بلغوا فيه شأوا بعيدا، يقول] :

وقد قضت علي مشاهدة اعتنائهم بالعلوم بأنواعها، وإقبالهم على الترقيات الفكرية ونبذهم ظهريا للأوهام والعوائد السخيفة التي لم نزل نسبح في بحار جهالتها بالتفكر والاعتبار، ورجعت القهقرى للنظر في حضريتنا السالفة، ومقابلتها بحضريتهم، ثم بما نحن عليه الآن، فوجدت أن أسباب تقدمهم هي أسباب تقدمنا في القديم، وأن العلوم التي ارتقت بهم اليوم لأوج المعالي هي التي ساد بها أسلافنا مدة المئين الطولى من السنين، قال المؤرخ سيديو [1] الفرنساوي ما ترجمته:

---

(1) سيديو (1808 1887-) مؤرخ اشتغل كاتبا عاما للكوليج دو فرنس، ثم كاتبا عاما للغات الشرقية، له كتاب (تاريخ العرب) ط باريس 1854 وهو الذي ينقل عنه ابن الخوجة هنا.

«كان فن النقش والحفر متقدمين لدى العرب، وكذا الموسيقى والعمارة، فقد بنوا مباني فاخرة ببغداد والبصرة والموصل وسمرقند، وشغفوا مع ذلك بالعلوم الأدبية، فأحضروا من القسطنطينية (عاصمة الروم القديمة) أحسن الكتب اليونانية، وترجموها إلى العربية، وفتحوا ببغداد مدرسة ألسن لتربية المترجمين، ورتبوا خمسة عشر ألف دينار لمدرسة يتعلم بها مجانا ستة آلاف تلميذ من الفقراء والأغنياء، وأنشؤوا كتبخانات، رخصوا الدخول فيها لمن أراد، فانتشرت اللغة العربية في سائر جهات آسيا، حتى تكلموا بها، بدلا من لغتهم، واعتاد المأمون[1] ومن اقتدى به من بعده حضور الدروس العامة التي يلقيها المدرسون، وأطلعوا شموس العلوم الرياضية، وبنوا أرصادا، بها آلات عجيبة للاستكشافات الفلكية، ومستشفيات يمتحن فيها من أراد أن يوظف، ومعامل كيمياوية لتحليل النباتات» وقال في جهة أخرى: «وأظهر ذوو الفنون والصنائع العملية من العرب تقدمات يشهد بها ما بعثه الخليفة الرشيد لشارلمان إمبراطور الفرنسيس من الساعة الكبيرة الدقاقة التي تعجب منها أهل ديوانه، ولم يمكنهم معرفة كيفية تركيب عدتها، ومع ذلك لم يكن في عصر العباسية أهم من صناعة الفلاحة التي بمهارتهم فيها أظهروا مزايا الأثمار والأشجار والأزهار» وقال في جهة أخرى: «ولما اشتغل العرب بالفلك التفتوا إلى العلوم الرياضية، فأتوا بالعجب العجاب في الهندسة والحساب والجبر وعلم الضوء والنظر والهيئة، وترجموا كتبها من ابتداء خلافة

---

(1) عبد الله المأمون بن هارون الرشيد، الخليفة العباسي، من أشهر أعماله الفكرية تأسيسه لبيت الحكمة، توفي سنة218/833

المأمون، وشرحوا مؤلفات أرشميد [1] في الكرة والأسطوانة وغيرها، واشتغلوا قرونا بدقائق الهندسة، وظهرت حميتهم في المناظرات العلمية، خصوصا في المراسلات الرياضية، وطبقوا الجبر على الهندسة، وترجموا الكتب المتعلقة بآلات الحرب، كما ترجموا التآليف المتعلقة بالآلات السالبة للهواء، والرافعة للمياه، وألف الحسن بن الهيثم [2] في استقامة النظر، وانعكاسه في المرايا التي توقد النار، وألف الخازن [3] في علم الضوء، وفي المحل الظاهر للصورة من المرآة المنحنية، ومقدار الشيء الظاهر، وحجم صورتي الشمس والقمر، إذا رئيا على الأفق عند الشروق أو الغروب، وألف البتاني [4] المسمى بطليموس [5] العرب كتابا في حساب الأرباع الشمسية، وسماه الظل الممدود»

ثم قال: «وما أسلفناه هو كيفية ظهور تحكم العرب على جميع فروع تمدن أوروبا الحديث، ومنه يعلم أنه من

---

(1) أرشميدعالم يوناني اكتشف توازن الموائع وضغطها مات 212 ق. م

(2) الحسن بن الهيثم فلكي ورياضي، وعالم في الطبيعيات، ترجم كتابه (الناظر) في البصريات إلى اللاتينية، وأصبح كتابا مدرسيا في أوروبا في العصر الوسيط، وله»مقالة في الضوء» ترجمت الى الألمانية، وطبعت في لايبزيغ1882 توفي 1557/965

(3) أبو جعفر الخازن فلكي شهير من تآليفه العلمية(كتاب الآلات العجيبة الرصدية) وغيرها توفي 960/649

(4) أبو عبد الله محمد البتاني من علماء الفلك، له كتاب (الزيج الصافي) ترجم الى اللاتينية، وطبع في رومة 1889 وفي ميلانو 1907

(5) بطليموس جغرافي وفلكي يوناني من مؤلفاته (المجسطي) و(جغرافية بطليموس) توفي 168 م.

القرن التاسع إلى الخامس عشر كان عند العرب أوسع ما سمح به الدهر من الأدبيات، وأن نتائج أفكارهم الغزيرة واختراعاتهم النفيسة تشهد أنهم أساتذة أهل أوروبا في جميع الأشياء، كالمواد المختصة بتاريخ القرون الوسطى، وأخبار السياحات والأسفار وقواميس سير الرجال المشهورين، والصنائع العديمة المثال، والأبنية الدالة على عظمة أفكارهم واستكشافاتهم المهمة، وهذا كله يوجب الاعتراف برفعة شأن الأمة الإسلامية التي يحتقرها الإفرنج منذ أزمان بعيدة.

أما أخلاق أبناء باريس فهي من أنفس نفيس: إذ هم أهل ليانة وكياسة، قلما توجد عند غيرهم من الأوروباويين، وبقدر ما يغلب على طبيعة غيرهم الكبر والعجب، يوجد منهم عكس ذلك من الأوصاف الحميدة التي ينشرح لها الغريب في بلادهم، فقد رأينا من أفراد آحادهم ممن ليس له علاقة أصلا بالشرطة ورجالها قضاء الوقت الطويل في إرشاد الغريب، مع بشاشة وطلاقة محيا، ويرون ذلك من أوجب الواجبات عليهم: إذ هم يتحققون أن إحسانهم للغرباء، سيما أهل الفضل والعلم، يعود بأكبر الفوائد على بلادهم التي يستميتون في حبها،ولا غرو فجيل الفرنسيس، وإن اختلفت مشاربه في سياسة الأمور الداخلية التي تتنازعها عوامل الحرية بدرجاتها، أعني من الحرية المقيدة والمعتدلة إلى الحرية المتطرفة التي تولد منها الاشتراك والفوضى، كلهم يستوون في إحساس واحد، ونهضة واحدة في المحافظة على شرفهم، وإعلاء مركز أمتهم بين الأمم، ولقد قاموا غير مرة بأدلة واضحة، وبرهنوا عن هذا الإخلاص في خدمة وطنهم الذي يرون دونه أرواحهم، بما جعل لهم المكانة المكينة، والقدم الراسخ بين الملل والنحل.

ولم تر عيني أكثر تعجبا من نسائهم، فإنهن ميالات لكل جديد، وسائلات عن كل ذي شكل وحيد، بحيث إن الغريب في بلادهم، سيما إذا كان زيه مخالفا لزي رجالهم، ربما استوقفته، وفاتحته بالكلام عدة مرات في اليوم.

أما رجال الشرطة في فرنسا فإنهم أميل الناس للانصراف والتباعد عن المظالم، وكدت أن لا تسمع فيهم شكوى،وليسوا بالمتجسسين على أحوال أحد، إلا من تعلقت الإرادة بتتبع سيرته، حسب إذن من رئيس ديوان الشرطة، بل وكثيرا ما تحدث وقائع ليلية بمحلات النزهة واللهو، يخجل لسماعها صاحب الذوق السليم،والبوليس يتحاشى عن ضبطها، أو التداخل فيها، وهذه من الأمور التي قضت علي بالاستغراب، ولم أتدبرها إلى الآن.

ومن شاهد انهماك أهل اللهو بباريس في الليل يبقى متحير الفكر، إلى أن يطلع عليه صباح العلم والكد والجد فلا يرى حينئذ من سائر أفراد الناس إلا الإقبال على العلم والعمل، والسعي في الدنيا، سعي من يعتقد أنه خالد فيها خلود الجبال، وقد قلت في المعنى :

يُرَى بِاللّيْلِ عِنْدَهمْ مُجُونٌ *** وَلَهْوٌ وانْبِسَاطٌ وانْشِرَاحُ

وَكَدٌّ ثُمَّ جدٌّ فِي عُلُوم *** تُضِيءُ الكَوْنَ إنْ طَلَعَ الصَّبَاحُ

وما من إنسان تلقاه في أي محل، سواء كان عظيما أو حقيرا، إلا وهمه منصرف نحو المساعي الجسيمة، والمشروعات الخطيرة، ولم نسمع أن منهم من أجفل أمام المرامي الصعبة، بل كل منهم يترامى على الأمور العسيرة، ويغالبها حتى يذلل نواصيها، وتراهم كلهم يتهافتون على قراءة صحف الأخبار،وإعطاء نظرهم فيما يخص أحوالهم

وأحوال غيرهم، إلى أن بلغوا فيها لحد التطفل والفضول، حتى أن فقيرهم العويز، وجامع قوت يومه من شغل يده يرى نفسه من أليق الناس للنظر في مصالح الجمهور.

فهذه نبذة عن أخلاق الفرنسويين ننقلها على سبيل الأنموذج من عاداتهم وطبائعهم، التي امتازوا بها على من سواهم في هذا العصر، وأكسبهم صيتا بعيدا، وذكرا حميدا.

والآن نختم هاته العجالة الثالثة، لنتفرغ بعدها لنقل أحاديث المعرض بالخصوص، ثم ننهي جملة أخبار الرحلة بحوادث الرجوع من باريس لتونس التي عدنا لها عن اشتياق زائد، وكنا خلال مقامنا بباريس نتلقى أخبارها من حاضرتكم ومن الرائد:

كمْ مَنْزِلٍ فِي الأَرْضِ يألفه الفتَى *** وحَنِينُهُ أَبَـدَا لأَوَّلِ مَنْزِلِ[1]

رسالة موجهة لمدير الجريدة

(4) معرض باريس العام لسنة 1900

لا حاجة للإطناب في التعريف بالمعارض العمودية أو الخصوصية: إذ هي اليوم المحور الذي تدور عليه رحى الثروة التجارية والفنية عند سائر الأمم المتمدنة، بل نكتفي بقولي (هكذا) : إن هذه المعارض التي ضرب صداها بأقاصي بلاد المعمورة لها أصل عريق بالبلاد العربية، إلا أن ما اشتهر منها عند العرب هي معارض أو أسواق الأدب، سيما الشعر والخطابة، وفي سوق عكاظ [2] التي كانت تنعقد

---

(1) الحاضرة ع 619 بتاريخ 23 أكتوبر 1900

(2) سوق عكاظ من أشهر أسواق العرب في الجاهلية، بالإضافة الى مجنة وذي مجاز، وهي أسواق تجارية وثقافية، وليست لإنشاد الشعر

في مستهل ذي القعدة من كل عام، أيام الجاهلية ما يكفي لصحة ذلك.

ولقد جاء التاريخ الإسلامي بأن عين الهدى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مر ذات يوم بعكاظ، فرأى قس بن ساعدة [1] قائما، يخطب في الناس، ويعظهم بكلام بليغ، نقله بعد ذلك سيدنا الصديق [2] رضوان الله عليه، واستحسنه سيد الكائنات عليه السلام، كما ورد ذلك في قصة مشهورة، وفي معلقات البيت الحرام ما يشهد بنفاق سوق الأشعار، أو معرض الآداب، فيما مضى من العصور والأحقاب.

وجاءت الشريعة الإسلامية بالحث على نوع من الاجتماعات العامة، كصلاة الجمعة، والحج، يوم الموقف الأكبر بعرفة، وليس هو إلا معرض ديني، تحشر إليه الخلائق من كل فج، فيقضون فريضتهم، ويتبادلون عبارات التهنئة والولاء والتعارف، فيصبح المغربي نصير المشرقي، والهندي حبيب المصري، والتونسي صاحب الجاوي، وهلم جرا.

بعد هذا التمهيد نقول: إن أوروبا دامت بعد سقوط السلطنة الرومانية أكثر من ألف عام، وهي تائهة في غياهب الجهالة، لا ترى الضوء إلا من سم الخياط، وكانت إذ ذاك مملكة الإسلام ساطعة بنور العلم، إلى الحد الذي انتشرت

فقط، وإنما كانت تقام فيها التجارة، وفيها يعرضون آراءهم في مسائل تهمهم، وكان قس بن ساعدة يلقي مواعظه في سوق عكاظ.

(1) قس بن ساعدة من نصارى نجران توفي سنة 600 م أما الخطبة التي سمعها الرسول فمشهورة بدايتها: أيها الناس اسمعوا وعوا فإذا وعيتم فانتفعوا...

(2) يقصد أبا بكر الصديق الخليفة الراشدي الأول، توفي 13/ 634

به شموس حضارتها فيما بين المشرقين والمغربين، ودامت السلطة الإسلامية حاملة لراية العرفان، قابضة بيد عدالتها على ميزان الحق، إلى الوقت الذي سرى في أعصابها داء الاستبداد الناشئ عن تقهقر سلطان العلم، فولت في سيرها الإدبار، وسبحان محول الليل والنهار.

ومن نحو ثلاثمائة عام أخذت أوروبا تكدح للنهوض من مهواة السقوط، والخروج من تحت ستار الدعة والسكون، الذي أنّت طويلا في دياجي ظلماته، فمزقت بسيف العلم القاطع لكل ضلالة أردية الأوهام التي كانت معتجرة بذيولها عن نور الحقائق، وبرزت عذراء تقول :

بَعْدَ الخُمُول وَالسُّكُونِ وَالْفَشَلْ
بَـرَزَتْ فِي ثَـوْبٍ قَشِيـبٍ وَحُلَـلْ
بِفَضْلِ عِلْمٍ وَاجْتِهَــادٍ لاَ يُمَلْ
لاَ بِالتَّـــرَجِي وَبِلَيْتَ وَلَعَل

وما زالت أوروبا تتدرج، شيئا فشيئا، وآنا فآنا، إلى أن بلغت في حضارتها شأوا بعيدا وضربت بحسام سيطرتها على رقاب الأمم الفاشلة، فخضعت لأوامرها، وخنعت لنواهيها قال الشاعر:

وَلاَ زَالَـتْ أُورُوبَـا الآنَ تَـرْقَـى
لأَوْج دُونَـهُ القَمَـــرُ الظَّهِيـرُ
وَفِيهَا أَصْبَحَتْ مِنْ غَيرِ رَيْبٍ
بُحُورُ العِلْـمِ تَحْـوِيهَا الصُّدُورُ

هذا، وبانتشار الحضارة، وتوفر أسباب الرفاهية بين جدران أوروبا، أخذ أهلها يتفكرون في وسائل تنمية ثروتهم، وإشهار

مفاخرهم، فدبروا لذلك إيجاد المعارض، التي هي أجدر بأن تسمى بالأسواق لأهل الحواضر والأفاق،وأول أمة جادت قريحتها بهذا المشروع العظيم كانت الأمة الفرنسوية: إذ هي نظمت معرضا خصوصيا لنتائجها في أواخر القرن الثامن عشر، ومن ذلك العهد اقتدى بها دول أوروبا، ففتحت بعواصمها المعارض العمومية، وجددت فرنسا عهدها بالمعرض الخاص، وارتقت منه لفتح عدة معارض عمومية، أولها سنة 1855 ثم ثانيها في سنة 1867 ثم ثالثها في سنة 1878 ثم رابعها [1] في سنة 1889 ولم تزل أخباره بذكر أبناء جيلنا الحاضر، لقرب عهده منا، ثم خامسها المعرض الحالي، وهو واسطة السلك.

أراني لوصف هذا المعرض مقصرا عن إفادة قرائكم، لأن وصفه بالطريقة المبينة المفيدة لا تقوم به إلا المجلدات الضخمة، التي يتصدى لتدوينها أرباب الأقلام الذين ركضوا في كل ميدان، ودخلوا لكل إيوان.

أما قلمي القاصر فلا يمكنه أن يسبر غور هذا الأمر الجلل، ولو بالتطور والحيل، ولذلك نكتفي بمحاذاة هذا الموضوع، مجرد محاذاة، غير متعمق ولا شارح للجزئيات، بل مقتصر على أهم الكليات، فنقول : هذا المعرض هو آية الترقي في الصنائع والمخترعات والعلوم والفنون بأنواعها، وقد احتوى على كل راموز من كل شيء نفيس، جادت به القريحة البشرية من كل صقع وناد، فهو عبارة عن محشر دنياوي، دعيت إليه الخلائق من بني سام وحام، فيمموا أبوابه، وحطوا به رحالهم، طالبين الجزاء الأوفر من عمل أيديهم بشكر أياديهم.

---

(1) انظر عنه محمد السنوسي : الاستطلاعات الباريسية ط تونس 1309/ 1891

وهذا المعرض يشغل من الأرض مساحة قدرها نحو مليون ومائة ألف متر مربع، أي مساحة إحدى عشرة ماشية بحساب بلادنا [1] به السرايات البهيجة، والمحلات الضخمة، والمباني الشامخة المخصصة لعرض المعروضات، المستقل كل قسم منها بقسم منه، وجملة أقسامه 121 قسما، نذكر منها ما بقي بحفظنا عند زيارته.

فأولها قسم العلوم والمعارف ومكارم الأخلاق، وتتفرع عنه التربية والتهذيب والتعليم بأنواعه من فكري وصناعي، ثم قسم الآثار المستظرفة من دهن وتصوير ونقش بالتجسيم وبالحفر وهندسة بناء، ثم قسم آلات الهندسة والرسم والطب والموسيقى، ثم قسم الماكينات البخارية من مزجيات وآلات رافعة وغيرها، ثم قسم الكهربائية وما يتبعها من هالات الإسراج بالتلغراف والتلفون، ثم قسم آلات النقل من سرج الفرس إلى المنطاد (بالون)، ثم قسم الزراعة وما يتبعه من هندسة الفلاحة والغرس بأنواعه والحشرات، ثم قسم الخضر والمقاثي والزهور، ثم فسم الغيب (هكذا) وما يتبعها من الحيوانات الضارية والمتوحشة، والصيد والقنص، وقطف الأثمار، ثم قسم العطريات بأنواعها، ثم قسم المعادن بأنواعها، ثم قسم أثاث البيوت، ثم قسم منسوجات الكتان، ثم قسم التركيبات الكيمياوية، وما يتبعها من صيدلة وعقاقير، ويلتحق بها دخان التبغ، ثم قسم الكاغذ خانة، ثم قسم الحجارة الكريمة والنقدين، ثم قسم فنون صحة الأبدان وطهارتها، ويتبعه الرياضة البدنية والمعاش، ثم قسم المعارف الاستعمارية وأدواتها ونتائجها، ثم قسم آلات الحروب البرية والبحرية.

---

(1) الماشية تساوي عند الفلاحين بتونس مائة هكتار

ولكل قسم من الأقسام المتقدمة محل يخصه، محكم التنظيم والترتيب، يحتوي على سائر متعلقاته من كتائب وآلات ونتائج وخواص، ويتكون من جملة تلك الأقسام بإضافة ما لم يحضرني الآن، أو ما يضيق المقام عن نقله لقراء الجريدة، مجموع المعرض الفرنسوي بفروعه، ومنه يعلم أن أمة الفرنسيس بلغت في حضارتها لأوج العز والسعادة: إذ هي استخدمت فكرتها، وأجالت قريحتها في كل ما يمكن للعقل الإنساني استخراجه بقوة العلم من حيز الوهم إلى عالم الوجدان.

وقد دعت فرنسا لهذا المعرض سائر الأمم، فلبت دعوتها، وشيدت بساحات المعرض قصورا أنيقة، وسرايات شامخة، رصعتها بنتائج ومصنوعات بلادها، وهاته القصور والسرايات بنيت بكيفية مقلدة على نفس بناءات بلدان أصحابها، ومن مجموعها تكون قسم مستقل، جاء وضعه على الضفة اليسرى من نهر السين في شارع فسيح أنيق، سمي نهج الأمم، إشارة لتخصيصه أمم أوروبا.

وأول قسم أوروباوي من معرض الأمم هو القسم الطلياني، وبه من عجائب الآثار، وآثار العجائب ما لا يتمالك معه صاحب الذوق السليم عن إظهار إعجابه واستحسانه لجودة ودقة المصنوعات الطليانية، سيما أشغال الفرفوري، والمنقوشات الحجرية والمعدنية.

ويلي هذا القسم في الوضع القسم العثماني، وهو بناء مشرقي، بديع الشكل، ضم بين أضلعه راموزا من كل تحفة أو مخترع، جادت به قريحة الأتراك، وبه بناءات

تقليدية لمسجد بكي جامع، ولسبالة السلطان أحمد [1] ولجامع بروسة،ولسراية السر عسكرية، ويلي القسم العثماني قسم الدول المتحدة بأمريكا، فالنمسا، فالبوسنة، والهرسك، وبه من المنسوجات الشرقية، وغرائب ما يقضي بالحسرة على خروج هاتين الولايتين من يد السلطة الإسلامية، وبعدهما قسم المجر، فبريطانيا العظمى، فالفرس، فبلجيكا، فالنرويج، فالروسيا، فألمانيا، فإسبانيا، وقد شاهدنا من ضمن المعروضات في هذا القسم خنجر وقفطان الخليفة أبي عبدالله بن الأحمر [2] آخر ملوك غرناطة، وبعد اسبانيا زرنا قسم رومانيا، فموناكو، فالسويد، فاليونان، فالصرب، ولا يكاد المتفرج الخبير أن يدرك فرقا بين مصنوعاتهم ونتائجهم، وبين نظيراتها ببقية البلاد الشرقية الإسلامية، حتى أن لباس نسوتهم كلباس بنات الشرق، وهذا مما يؤيد أن السلطة الإسلامية بقيت آثارها في أخلاق وعوائد القوم، لهذا العهد.

وعلى الضفة اليمنى من نهر السين توجد معارض المستعمرات الأوروياوية من فرنسوية وروسية وانكليزية وهولاندية وهندية، ويجاورها معارض بقية الأمم الأفاقية، كالصين والترنسفال ومراكش ومصر واليابان، وبه من عجائب المصنوعات القديمة ما يحتار بتدبره الرجل المحنك الخبير.

أما معارض المستعمرات الفرنسوية، والبلاد التي لحماية

---

(1) السلطان العثماني وقد تولى الخلافة من سنة 1603 الى 1617

(2) ابو عبد الله الأحمر آخر ملوك المسلمين بالأندلس، كان ملكا على غرناطة، افتكها منه الأسبان سنة 1492 وبكى عند خروجه منها فقالت له أمه:ابك كالنساء ملكا مضاعا لم تحافظ عليه مثل الرجال، توفي بمنفاه سنة 1527

الدولة الجمهورية، فهي معرض القطر التونسي المحروس، فالجزائر، فالسودان، فالسينغال، فالداهومي، فساحل العاج، فالكمبودح، فالتونكين، فغويانه، فمارتنيك، فمدغشكر، فالكونغو، فبقية المستعمرات الفرنسوبة.

وأما معارض المستعمرات الانكليزية، فأهمها القسم الهندي الدال على عراقة تمدن البلاد الهندية، بلاد العجائب والغرائب، وكذا قسم الكندا الأمريكاني، التابع لانكلترا الذي لسان حاله (فاق الفرع أصله) ولنرجع للكلام على ما يخص القسم التونسي، وهو الذي يهم قراء صحيفتكم، فنقول إن إدارته سلمت لإنسان نشيط، ومدبر خبير، ونعني به الحكيم (لوار)الطبيب المشهور بالحاضرة التونسية، وقد زرنا هذا القسم مرارا، أثناء إقامتنا بباريس، بوجود جمع من أعيان تجار بلادنا به، وتأنسنا بطري حديثهم، ولطيف أخبارهم، سيما الأجلاء المكرمون السيد الصادق عنون، والسيد أحمد جمال، والسيد علي البربوشي، وحفيده السيد يونس، أما الحكيم لوار المشار إليه، فإنه أكرم وفادتنا، وتفضل بالطواف معنا، خلال أقسام المستعمرات، وشرح لنا أسرارها، وسهل لنا المواصلة مع غيرها من الأقسام الكبيرة، التي لا يدخل لها الزائر إلا برخصة رسمية، كالقسم الألماني البديع الإتقان، والقسم الياباني الذي نوهنا قريبا بشأنه.

وهذا القسم التونسي آية في التنظيم والترتيب، سيما قسم الآثار القديمة، الذي قام بعرضه الحازم النشيط قوكليمر، مدير الأنطكخانة بتونس، وقسم الزراعة وما يتبعها الذي هو صنيع إدارة الفلاحة بالحاضرة، وأما السوق التجاري الكائن داخل المعرض التونسي، فلا يجد التونسي فرقا بينه وبين أسواق التجارة، داخل المدينة هنا، وأما شكل بناء المعرض من الخارج

فإنه مقلد على قباب ووضع جامع محمد باي المرادي[1] المواجه لضريح سيدي محرز بن خلف، نفع الله به.

وهذه الأقسام الاستعمارية واقعة كلها حول قصر (التروكاديرو) البهيج المسامت لصرح ايفل، الذي هو ذخيرة معرض عام 1889 وهذا الصرح لم يزدد عليه شيء.

من يوم تأسيسه، سوى أنه جدد دهنه في هذا العام، بما بلغت نفقته مائة ألف فرنك، وهو كما كان لم يزل أول أعجوبة في هذا العصر،يقصدها زوار المعرض من كل فج عميق، وزيد فيه، عما كان قبل، سبعة آلاف قنديل كهربائي في سمت مربع ممتد من أعلاه لأسفله، ويقابل الصرح من الجهة الأخرى الموازية (للتروكاديرو) قصر الكهربائية، وهو آية في الإبداع، وفيه من آلات الكهربائية والقوة الفاعلية بها، ما لا يقدر على وصفه لسان، ومنه تنبعث سيول الكهرباء فتنير آلاف المصابيح التي بسائر بقاع المعرض، أما أسراج قصر الكهربائية نفسه فهو عبارة عن خمسة آلاف نور، ذات ألوان شتى، بحيث إن الناظر لمجموع هيئة المعرض في ليالي الآحاد والأعياد، يخال نفسه في إحدى تلك المدائن التي جاء وصفها في كتاب ألف ليلة وليلة.

وكما أن فاعلية الكهربائية تضيء عموم المعرض نحو عشرين ألف سراج (زيادة على الصرح والقصر الكهربائي) كذلك تحرك بقوتها الخصوصية جميع الماكينات التي بأقسام المعرض، فتديرها على قاعدة علمية، بما يشخص للناظر نفع

(1) هو الباشا محمد بن مراد باي الثاني تولى الحكم سنة 1675 انظر ابن الخوجة معالم التوحيد ص110

تلك الماكينات وخصوصيتها، ومن هذا القبيل رأينا ماكينة ذات دواليب متعددة، يوضع بأولها الخشب بحالته الاقتطاعية، وينتقل من دولاب إلى دولاب، حتى يخرج من آخرها ورقا مكتوبا بالطبع في قالب جريدة أو نحو ذلك،بحيث يصح أن يقال إن أعظم آثار هذا المعرض هما قصرا الماكينات والكهربائية.

وهنالك غير ذلك من القصور الشامخة المخصصة لأنواع المخترعات والتقدمات الفنية، ومن أهمها قصر الضوء، وبه المرآة المكبرة الجديدة التي تقرب القمر لمرأى العين عن بعد ستين كيلومترا، ومنها قصر الغيب، وبه من الحشائش الحقيرة إلى أضخم الأشجار، ومن سائر الحيوانات الضارية، المصبرة أجسامها، وكذلك قسم الحيوانات البحرية من كل ما عثر عليه الملاحون في مشارق الأرض ومغاربها.

أما معرض المخترعات الحربية، بقسميها البري والبحري فلا مبالغة إذا قلنا: إنه يذهل الأبصار، ويدهش المستطلعين من رواة الأخبار، وهو عبارة عن دار تشخص جميع ما توصّل إليه فكر بني الإنسان من وسائل البطش والإيقاع ببني جنسه، وكل من يتأمل هذا القسم بدقة لابد وأنه يسأل نفسه إلى أين تريد الأمم أن تسير بتجهيزاتها الحربية، واختراعاتها الجهنمية، ويدعو إلى الله أن تكون تلك القنابل القاتلة، والبوارج القوية الهائلة أعوانا للسلام، لا للمصارعة والاحتدام.

ويحدق بالمعرض طريق صناعي من خشب، بني حول المعرض في علو عشرة أمتار، ويسير وحده بمن يطأه من دون تعب ولا كلام، وهكذا يستمر في دورانه بالمعرض آناء الليل وأطراف النهار، وتحته خط حديدي لقطار يسير بالكهربائية بسرعة تشبه سرعة طيران الخطاف.

أما محلات النزهة بالمعرض فأمرها نفيس، وحديثها أنيس: إذ منها الملاهي من النوع الأوروباوي والتركي والمصري والتونسي والجزائري والمراكشي والهندي والصيني، ومن سائر البقاع على اختلاف الأوضاع والطباع.

ومن المناظر البهية المشخصة للبلاد الأجنبية، والأسفار البحرية ما يسمونه (بنورما) و(مريورما) ولقد شاهدنا، بهذه المناظر الجميلة التي يخال ناظرها لدقة حركتها العلمية أنها أشباح حسية، مرسى سوسة التونسية، وكثيرا من البلاد مما نعرف وممّا لا نعرف، وبالجملة فتفاصيل المعرض لا يأويها إلا وقر بعير من تدوين حبر خبير.

اما عدد زائريه في كل يوم فَيبلغون في سائر الأيام لعدد متوسط قدره ثلاثمائة ألف نسمة، وإلى ضعفه في أيام الآحاد والأعياد، فترى الخلائق فيه منتشرة انتشار الذباب على قدح الشراب، وكل يهتف بلسان حتّى يخال السامع أنه في خليط من الإنس والجان.

وهنا أكبح عنان قلمي عن زيادة الكلام بخصوص المعرض الذي صورته لكم في هذا المقال بصفة إجمالية، لا يصح لي خشية الوقوع في الغلط أن أزيد فيها، وفي ظني أنها كافية لمن اقتصر عليها.

وسنوافيكم في خامسة رسائلي التي هي خاتمة المطاف بأخبار زيارتنا لمدينة فرساليا، مركز الملك بفرنسا في القديم، ونعقبها بحديث رجوعنا للأهل والوطن، وكل آت قريب[1].

---

(1) الحاضرة ع 620 بتاريخ 30 أكتوبر 1900.

المصـادر والمـراجع

جريدة الحاضرة 1888 ـ1911

محمدابن الخوجة :

أ) معالم التوحيد في القديم وفي الجديد ط تونس 1358 /1939

ب) صفحات من تاريخ تونس جمعها وقدم لها حمادي الساحلي والجيلاني بن الحاج يحي ط بيروت 1986

خير الدين الزركلي :

ـ الأعلام ط (7) دار العلم للملايين بيروت 1986

الصادق الزمرلي :

ـ أعلام تونسيون تعريب حمادي الساحلي ط بيروت 1986

حمادي الساحلي :

ـ فصول في التاريخ والحضارة دار الغرب الإسلامي بيروت 1992

احمد ابن أبي الضياف :

ـ إتحـاف أهـل الزمان بملوك تـونس وعهـد الأمـان ط تونس 1990

محمد الفاضل أبن عاشور:

أ) الحركة الأدبية والفكرية ط 2 تونس 1972

ب) تراجم الأعلام ط تونس 1970

حسن حسني عبد الوهاب :

ـ خلاصة تاريخ تونس ط تونس1976

علي العريبي :

ـ الحاضرة نشر كلية العلوم الانسانية والاجتماعية تونس 1995

Arrouas (Albert) Livre d'or Figures d'hier et d'aujourd'hui ed Tunis 1923

Canal (Albert) La litterature et la Presse Tunisienne de l'occupation a 1900 La renaissance du livre Paris 1923

Lambert (Paul) Choses et Gens de Tunisie Dictionnaire illustré de la Tunisie Tunis 1912

وغيرها من المراجع المذكورة في الهوامش، وكذلك القواميس والمناجد باللغتين العربية والفرنسية

فهـــرس المواضيـــع



محمد بن الخوجة في صورة رسمية

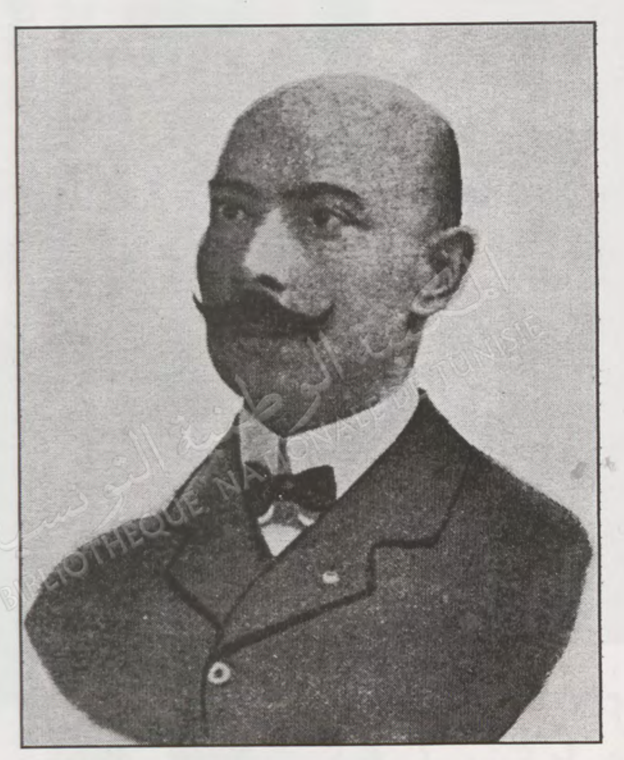


الجالسون من اليمين إلى اليسار : خليل بوحاجب - البشير صفر - الشيخ محمد عبده - عمر القلاتي - محمد بن الخوجة

الواقفون من اليمين إلى اليسار : عمر البكوش - عبد الجليل الزواش - عمر بوحاجب - علي بوشوشة - زواش المصري - الشيخ العتكي



صورة المؤلف المرحوم
محمد بن الخوجة



صدى الماضي : صورة محمد ابن الخوجة سنة 1908

تذكار المودة والاخلاص لاخينا اللوذعي الالمعي الامجد
نخبة الاماجد من اهل البراعة والشان امير الامراء
سيدي الحبيب الجلولي رئيس جمعية الاوقاف
لا زال محروس الجناب عالي الركاب

في 2 رجب ١٣٠٨

محمد بن الخوجة

نموذج من خط المؤلف

محمد بن الخوجة

تاريخ معالم التوحيد
في القديم وفي الجديد

تحقيق وتقديم

الجيلاني بن الحاج يحيى   حمادي الساحلي

دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان





حاولت في هذا العمل أن أبرز مشاركة محمد ابن الخوجة في الدفاع عن الثقافة الوطنية التي عمل الاستعمار الفرنسي على إطفاء جذوتها، وطمس معالمها، ولم يفلح في ذلك، بفضل جهود النخبة المثقفة التي كان ابن الخوجة من أبرز عناصرها.

وتمثّل دفاعه عنها في إحياء التراث الثقافي والحضاري، وهو الحصن المنيع الذي لم تستطع الثقافة الغازية اقتحامه، ولا النيل منه، وكان جماعة الحاضرة، ومنهم ابن الخوجة، يرفضون رفضا قاطعا أن تمس هوية تونس العربية الاسلامية من بعيد أو من قريب، ولعل وطنيتهم الصادقة تمثلت في هذا الجانب، وكان الكثير منهم يعتقد أن الاحتلال زائل لا محالة، وكان شعارهم جميعا «كل آت قريب» وكانوا يرغبون من الاحتلال نشر التمدن والحضارة بالبلاد التونسية، ونشر التعليم والعمل على اخراج البلاد من التخلف، حتى تلتحق بركب الأمم المتقدمة، وهذا هو سر مداراتهم له، ولعلهم وابن الخوجة منهم، كانوا يرددون : وَدَارِهِمْ ما دمت تحت حكمهم، حتى ينقشع الظلام، وتزول الغمّة.

ويبدو أن دور ابن الخوجة في التوجه إلى تاريخ تونس، واختيار عينات من هذا التاريخ، ودراستها بمنهجية علمية أمر لا يمكن أن ينكره أحد، وليس لذي لبّ أن يستهين به.

ولا شك أنه يستحق أن يصدر عنه كتاب في سلسلة (ذاكرة وإبداع) التي تصدرها وزارة الثقافة، بإشراف الأستاذ عبد الوهاب الدخلي، كما صدر عن رفيقيه صفر وبوشوشة من قبل، ولوزارة الثقافة كل التقدير والتنويه على جهودها في التعريف بهؤلاء الأعلام الذين خدموا تونس الحضارة والتاريخ بصدق وأمانة، ثم رحلوا... رحمهم الله.

علي العريبي

8,500 د. ت.